الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة باتنة 1
كلية العلوم الإسلامية
قسم اللغة والحضارة الإسلامية

مطبوعة لطلبة جذع مشترك / السنة الثانية
شعبة / اللغة العربية و الحضارة الإسلامية

مقياس

مدخل إلى الحضارة الإسلامية

جمع و تنسيق

الأستاذ الدكتور / منصور كافي

السنة الجامعية : 2021/2020

مقدمة :

الحمد لله الذي أنزل القرآن هدىً للناس وكتابا مبينا، والصلاة والسلام علىٰ من بعثه الله ليبين للناس ما نزل إليهم وسراجا منيرا، وعلىٰ صحبه وسلم تسليما كثيرا.و بعد :

فعندما أسند إلي تدريس مقياس مدخل إلىٰ الحضارة الإسلامية لطلا ب الجذع المشترك ،السنة الثانية، شعبة اللغة العربية والحضارة الإسلامية بكلية العلوم الإسلامية جامعة باتنة1 ، لم أجد كتابا يجمع مفرادات المادة ، ،فوضعت لهم هذه المطبوعة و المعنونة ب : **مدخل إلى الحضارة الإسلامية**.

أرجو أن تكون وافية بالغرض المطلوب،ولا أدعي أني استقصيت المراد،ولكنه جهد المقل.

والله أسأل أن يجعله خالصا لوجهه الكريم، وأن ينفع به، وأن يغفر لي ولوالدي و لجميع المسلمين، إنه سميع مجيب،وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

الأستاذ الدكتور منصور بن فضيل كافي

الفرع الأول: الحضارة: تحديد وبيان

تعريف الحضارة :

أ – : **لفظ حضارة من حيث اللغة**[1]:

1 – **اللغة العربية**: يقول المعجم الوسيط: " الحضارة " – بكسر الحاء وفتحها – تعني الإقامة في الحضر، وأن مظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي في الحضر[2] .

وفي القاموس المحيط " الحضارة " ضد فعل " غاب "، والحاضرة والحضارة " ويفتح " خلاف البادية[3] .

وفي تاج العروس .. " الحاضرة والحضرة والحضر هي المدن والقرى والريف، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار[4].

إن كلمة حضارة مشتقة من الحضر، وقيل: الحضارة الإقامة في الحضر، ولم يميز الغربيون بين الحضارة والمدنية، لقد استخدمها **"ول ديورانت "** بمعنى واحد في كتابه القيم: **قصة الحضارة**.

وعنى الغربيون بالحضارة: التقدم العلمي والتقني والرقي الذي وصلت إليه المجتمعات.

ويمكن القول:

إن الحضارة هي: محاولات الإنسان الاستكشاف والاختراع والتفكير والتنظيم، والعمل على استغلال الطبيعة للوصول إلى مستوى حياة أفضل، وهي حصيلة جهود الأمم كلها، ولا شروط عرقية لقيامها، ويتم الاتصال بين الحضارات، وبالتالي انتقالها عن طريق الفتح، أو الهجرة أو التجارة، أو الجوار ... الخ.

وبهذا يكون معنى الحضارة من حيث الأصل أوسع دلالة من الثقافة لأنه إذا كانت الثقافة هي نتاج المعرفة و تنمية العقول، فمن الواضح أنها لم تنشأ إلا بعد الاستقرار الذي تمثل في سكن المدن والأمصار.[5]

فهي خاصة بالأمور المادية، لدلالة على الوسائل والمخترعات التي وصل المجتمع الإنساني بها إلى ما هو عليه.

2 – **في اللغة الأجنبية**:

لفظ حضارة Civilisation مشتق من كلمة Civtas في اللاتينية بمعنى المدينة، أو من Civis بمعنى مساكن المدينة، أو من Civilis بمعنى مدني أو ما يتعلق بساكن المدينة، حيث تقوم الحياة عادة في المدن[6].

وأحيانا يستخدم البعض كلمة Culture على أنها مرادفة للحضارة، وقد اختلف معنى الثقافة وتطور كثيرا منذ عرفه الناس، فاللفظ من ناحية اشتقاقه اللغوي، مأخوذ من اللاتينية، ويراد به إصلاح الشيء وتهذيبه وإعداده للاستعمال،

---

[1] – قد اعتمدت في هذا المبحث على كتاب أسس الحضارة عند مالك بن نبي للدكتور سليمان الخطيب فمن أراد التوسع أكثر والدقة فاليعود إليه.

[2] المعجم الوسيط ... مجمع اللغة العربية: ص 180.

[3] القاموس المحيط: جـ 2 ص 10 .

[4] تاج العروس: م 3، ص 146.

[5] – لمحات في الثقافة الإسلامية: عمر عودة الخطيب، ص: 42 – 43 .

[6] د. أحمد محمود صبحي: فلسفة الحضارة، ص 3.

ومن هنا قالوا Agri-culture أي إصلاح الأرض وزراعتها. أي أن الثقافة في تهذيب العقل بعد أن كان اللفظ يتصل بفن تشذيب الأرض والزرع، ومن ثم فإن لفظ Culture يفيد طريقة شعب ما، ومجموعة أنظمة ونظرته إلى الحياة والكون[7].

وبعض الكتاب يميز بين لفظي حضارة، ومدنية، فيجعل لفظ الحضارة خاصا بالتكوين الثقافي والمعنوي لمجتمع ما، ولفظ مدنية يعد أكثر اتصالا بالحياة العملية.

على أن التفرقة بين الحضارة على أنها تختص بالجوانب الثقافية والمعنوية بينما تختص المدنية بالجوانب المادية والعملية، قد أدى إلى اقتراب لفظ حضارة من لفظ الثقافة إلى حد صعوبة التمييز بينهما، حتى أن " **تيلور** " قد استخدمها كمترادفين، حيث يرى أن لكل مجتمع حضارته أو ثقافته الخاصة Culture بينما ليس لكل مجتمع بالضرورة " مدنية " لأن الأخيرة تمثل نمطا معينا من التطور.[8]

إذا فكلمات مثل الحضارة والمدنية والثقافة، تستخدم أحيانا وكأنها تحمل معاني واحدة، حيث يمكن استخدام كل منها بصورة توحد بينها جميعا من حيث المعنى والاستخدام، وهذا موقف ضد منطق اللغة – هذا من جهة – ومن جهة أخرى ترفضه الكيانات الحضارية المختلفة لما تنطوي عليه من تنوع العناصر التاريخية والعقيدية والاجتماعية التي تساهم في التكوين الحضاري لأي مجتمع من المجتمعات، مما يضطرنا إلى ضرورة تناول كل حضارة ككيان خاص بذاته، حيث أن لكل حضارة تصورها الخاص الذي يسيطر ويوجه نتاج جميع الحضارات. ومن هنا تتضح لنا أهمية العلاقة بين التاريخ كوقائع، وبين الحضارة كوحدة للدراسات التاريخية.

في تاريخ الاصطلاح الغربي: مما لا شك فيه أن الحضارة من أهم مجالات الدراسة التاريخية، على اعتبار أن التاريخ يدرس الحضارات ضمن مجالاته، حتى أن " **توينبي** " المؤرخ الإنجليزي قد جعل الحضارة محور الدراسات التاريخية، وذلك في موسوعته الضخمة ... دراسة للتاريخ (Study of history). فيترتب على هذا أن الحضارة جزء من التاريخ، ومن هنا أهمية التعرف على ماهية التاريخ والفائدة التي يمكن أن يجنيها المرء من دراسة الوقائع التاريخية بوصفها معبرة عن كيانات حضارية[9].

وبذلك نصل إلى تحديد الموقع الحقيقي للحضارة وفلسفتها بين كل من التاريخ والفلسفة حيث أن فلسفة الحضارة علم يقع في المنتصف بين كل من التاريخ والفلسفة، ومن علم التاريخ ندرس تاريخ الحضارات.

---

[7] نفسه، ص 4

[8] نفسه، ص 4.

[9] معنى التاريخ من ناحية الاشتقاق اللغوي: يعتبر لفظ، العربي تعريبا للفظ أستوريا اليوناني، وقد كتب هوميروس إلياذته على أنها تاريخ بالرغم من أنها قصص خالص، نسج على أساس وقائع ماضية سجلها في أشعارهم وقصصهم دون تحقيق، ولم يتغير الأمر كثيرا – حتى على يد أرسطو – فقد فضل فن الدراما أي القصص المسرحية على التاريخ، لأن التاريخ في رأيه يسجل أحداثا مرسلة لا تنسجم في إطار قصته مكتملة كما هو الحال في المسرحيات، حتى هيرودوت الذي يلقب بأبي التاريخ، نجد كتابته التاريخية حافلة بالقصص الخيالية والمبالغات، ولكنه – على أي حال – اتجه إلى تحديد بعض الأحداث، وبعد هثيرودوت بدأ التاريخ يظهر كضرب مستقل من المعرفة على يد " ثوكيديد "، حيث شعر أن مهمته هي رواية الأحداث الماضية ونقدها.

للمزيد: د. حسين مؤنس، الحضارة، ص 13 وما بعدها. وفي العصور الوسطى قدمت المسيحية التاريخ كأنه شكل مأساة، حيث ظل مفهوم التاريخ عندهم كأنه حقبة من المحن وإعداد لحياة بعد الموت. " ينظر في هذا البيان وبد جيري، المذاهب الكبرى في التاريخ ص 153 "

ب - الحضارة في الاصطلاح :

بعد أن تناولنا لفظ حضارة من حيث اللغة، نحاول الآن التعرف على المعنى الاصطلاحي للفظ. وأول ما يهمنا في هذا الأمر، ضرورة الإشارة إلى أن كلمة "حضارة " و " تحضر " لم تكن شائعة الاستعمال عند العرب، ولطيلة عدد من القرون التي أعقبت الفتوحات الإسلامية، ونستثني من ذلك " ابن خلدون " لأنه أول من عبر عن المعنى في مقدمته بالرغم من أنه كان يستخدم مصطلح " العمران البشري " كمرادف لمعنى الحضارة[10] وقبل أن نتعرض لدلالة اللفظ من الناحية الاصطلاحية في النص القرآني أو السنة النبوية الشريفة، وكذلك قبل أن نعرض لنماذج من تاريخ الفكر العربي الإسلامي، نحاول أن نتعرف على مصطلح الحضارة في تاريخ الفكر الغربي، حيث أن اللفظ حديث الاستخدام نسبيا، بما أنه نشأ خلال الاحتكاك الثقافي بين الشرق والغرب.

الحضارة في علم الأنثروبولوجي :

يتنوع تعريف لفظ الحضارة في علم الإنسان من وجهات نظر مختلفة، ويتم ذلك بطريقين:

أولا: التعريف الجامع الذي يحتوي على معنى الثقافة Culture بما تتوارثه من تقاليد اجتماعية شاملة للجنس البشري، مثل التعريف التقليدي الذي أبرزه **الأنثروبولوجي "تيلور"** سنة 1871 بأن الثقافة هي " ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والعقيدة والفن والأخلاق والقانون والعادات الاجتماعية، وكل القدرات الأخرى التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضوا في جماعة".

ثانيا: التعريف الذي يشير إلى التصور الفردي أو النسبي للثقافة، إنه يحدد مفهوم الثقافة بالنسبة للإنسان فردا كان أو جماعة في كلمات الأنثروبولوجي الأمريكي " **كلايد كلاكهون**" و " كيلى " في " أن الحضارة تعني النتاج التاريخي لتنظيم المعيشة، وذلك من خلال مشاركة الجماعة ". فتصور الحضارة يكتمل بلغة الجماعة التي تنتمي لها، وكذلك تقاليدها وعاداتها وقوانينها وما تحتويه أفكارها التي تحركها، والاعتقادات والقيم وما يتضح من خلال وسائلها المادية، وأنماط الفن المختلفة.

إن كتاب القرن التاسع عشر، استخدموا لفظ الحضارة للتعبير عن التقدم في عالم المعرفة والإبداع المتصف بالجسارة، والذي يسمح للإنسان أن يسلك السلوك الحضاري.

وفي القرن العشرين، فإن **التصور الأنثروبولوجي للثقافة**، قد وضح على أنه: " مجموعة تعاليم فطرية مكتسبة بالسلوك، والسيرة الحضارية عرفت بأنها السلوك الذي يسلكه الفرد بوصفه عضوا في مجتمع منظم من الأفراد، بحيث أن كل فرد في ذلك المجتمع يعتبر نتاجا تاريخيا لتلك الحضارة، والحضارة هي مجموع خبرات الحياة بالنسبة لكل فرد.

والحضارة بمعناها العام، هي النمو والتقدم، بحيث يحقق النمو والتقدم المستوى الأعلى لحضارة العصر. وحضارة أي عصر من العصور هي حضارة المجتمع الذي حقق أقصى درجة من النمو والتقدم في زمنه أو عصره.

وليست الحضارة هي التقدم التكنولوجي فحسب، وإنما هي الارتقاء العقلي والإيمان بالقيم الإنسانية لخير الإنسان وسعادته، والحضارة – بلفظ آخر – هي المدنية ... وتعني التمدن والتحضر

[10] أنظر : د. عماد الدين خليل، التفسير الإسلامي للتاريخ، ص 184.

الحضارة والتاريخ عند فلاسفة:

ومن أبرز هذه النظريات – على سبيل المثال لا الحصر – التفسير المثالي " لهيجل " والمادي " لماركس " و " أنجلز "، و " أزوالد شبلنجر " و " توينبي " في اهتمام بالتفسير الحضاري للتاريخ.[11].

أ- هيجل:يمكن تعريف فلسفة هيجل التي يدين لها ماركس بالشيء الكثير بأنها (مزيج المتناقضات) فهو يرى أن كل عصر أو فترة أساسية في تاريخ الحضارة الاجتماعية يمثل وحدة مستقلة، وأن ملامحه السياسية والاقتصادية والأخلاقية والاجتماعية العامة والجمالية والعقلية والدينية كلها جوانب أو نواح للمجموع الحي Living Totality، ومنها جميعا يتكون كيان متجانس. وأن كل فترة أساسية تنمى فكرتها الرئيسية إلى الحد الأقصى ثم تولد أضدادها أو نقائضها. ويستمر الصراع دائما. فتجد المبادئ المتناقضة في وحدة عليا هي (الموحد)، وهذا الموحد يندفع مرة ثانية إلى الحد الأقصى وينشب صراع جديد فيتولد حينئذ مرة أخرى موحد يحوي ما هو فعال من كل من الفرضية ونقيضها. وبهذا الأسلوب الثلاثي تتقدم الفكرة حتى تصل آخر الأمر إلى (المطلق) الذي نستطيع أن نبقى نتأمله إلى الأبد دون أن نتبين فيه أي تناقض.

ب- ماركس ...التفسير المادي:

تكشف لنا مختلف المصادر " أن ماركس لم يكن منشئ التفسير الديالكتيكي للتاريخ وإنما أخذ ماديته من آخرين كثيرين سلكوا السبيل نفسه وصبت فلسفته في القالب الذي اقترحه ديالكتيك هيجل "[12]. فبينما نجد أن هيجل قد أصر على أن كل ما يحصل من تغير في العالم المادي الحقيقي إنما هو مجرد انعكاس لا إرادي لتقدمه وتطور (روح العالم)، نجد ماركس قد أكد حقيقة العالم الخارجي، وبين أن المثل العليا والأفكار عند بني الإنسان إنما هي نفسها نتاج البيئة الاقتصادية المادية وما يحصل فيها من تغير. لذا فليس لها وجود مستقل خاص بها، وأنت صراع المتناقضات لا يحصل في عالم الأفكار كما ادعى هيجل وإنما في عالم أحوال الناس الواقعي بواسطة ما يحصل في الكيان الاقتصادي للمجتمع من تغير.

وقد رأى ماركس كثيرا من الأخطاء في نظام هيجل، كما بين ماركس نفسه في فقرة مشهورة من مقدمته للجزء الأول من كتاب (رأس المال) إذ قال: " إن أسلوبي الديالكتيكي ليس مجرد أسلوب مخالف لأسلوب هيجل، وإنما هو عكسه تماما، لأن عملية التفكير عند هيجل هي خالقة العالم الحقيقي.

إذن فماركس و مدرسته يذهبان إلي أن كل اكتمال تاريخي لا يكون إلا نتيجة الضرورات المادية، وحاجات الإنسان الأساسية، و بتالي الوسائل الفنية التي يخترعها و يستعملها في تلبية تلك الحاجات ، فالحاجة و الفن الصناعي يمثلان في نظر ماركس مركزي التقاطب لقوي الإنتاج المركزين اللذين يحددان العلاقات الاجتماعية الخاصة بحضارة معينة ، كما يحددان هذه الحضارة ذاتها ماديا و معنويا .

---

[11] في هذا الجزء نتعرض لرصد بعض الأمثلة الخاصة بالنظريات الفلسفية الحضارية الغربية، وسنحاول أن نبين الثغرات التي يسدها المفهوم الإسلامي للحضارة بالنسبة لتلك النظريات في ثنايا البحث

[12] – نفسه

ج- ول ديورانت :

يرى أن الحضارة نظام اجتماعي يعين الإنسان علي الزيادة من إنتاجه الثقافي، و إنما تتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية ، والنظم السياسية ، والتقاليد الخلقية ، و متابعة العلوم و الفنون، و هي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب و القلق ، لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلع و عوامل الإبداع و الإنشاء، و بعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهض للمضي في طريق إلي فهم الحياة وازدهارها .

د- ألبرت شفيتزر :

"يري أن الحضارة هي التقدم الروحي و المادي للأفراد و الجماهير علي السواء وأن محاولة التميز بين الحضارة Kultur كما يسميها الأمان، وبين المدنية بوصفها مجرد التقدم المادي .. يهدف إلي جعل العالم يألف فكرة نوع من الحضارة لا أخلاقي إلي جانب نوع أخلاقي منها . كما يهدف إلي إلباس النوع الأول بلباس كلمة ذات معني تاريخي، لكن لا شئ في تاريخ كلمة Civilisation يبرر هذه المحاولة ، فالكلمة قد استعملت حتى الآن بنفس المعني المفهوم من كلمة Kultur و بعض اللغات تفضل استعمال إحداها، و بعضها الآخر يفضل استعمال الأخرى، فالألمان يستعملون عادة كلمة Kultur و الفرنسيون Civilisation ولكن ليس ثمة مبرر لغوي ولا تاريخي لوضع تفرقة بين كلتا الكلمتين ، إننا نستطيع التفرقة بين حضارة Kultur أخلاقية و حضارة لا أخلاقية، أو بين مدنية Civilisation أخلاقية و مدنية لا أخلاقية، لكننا لا نستطيع التفرقة بين الحضارة Kulture وبين المدنية Civilisation [13] .

" فالحضارة إذن هي جماع كل تقدم حققه الناس وكل فرد في كل مجالات العمل،ومن وجهة نظر، من حيث كون هذا التقدم يساعد الكامل الروحي للأفراد .. فهذا الأخير هو التقدم كل التقدم"[14]

ومن البعد الأخلاقي الروحي للحضارة عند شفيتزر، نحاول أن نطوي صفحات "تدهور الحضارة الغربية" لأوزوالد شبنجلر، لنري معالم فلسفة الرئيسية في الحضارة.

هـ - أوزوالد شبنجلر :

فيرى " شبنجلر" أن أزمة الحضارة الغربية تكمن في مشكلة المدنية، حيث يعتبر المدينة، الطور الحرج من أطوار الحضارة، فيتساءل ما هي المدنية؟ المدنية نتيجة منطقية جوهرية ومفهومة، وهي تحقق مكتمل ونهاية لمطاف الحضارة، ذلك لأن لكل حضارة مدنيتها الخاصة، فالمدنية هي المصير المحتوم للحضارة، والمدنيات تشكل نهاية لا تستطيع أن تقف أمام تحققها إرادة أو عقل، ومع ذلك تبلغها الحضارات مرة بعد أخرى، مدفوعة بضرورة باطنية إلى الخارج "[15].

ويعزي شبلنجر جوهر الحضارة إلى جانب الروحي فيقول " إن حيوية الإنسان الحضاري تتجه في مجراها إلى الباطن، بينما تتجه حيوية الإنسان المدني إلى الخارج "[16].

---

[13] ول ديورانت قصة الحضارة ج1،ص4

[14] البرت شفيتزر فلسفة الحضارة ص53و37

[15] أوزوالد شبلنجر، تدهور الحضارة الغربية، جـ1 ، ص 87.

[16] – نفسه، ص 97.

فالحضارة هي وحدة الدراسة التاريخية أو الظاهرة الأولية للتاريخ العالمي كله ما كان منه وما سيكون، لأن الحضارة ظاهرة روحية لجماعة من الناس لها تصور واحد عن العالم وتتبلور وحدة تصورهم في مظاهر حضارية من فن ودين وفلسفة وسياسة وعلم، وتشكل هذه الوحدة شخصية حضارية لها خصائصها الذاتية ومن ثم لا تتماثل حضارتان[17].

و- آرنولد "توينبي" :

تعد **نظرية توينبي** من أهم نظريات فلسفة التاريخ، ومن أهم مؤلفاته موسعته الضخمة في التاريخ " دراسة التاريخ Study of history الذي حقق أفضل صورة تقريبية للتاريخ الشامل.

ويرى " توينبي " أن التاريخ هو إحدى النوافذ التي لا تحصى التي تطل على الحقيقة، وهو يرفض تصور " شبنجلر " للتاريخ كأنه تحت هيمنة ضرورة ضابطة للكل وخاضعة لقانون التفكك والاضمحلال "[18].

ويعرف **توينبي المدنية : " بأنها أصغر وحدة للدراسة التاريخية يصل إليها المرء حين يحاول فهم تاريخ بلاده "**[19].

لقد كان تفسير توينبي النهائي للتاريخ تفسيرا دينيا في جوهره، فهو يربط الحضارة بالكنيسة الكاثوليكية، فالحضارة في رأيه تنشأ عن الأديان – وهي في رأيه – الحضارة الغربية : إنها حصيلة عمل الإنسان في الحقل الاجتماعي والمناقبي وهي حركة صاعدة، وليست وقائع ثابتة، إنها رحلة حياتية مستمرة لا تقف عند ميناء ما[20].

ومما يؤكد تقديراته للحياة الروحية، أنه يرى أن " الحياة الروحية في معنى أوسع " تستطيع الاشتمال على فعاليات وتجارب ثقافية وجمالية وليست دينية، **ثم تتبادر إلى ذهنه نتيجتان:**

1 – أنه يوجد تضاد باطني بين طلب الرؤيا الطوباوية وهي هدف الدين،وبين البحث عن السلطة المادية في مختلف أشكالها.

2 – أن التوجيه العصري للفعالية الروحية هو حد وسط بين الذين من ناحية والبحث عن السلطة من ناحية أخرى "[21]من ناحية أخرى ".

وتبدو نزعة توينبى الدينية في تفسيره للحضارات، في أنه يرد الحضارات إلى الأديان، ذلك أن الإمبراطوريات ليست هي مقياس الحضارة، على العكس إنها تمثل بداية مرحلة انهيار الحضارة، إذ تلجأ الأقلية المسيطرة إلى التوسع حين نفقد مقومات الإبداع، وهي لا تحمل إلا سلاما مؤقتا، ولا تقدم إلا حلولا جذرية لمشكلات مجتمعاتها، على عكس ذلك الأديان، إذ وراء كل حضارة من الحضارات القائمة اليوم ديانة عالمية، فالعقائد الدينية هي التي تسير مجرى التاريخ، وإذا كان هناك مستقبل لحضارة ما من **الحضارات الخمس: " الحضارة المسيحية الغربية " ،" أوروبا وأمريكا " – والحضارة المسيحية الشرقية الأرثوذكسية ، " روسيا ودول البلقان " ، "ّالحضارة الإسلامية" ،والحضارة الهندية ،وحضارة الشرق الأقصى-** " فذلك في حدود هذه الأديان وبسبب منها.

---

[17] د/ أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، ص 248.

[18] نفسه، ص 323.

[19] محمد عبد الله الشفقى، آرنولد توتوينبي، ص 12.

[20] في فلسفة التاريخ ، ص 227.

[21] البان ويدجيري، المذهب الكبرى في التاريخ، ص 330.

الحضارة في صورتها المادية واللامادية:

وهو تناول شائع لمعنى الحضارة، ذلك عندما تستعمل كلمة " حضارة " للدلالة على الجانب الروحي في الحضارة، والأخرى للتعبير عن الجانب المادي أو التكنولوجي منها. فكثرا ما ننسب إلى الأشياء النفعية طابعا حضاريا عندما نبني بنوكنا أو مؤسساتنا المالية في صورة تنافس دور العبادة، وهذا العنصر الخارجي ينبغي ألا يخدعنا أو يخفي المبرر الأصلي، حيث المقصود هو الجانب النفعي الذي يحققه.

ويذكر " ما كيفر " الفروق الأساسية التي يتميز بها عالم الحضارة على المدينة فيقول: " إن للمدينة معايير دقيقة تقيس كل ما ينتمي إليها، أما عالم الحضارة فيتمرد على مثل هذه المقاييس والمعايير، والمدنية لا تصطدم ومعوقات يضعها المجتمع في طريقها، ومنجزات المدنية دائمة الارتقاء إلى أن يظهر اختراع أفضل يدفعنا إلى الاستغناء عنها، ويصعب ذلك القول في عالم الحضارة، لأنه لا يتقدم تقدما ملحوظا على نفس النحو الذي نصادفه في عالم المدنية، وإذا كان من الممكن استعارة المدنيات والتقنيات بلا تغيير، فإن الأمر ليس كذلك في الحضارة [22].

لفظ الحضارة في القرآن:

لا يوجد في القرآن الكريم – في مقابل البداوة والترحال- إلا حاضرة ومتحضرة: فيقول تعالى { **وسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر** } [23] ، وإذا كان الإسلام قد ظهر في أكثر البيئات العربية تحضرا في مكة " أم القرى "، فلقد ميز بين البدو والحضر ورأى ملاءمة الناحية الإيمانية للحضر والحضارة، وأنه إذا كان { **ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر** } [24] فإن { **الأعراب أشد كفرا ونفاقا** } [25] { **ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما** } [26]، { **سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا** } [27] ، { **قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قلوا أسلمنا، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم** } [28].

وقد ظلت العصبية القبلية هي الرباط الأكبر الذي يربط الوحدة الاجتماعية في أنحاء الجزيرة، وفي القرآن الكريم إشارة واضحة الدلالة على صفة هذه العصبية، يقول الله تعالى { **إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية** } [29] ، وقد وصفهم الله تعالى بالجاهلية – أي المجتمع العربي قبل الإسلام – يقول الله تعالى: { **يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية** } [30] ، وقال تعالى { **أفحكم الجاهلية يبغون** } [31] وقال: { **وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى** } [32] .

---

[22] د. أحمد محمود حمدي، الحضارة، ص 16 – 17 .

[23] – الأعراف:123.

[24] – التوبة : 99.

[25] – التوبة :97.

[26] – التوبة:98.

[27] – الفتح :11.

[28] – الحجرات: 14.

[29] – الفتح:26.

[30] – آل عمران:154.

[31] – المائدة: 50.

[32] – الأحزاب:33.

ولقد حالت هذه الجاهلية دون الاجتماع السياسي الموحد قبل الإسلام، فعاش معظم العرب في قبائل متحاربة، فقد تجتمع عدة قبائل في حلف على حرب فيكون بينهما سلام موقوت.

وبظهور الإسلام دين عالمي من جهة، وتنظيم سياسي شامل من جهة أخرى، توسعت فكرة الروابط الاجتماعية بين الأفراد، فبدأ إحساس الجماعة الإسلامية الوليدة بذاتها الحضارية الخاصة في الظهور وأخذت بواكير الشعور التاريخي طريقها إلى ضمير المسلم، فشرع المسلمون في الاهتمام بالتاريخ تدريجيا ثم تزايدت عنايتهم به بعج ذلك لأسباب متعددة، حتى بلغوا في ذلك شأوا بعيدا[33].

الحضارة عند ابن خلدون (ت 808 هـ) :

لقد تطورت بظهور ابن خلدون فلسفة التاريخ عند المسلمين، فانتقلت من التفسير البطولي إلى التفسير الحضاري، وقد أفاد من جهود المؤرخين السابقين، وخصوصا بعد أن تحررت فكرة التاريخ من الاعتماد على المنقول وتعلقت بآفاق من التعدد الثقافي في الحضارات الإنسانية، والتعليل العقلي للمادة التاريخية منذ عصر المسعودي.

ومقدمة ابن خلدون المشهورة لكتابه الكبير **" كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر "** – هذه المقدمة بحث تاريخي. وإذا كانت جهود من سبقه من المؤرخين تتوقف عند البطولة الفردية في تفسير التاريخ، وتتعلق أحيانا بمعاني ميتافيزيقية مختلفة في تفسير نشأة الحضارات وسقوطها، فإن مقدمة ابن خلدون تحاول أن تفسر هذه الظواهر تفسيرا اجتماعيا شاملا،من أجل ذلك درس ابن خلدون علاقة البيئة بالحياة الاجتماعية كما درس الظواهر الاقتصادية، وحاول تفسير القوانين التي تتحكم فيها.

فالمجتمعات الإنسانية عنده جماعات سياسية يرتبط فيها التنظيم السياسي بالخصائص الجغرافية والاقتصاد. ولقد عاش ابن خلدون رجل دولة طوال حياته فاستطاع أن يكتسب خبرة سياسية واجتماعية جعلته يهتم بمثل هذه الحقائق الاجتماعية ويحاول أن يضع لها نظرية عامة، وأن يدرس فكرة السيادة والغلبة وأسبابها وامتدادها في الزمان والمكان، وهو لذلك يتجه في منهج الفكري العام إلى محاولة العثور على قانون عام يحكم هذا التطور، سيادة وغلبة من جهة، وانحلالا وسقوطا من جهة أخرى.

لقد لاحظ ابن خلدون أن كثيرا من المؤرخين لا يكادون يتجاوزن في كتاباتهم التاريخية النقل المباشر عن سابقيهم، وكأن التاريخ حكاية عن السلف والعبرة والمثل والتسلية فحسب، مع أن التاريخ في جوهره فلسفة عميقة لقوانين الاجتماع.

ويبدو أن ابن خلدون قد أدرك الفرق بين الثقافة والحضارة، وذلك حيث يقول في **الفصل الرابع** الذي عنوانه **" في أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر "** .. وقد يتوضح فيما بعد أن الحضارة هي نهاية العمران وخروجه إلى الفساد ونهاية الشر والبعد عن الخير[34]،

---

[33] اعتمدنا في بيان الحس التاريخي عند العرب قبل الإسلام، على الدراسة القيمة التي وضعها الدكتور عماد الدين خليل بعنوان " التفسير الإسلامي للتاريخ " ص 141 إلى ص 174.

[34] ابن خلدون: المقدمة، ص 167.

فهو إذن يفرق بين العمران والحضارة، ويبدو أن العمران في مفهومه يقابل الثقافة، فهو يقول في خاتمة الكتاب الأول من المقدمة وعنوانه " في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش، والصنائع والعلوم ونحوها، وما إلى ذلك من العلل " يقول ": اعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك عن الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والعيش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال.

وهذا كلام يدل على أن الذي يريده ابن خلدون بلفظ العمران هو أسلوب الحياة أي أسلوب حياة جماعة ما، أي ثقافته. فالحضارة عنده هي الوصول إلى منتهي التطور الثقافي الشخصي المحلي للجماعة، و الدخول في دور الحضارة، وهي دور الرقي الاجتماعي الثابت الذي لا يتطور، لهذا يقول:"إن الحضارة هي نهاية العمران وخروجه إلى الفساد" [35]

وفي فصل "في أن الحضارة في الأمصار من قبل الدول وأنها ترسخ باتصال الدول ورسوخها " مؤكدا على أن الحضارة تمثل الطور الحرج من أطوار الدولة .."والحضارة تتفاوت بتفاوت العمران فمتي كان العمران أكثر كانت الحضارة أكمل.

وبناء على هذا يمكن القول إن علم الاجتماع الخلدوني هو نتاج التفكير العلمي الإسلامي الذي ينشد فهم سنن الله في العالم المادي والعالم الاجتماعي على حد سواء ويظهر اعتماد ابن خلدون على القرآن من السطور الأولى التي بدأ بها مقدمته فهو بعد حمد الله يقرر على الفور أن الله سبحانه (أنشأنا من الأرض نسما، واستعمرنا فيها أجيالا وأمما، ويسر لنا أرزاقا وقسما. وواضح أنه اعتمد في هذا على آيات القرآن الكريم) { هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها } [36] ، أما كلمة قسم فهي مأخوذة بدورها من الآية {نحن قسما بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا} [37]،.ويكفي أن نشير إلى أن تسمية لعلمه الجديد " علم العمران).استمده من القرآن الكريم (كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها)[38] .

مشكلة الحضارة عند مالك بن نبي(ت 1973 م) :

والقاعدة الفكرية التي انطلق منها كمرتكز أساسي لكل أفكاره ومفاهيمه هي قاعدة : " إن مشكلة شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها "[39]

ومنه **فمفهوم الحضارة** عند مالك بن نبي هي: "جملة العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل فرد من أعضائه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتقدمه"[40]

---

[35] المقدمة ص172:ص174

[36] – هود/ 61.

[37] – الزخرف/ 32

[38] – الروم:9.

[39] – شروط النهضة: مالك بن نبي، ص: 19.

فالحضارة إذن: هي ظاهرة اجتماعية شاملة ومستوعبة لكافة الطبقات و الشرائح يحيا فيها كل فرد حياة سعيدة في عدل وأمن ورفاه.

ومن جملة العوامل المعنوية والمادية أن تتحول إلي سياسة وتشريع فيمثلان عالم الأفكار لهذا المجتمع.

الحضارة لا تستورد: " لا تشترى من الخارج بعملة أجنبية ... فهناك قيم أخلاقية اجتماعية ثقافية لا تستورد وعلى المجتمع الذي يحتاجها أن يلدها "[41].

مراحل الحضارة عند مالك بن نبي:

فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي قائمة على أسلس حركة التعاقب الدوري أو باصطلاح آخر: الدورة الحضارة.

ويقابل هذه النظرية عند الفلاسفة نظريتان:

الأولي: نظرية حركة التقدم الصاعد للحضارة وأن التاريخ والمجتمع في حالة تطور دائم متصاعد، ومن روادها: باسكال و أوجست كونت.

الثانية: حركة النكوص والتدهور المستمر للحضارة: ومن أصحابها **الأديب بارناردشو**.

أما نظرية التعاقب الدوري فمن أصحابها: **ابن خلدون، و أوزلد إشنجلر، أرنولد تويمبي**.

ومراحل الحضارة عنده هي:

1 – **مرحلة المجتمع قبل التحضر**. أو **مرحلة الروح**.

2 – **مرحلة المجتمع المتحضر**. أو **مرحلة العقل**.

3 – **مرحلة المجتمع بعد التحضر** أو **مرحلة الغريزة**.

شروط الحضارة عند مالك بن نبي: تتكون من ثلاثة أعمدة أساسية حيث يقول:

" مشكلة الحضارة تنحل على إلى ثلاث مشكلات أولية: مشكلة الإنسان، مشكلة التراب، مشكلة الوقت"[42]. وهذه العناصر الثلاثة لا تقوم بوظيفتها الحضارية إلا إذا توفر ما يصطلح عليه مالك بن نبي: مركب الحضارة. ويقصد به الفكرة الدينية أي الإسلام.

1 – **مشكلة الإنسان**: في أساسها لا تعالج إلا بتوجيه ثقافته وتصفيه العادات والتقاليد الميتة في نفسيته، وتنمية روح الفعالية.

2 – **مشكلة التراب**: والمقصود من التراب الإمكانيات والطاقات والثروات المعدنية والزراعية وغيرها التي تتوفر في مجتمع من المجتمعات.

3 – **مشكلة الوقت**: بتحديد فكرة الزمن يتحدد معنى التأثير والإنتاج. إذن:

إنسان + تراب + وقت = حضارة. مع توفر مركب الحضارة الذي هو الإسلام.

---

[40] – مشكلة الأفكار: مالك بن نبي، ص: 50.

[41] – بين الرشاد والتيه: مالك بن نبي، ص: 172.

[42] – شروط النهضة: مالك بن نبي، ص: 45.

اتجه مالك بن نبي منذ نشأته نحو تحليل الأحداث التي كانت تحيط به.. وقد أعطته ثقافته المنهجية قدرة على إبراز مشكلة العالم المتخلف باعتبارها قضية حضارة أولا وقبل كل شيء. فوضع كتبه جميعا تحت عنوان **" مشكلات الحضارة "**.

ولقد نرى مالكا كتابا إسلاميا، يختار الإسلام صيغة تعبير عن نهضتنا وثقافتنا المرتقبة وقد اهتم ابن نبي بدراسة التاريخ يرقب سير الحضارات ويستخلص القواعد الثابتة والسنن التي لا تبديل لها. وقد طرح القواعد الأساسية لفعالية الإرادة الإنسانية وقوتها في صنع الحضارة.

ويرى مالك بن نبي " أن مشكلة كل شعب هي جوهرها مشكلة حضارية، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبنى الحضارات أو تهدمها.. وما الحضارات المعاصرة، والحضارات المعاصرة، والحضارات الضاربة في ظلام الماضي، والحضارات المستقبلة إلا عناصر للملحمة الإنسانية منذ فجر القرون إلى نهاية الزمن، فهي حلقات لسلسلة واحدة تؤلف الملحمة البشرية منذ أن هبط آدم على الأرض إلى آخر وريث له فيها، ويالها من سلسلة من النور تتمثل فيها جهود الأجيال المتعاقبة في خطوتها المتصلة في سبيل الرقى والتقدم، هكذا تلعب الشعوب دورها، وكل واحد منها يبعث ليكون حلقته في سلسلة الحضارات، حينما تدق ساعة البعث معلنة قيام حضارة جديدة، ومؤذنة بزوال أخرى[43].

ويرى "مالك" أن الحضارة لا تنبعث – كما هو ملاحظ – إلا بعقيدة الدينية وينبغي أن نبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها، فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء، يكون للناس شرعا ومنهاجا، أو هي – على الأقل – تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام، فكأنما قدر للإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية، أو بعيدا عن حقبته إذ حينما يكتشف حقيقة حياته الكاملة يكتشف معها أسمى معاني الأشياء التي تهيمن عليها عبقريته ويتفاعل معها[44]. ويضيف مالك .. كيف يتاح للفكرة الدينية أن تبني الإنسان حتى يقوم بدوره في بناء الحضارة وبالتالي لهذه الفكرة ذاتها أن تمدنا بتفسير عقلي لدور إحدى الديانات في توجيه التاريخ.

فمن المؤكد أنه عندما نتناول الحضارة الإسلامية التي هي أصل الاطراد نفسه، والإنسان المسلم الذي هو السند المحسوس لهذه الفكرة. وعليه " فإنه مما ينسجم وطبيعة الأشياء حينما ندرس تطور هذه الحضارة أن ندرس من حيث الأساس العلاقة العضوية التي تربط الفكرة بسندها .. وإذن فكل القيم النفسية – الزمنية التي تميز مستوى حضاري ما في وقت معين – ليست إلا الترجمة التاريخية لهذه العلاقة العضوية بين فكرة معينة كالإسلام مثلا والفرد الذي يمثل بالنسبة إليها السند المحسوس، و هو هنا المسلم "[45]

---

[43] مالك بن نبي، شريط النهضة، ص 23.

[44] شروط النهضة، ص 75.

[45] نفس المرجع، ص 92 وما بعدها.

ويرى " **مالك** " أن الحضارة الإسلامية، قامت بعملية تجديد من ناحيتها السلبية والإيجابية، إلا أن الحضارة الإسلامية قد جاءت بهذين التحديدين مرة واحدة، وصدرت فيها عن " القرآن الكريم " الذي نفى الأفكار الجاهلية البالية، ثم رسم طريق الفكرة الإسلامية الصافية التي تخطط للمستقبل بطريقة إيجابية[46].

وإذا حاولنا أن نعثر من خلال فكر " مالك بن نبي " على تعريفه الاصطلاحي لمفهوم الحضارة.. فإنه يقول " إن الحضارة هي مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطواره وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه "[47]

الرابط بين الثقافة و الحضارة:

المدنية التي هي في أصل الاستعمال سكنى المدن والتي تقابل Civilisation . والحضارة بهذا المعنى أعم من الثقافة التي تطلق على الجانب الروحي أو الفكري. أما الحضارة فتشمل الجانبين الروحي والمادي أو الفكري والصناعي[48].

مظاهر الحضارة عند مالك بن نبي: للحضارة مظاهر تعرف بها، كالمظهر السياسي، والمظهر الاقتصادي، والمظهر الاجتماعي، والمظهر الفكري والديني والمظهر الفني.

مصادر الحضارة: فالكتابة أهم وسيلة لحضارة الإنسان، لقد أصبحت اللغة المكتوبة وسيلة الحضارة والعلم والتربية، لأنها تعطي المعرفة البشرية صفة الدوام.

إن الوثائق المكتوبة مع الآثار المادية كالأبنية والبقايا الفنية هي مصادر الحضارة. فمعظم الحضارات السالفة سجلت على آثارها ما تريد قوله بكتابات شتى، فحين حل شامبليون رموز الكتابة تروي لنا التاريخ السياسي والحياة الاجتماعية والفكرية والاقتصادية.

والحضارة في نمو مستمر، إنها متواصلة العطاء، وقيمة أي أمة في ميزان بناء الحضارة يساوي ما قدمته، مطروحا منه ما أخذته أو اقتبسته.

فالحضارة: بساط نسجته وتنسجه أيد كثيرة، كلها تهبه طاقاتها، وكلها تستحق الثناء والتقدير.

فالحضارة اليونانية اقتباس وامتداد للحضارة العربية القديمة في وادي الرافدين، ووادي النيل، وبلاد الشام، واقتبس اليونانيون من الحضارة العربية القديمة الكثير الكثير، من مختلف العلوم، إنما هي بضاعتنا ردت إلينا. يقول ديورانت: إن اليونان لم ينشؤا الحضارة إنشاء لأن ما ورثوه منها أكثر مما ابتدعوه، وكانوا الوارث المدلل لذخيرة من الفن والعلم، مضى عليها ثلاثة آلاف من السنين، و جاءت إلي مدائنهم مع مغانم الحرب والتجارة ...الخ.لقد أشعل الغرب سراج نهضته من ضياء حضارتنا العربية الإسلامية.

قال **ويليم أوسلر**: " لئن أشعل العرب سراجهم من قناديل اليونان، فإنهم ما لبثوا أن أصبحوا شعلة وهاجة استضاء بنورها أهل الأرض "[49].

---

[46] نفس المرجع، ص 122.

[47] مالك بن نبي، آفاق جزائرية، ص 38.

[48] – لمحات في الثقافة الإسلامية: عمر عودة الخطيب، ص: 45.

الحضارة عند سيد قطب (ت 1966م) **:** اهتم الأستاذ " سيد قطب " بمفهوم الحضارة، وقد ظهر ذلك واضحا من خلال مؤلفاته العديدة التي حاول فيها أن يحدد خصائص التطور الإسلامي ومقوماته، وموقف الإسلام من مشكلات الحضارة المعاصرة، مؤكدا على أن الإسلام في حقيقته هو الحضارة.

يقول "حين تكون الحاكمية العليا في مجتمع لله وحده متمثلة في سيادة الشريعة الإلهية – تكون هذه هي الصورة الوحيدة التي يتحرر فيها البشر تحررا كاملا وحقيقيا من العبودية للبشر، وتكون هذه هي " الحضارة الإنسانية " لأن حضارة الإنسان تقتضي قاعدة أساسية من التحرر الحقيقي الكامل للإنسان، ومن الكرامة المطلقة لكل فرد في المجتمع، ولا حرية – في الحقيقة – ولا كرامة للإنسان – ممثلا في كل فرد من أفراده – في مجتمع بعض أرباب يشرعون، وبعض عبيد يطيعون. وحين تكون إنسانية الإنسان هي القيمة العليا في مجتمع، وتكون الخصائص الإنسانية فيه هي موضع التكريم والاعتبار، يكون هذا المجتمع متحضرا.. فأما حين تكون المادة – في أية صورة – هي القيمة العليا.

سواء في صورة " النظرية " كما في التفسير الماركسي للتاريخ أو في صورة الإنتاج المادي، كما في المجتمعات التي تعتبر الإنتاج المادي قيمة عليا تهدر في سبيلها القيم والخصائص الإنسانية، فإن هذا المجتمع يكون مجتمعا متخلفا، أو بالمصطلح الإسلامي مجتمعا جاهليا؟ وحين تكون ص القيم الإنسانية " و " الأخلاق الإنسانية " التي تقوم عليها، هي السائدة في مجتمع يكون هذا المجتمع متحضرا، والقيم الإنسانية والأخلاق الإنسانية ليست مسألة غامضة مائعة وليست كذلك قيما " متطورة " متغيرة متبدلة لا تستقر على حال ولا ترجع إلى أصل، كما يزعم التفسير المادي للتاريخ، وكما تزعم الاشتراكية العلمية.

فالمهم هو القاعدة التي يقوم عليها التقدم الصناعي، والقيم التي تسود المجتمع والتي يتألف من مجموعها خصائص الحضارة الإنسانية[50].

الخلاف بين سيد قطب و مالك بن نبي في تعريف الحضارة:

في كتاب " سيد قطب " المسمى " معالم في الطريق "وفي فصل بعنوان " الإسلام هو الحضارة " يشير " سيد قطب " إلى " مالك بن نبي " دون ذكر اسمه . فقال .. لقد كنت قد أعلنت عن كتاب لي تحت الطبع بعنوان " نحو مجتمع إسلامي متحضر". ثم عدت في الإعلان التالي فحذفت كلمة " متحضر " مكتفيا بأن يكون عنوان البحث * كما هو موضوعه – نحو مجتمع إسلامي – ولفت هذا التعديل نظر كتاب جزائري يكتب بالفرنسية. فقد اعتبر مالك بن نبي أن حذف سيد قطب لكلمة " متحضر " من عنوان كتاب تحت الطبع " نحو مجتمع إسلامي متحضر " .. اعتبر هذا التعديل ناشئا عن عملية دفاع نفسية داخلية عن الإسلام، واعتبر أن هذه العملية تحرم المفكر من مواجهة المشكلة على حقيقتها.

والحقيقة أن هناك فرقا بين المفكرين ولكنه الفرق بين وجهتي نظر متكاملتين، وليستا متناقضتين، فلم يغفل سيد قطب الشروط الموضوعية اللازمة لبناء الأمة أو الحضارة الإسلامية ولكنه لأسباب كثيرة كانت الشروط الذاتية تبدو أكثر وضوحا في أعماله، فالشروط التي صنعت " الجيل القرآني الفريد " هي المنطلق .. كذلك لم يغفل مالك الشروط الذاتية هذه،

---

[49] – كتاب البيروني: زهير كتبي، ص: 19.

[50] سيد قطب، معالم في الطريق، ص 118 – 128.

وكان يتحدث عن الدفعة الإيمانية التي انطفأت نارها .. وضرورة إضرامها من جديد، وكان إنسان " ما بعد الموحدين " العقيم الذي عليه أن يجدد ذاته ، ويتجاوز إنسان " ما بعد الموحدين " وقابليته للاستعمار .. لم يغفل مالك هذه الشروط الذاتية، ولكن ولأسباب كثيرة أيضا كان البحث عن الشروط الموضوعية أكثر وضوحا في أعماله، كان يبحث من خلال تركيب مبدع لفكرة الأمة الوسط، ويرى أن هذا التجاوز لن يتحقق إلا بارتفاع المسلم – الشاهد على العالم بالتقي والورع والصدق والوعي – بارتفاعه إلى مستوى الحضارة كي يصبح معاصرا حقا. فبخصوص الخلاف الوارد بينهما هنا، فإن كان خلافا في المصطلح .. أي خلافا على " تعريف الحضارة " لغة على الأرجح وليس مضمونا ".

الحضارة عند أبي الأعلى المودودي (ت 1400 هـ) :

يرى المودودي أن الناس يظنون حضارة أية أمة عبارة عن علومها، وآدابها وفنونها الجميلة وصنائعها وبدائعها وأطوارها للحياة المدنية والاجتماعية وأسلوبها للحياة السياسية. ولكن الحقيقة أن ليست كل هذه الأمور بالحضارة ذاتها، وإنما هي نتاج الحضارة ومظاهرها، وما هي بأصل الحضارة، وإنما هي أوراق شجرة الحضارة وثمارها .. إذ صح هذا فلا يجوز أن نحدد وزن حضارة وقدرها وقيمتها على أساس مالها من هذه الصور الظاهرة والملابس العارضة، وإنما علينا أن نتوصل إلى روحها ونتحسس أصولها، صارفين النظر عن كل هذه الصور الظاهرة والملابس العارضة[51].

تصور لمصطلح الحضارة الإسلامية :

إن الحضارة الإسلامية يمكن أن تتخذ أشكالا متنوعة في تركيبها المادي والتشكيلي، ولكن الأصول والقيم التي تقوم عليها ثابتة لأنها هي مقومات هذه الحضارة: " العبودية لله وحده، والتجمع على أصرة العقيدة، استعلاء إنسانية الإنسان على المادة. وسيادة القيم الإنسانية التي تنمي إنسانية الإنسان لا حيوانيته .. وحرمه الأسرة. والخلافة في الأرض على عهد الله وشرطه، وتحكيم منهج الله وشريعته وحدها في شؤون هذه الخلافة "[52].

الخلاصة في معنى الحضارة في اللغة والاصطلاح:

بعد أن عرضنا لمعنى الحضارة في اللغة والاصطلاح، سواء على مستوى الفكر العربي الإسلامي، قديما وحديثا، أو على مستوى الفكر الغربي، يمكننا أن نستخلص الآتي:

1 – إن الحضارة تعني الإقامة في الحضر، في مقابل ساكن المدينة، وذلك من خلال التعريفات اللغوية.

2 – إن ثمة ارتباطا وثيقا بين كل من الثقافة والحضارة، حيث أن لكل حضارة ثقافتها الخاصة.

3 – إن هناك بعض التعريفات التي تؤكد على أهمية البعدين الروحي والأخلاقي في الحضارة في مقابل الجانب المادي، وهو ما اصطلح عليه باسم المدنية، كما عند " شبلنجر " و " شفيتز ".

4 – أهمية الدور الذي تلعبه الفكرة الدينية في حركة التاريخ البشري، كما نرى عند "ابن خلدون " و " توينبي " و" سيد قطب " و " مالك بن نبي" .

---

[51] أبو الأعلى المودودي، الحضارة الإسلامية، أسسها، ص 6.

[52] المرجع نفسه ، ص 87.

ومن تحليل ما استخلصناه نجد أن تعريف لفظ الحضارة ينمو في التركيز على البعدين الروحي والأخلاقي، الذي يشير إلى الحضارة في جانبيها المعنوي والثقافي، والبعد الثاني هو البعد المادي الذي يمثل طور المدينة.فماذا يقول لنا القرآن الكريم، إذا ما حاولنا أن نتعرف على معنى كلمة " الحضارة " من خلال النص المنزل.

إن كلمتي " حضارة " و " تحضر " لم تكونا شائعتين في استعمالات العربية اللغوية في البداية وطيلة القرون التي أعقبت مرحلة الفتوحات الإسلامية، وإذا كان ابن خلدون قد نبه عليهما واستخدامهما في مقدمته، إلا أن اصطلاحه الأثير الذي كان يستغني به معظم الأحيان عن هذه الكلمة هو " العمران البشري " الذي يقابل " الحضارة البشرية "

وقد وقع كثير من الباحثين وفلاسفة التاريخ المعاصرين في خطأ القول بأن " ابن خلدون " هو أول من مارس هذا المنهج، وأنه لا توجد أية محاولة لتقديم مفهوم متكامل عن الحضارة وفقا للمنظور الإسلامي، ومن عجب أن " ابن خلدون " نفسه، وقع في الخطأ ذاته عندما أكد في مقدمته أنه لم يعثر على أية محاولة في هذا المجال، وكان أحرى به وهو " المفكر المسلم " أن يبين ما يتضمنه القرآن الكريم من إشارات تدل على الطريق.

فنحن حين نتأمل النص القرآني يمكننا العثور على إجابات متعددة لعشرات التساؤلات التي تثار حول الإشكالية الحضارية، ومحاولة فهمها.

فإذا كان الرأي الغالب عند فلاسفة الحضارة، يشير إلى أهمية الأساس الروحي للحضارات، فما هو الدور الذي تلعبه الفكرة الدينية في البناء الحضاري وفقا للتصور الإسلامي؟ وإذا كانت الحضارة في ماهيتها وجوهرها أخلاقيا، فما هي المكانة التي تحتلها القيم الأخلاقية في الحضارة الإسلامية؟

وإذا كانت الحضارة تعني إشاعة الخير، ونشر السلام، فما هو موقف الإسلام من الشعوب الأخرى على مستوى التعامل الدولي؟وإذا كان لكل حضارة خصائصها العلمية والعقلية والثقافية المميزة، فما هو الموقف الذي أولاه التصور الإسلامي للجوانب العقلية والعلمية والثقافية في الحضارة ؟ وإذا كانت الحضارة وفق تصور المادية التاريخية، تعني النمط المادي الإنتاجي، فما هو موقف الإسلام من البناء المادي والاقتصادي في الحضارة؟

الحضارة عند الأستاذ الطيب برغوث :إذن فالحضارة عند الأستاذ **الطيب برغوث** هي:

" حصيلة تفاعل الجهد الإنساني مع سنن الآفاق والأنفس والهداية من أجل الرقي المعرفي والروحي والسلوكي والعمراني في عالم الشهادة "[53]

المحاور الكبرى لفقه التجديد الحضاري عند الأستاذ الطيب برغوث :

1– **محور بناء منظومة العالم الثقافي**: ويشتمل على:

أ – محور بناء المنظومة العقدية.

ب – محور بناء المنظومة الفكرية.

ج – محور بناء المنظومة المنهجية.

[53] – موقع المسألة الثقافية من استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي: د/ الطيب برغوث، ص: 10، دار الينابيع للنشر والتوزيع، الجزائر.

د – محور بناء منظومة القدرات النقدية.

2– **محور بناء منظومة العالم الروحي**: ويشتمل على:

أ – محور الإخلاص.

ب – محور المراقبة.

ج – محور المحاسبة.

د – محور التوبة.

هـ – محور التوكل.

3– **محور بناء منظومة العالم السلوكي**: ويشمل على:

أ – المنطق العملي.

ب – النزوع الجمالي.

ج – الطموح الجدي.

د – النزوع الغيري أو الجماعي.

هـ – الدأب وروح المتابعة.

و – روح المسؤولية.

4 – **محور بناء منظومة عالم الخبرات الانجازية**: ويتمثل في أهمية الإدارة والتسيير ودور التخطيط والتنظيم.[54]

[54] – موقع المسألة الثقافية: د/ الطيب برغوث، ص: 16 – 27.

الفرع الثاني : أسس الحضارة الإسلامية و مقوماتها

تمهيد:

بعدما تحدثت **المستشرقة الألمانية زيخريد هونكة** عن معجزة العرب الحضارية في كتابها (**شمس العرب تسطع على الغرب**) تساءلت عن المقومات التي احتاجها العرب ليبعثوا مثل هذا البعث، كما تساءلت عن العوامل التاريخية والاجتماعية والروحية والفكرية التي كان لا بد لها أن تجتمع لتخلق هذه المعجزة التي حققها العرب.

وجوابا عن تساؤلات المستشرقة الألمانية:

إن الإسلام وحده هو الذي كان وراء هذه البعث العربي والإعجاز الحضاري الذي حققه العرس فلقد كان العرب في حاحة إلى عقيدة إلهية واحدة تكون مصدر التجمع والتصور، ومنع الفكر ومنهج الحياة

مؤثرة في المبادئ والشرائع والأنظمة والأوضاع التي تنظم المجتمع أفرادا أو جماعات مع نظام مؤثر في الأخلاق والآداب و التقاليد والعادات والقيم والموازين التي تسود المجتمع وتؤلف ملامحه مع سيادة القيم الإنسانية واستعلاء الإنسان في العقيدة الإسلامية والنظام الاجتماعي الإسلامي.

أولا : **العقيدة**: تقوم العقيدة في الإسلام على تنظيم صلة الإنسان بالله و تعطيه قيما معينة و شريعة تنظم الحياة الاجتماعية حسب هداية الله سبحانه وتعالى أن ترتكز هذه العقيدة على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله. وهي تعني الإفراد بالعبودية لله وحده دون سواه والاعتراف بالخلق والسلطان له سبحانه وتعالى و تنزيهه عن الشريك ويتمثل ذلك في التصور والادراك البشري من تلقي الإنسان الحقائق العقيدة من مصدرها الرباني الذي يتكيف به الإنسان في إدراكه لحقيقة ربه و لجلاله ولحقيقة الكون الذي يعيش فيه، وحقيقة الحياة التي يعيشها، وحقيقة الإنسان نفسه، ومن ثم تصبح عقيدة (**أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله**) قاعدة لمنهج كامل تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بحذافيرها، فأركان الإسلام من مقتضياتها، صلاة، وزكاة، وصيام، وحج، و حدود، وتعازير، و حلال و حرام، وسلوك وأخلاق، والاعتراف بالعقيدة لله رب العالمين يقتضي الطاعة لله وحده و التسليم لحكمه دون سواه : (**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** (162) **لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**) 163.

هذه العقيدة القائمة على التوحيد لها معطيات كانت وراء ما حققته الحضارة الإسلامية من سمو وإعجاز أدهش العالم وأثار تساؤلات علمائه عن هذه المعطيات ومن هذه المعطيات .

1- **السمو الإنساني** : إذ أعطت هذه العقيدة لحامليها ومعتنقيها الطهارة في أسمى معانيها وأجمل صورها، الطهارة من الشهوات، فلا تستخذله شهوة ،ولا تطوعه غريزة شر، بل تعطيه عقيدته قوة يستعصي بها على أي هوى أو نزوة، فلا يضعف، ولا يستكين لعواصف الشهوات، وإغراءات العادة، وقد يضعف أمام ذلك الكثير، رغم ما أوتوا من علم وما بلغوا من حضارة: (**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**) 23.

وتعطيه كذلك كرامة يجالد بها عبودية الإنسان للإنسان وتسلط الطواغيت على حياته ودنياه فلا يتخذ ربا إلا الله : (**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**) 64.

كما تعطيه سموا في التفكير فلا يكون أسير الرواسب ماضية ونحل منحرفة، وقد كان هذا دأب الجاهلين قبل (**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ**) .170

2- **النمو الحقيقي للأشياء**: أن تبعث العقيدة الإسلامية في نفوس أصحابها التصور الحقيقي لقيم الأشياء فلا ينطلي عليها غبش الدعايات وبهرج الشبهات، فمن يعرف ربه يعرف شيمة نفسه ويعرف قيمة إيمانه ويعلم تسخير العوالم له، ويعلم كذلك أن الناس كلهم عبيد لله وكلهم من خيره يرزقون، فلا تزلف لأحد إذا، لأن الكل مخلوق،والكل محتاج إلى عطف الله ورضاه،وإذا استعان صاحب العقيدة فإنما يستعين بالله : وإذا طلب فليطلب من الله.

ويعلم كذلك أن الضر والنفع من الله، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في تعليم ذلك لابن عباس (**إذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لا ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**).

3- **الرجاء وطمأنينة القلب**: أن تسمع هده العقيدة في نار من أصحابها الرجاء في الله وطمأنينة القلب؛ إذ يربي الإيمان القلب على نفسية قائمة على الثقة بالله والرجاء فيه، فهو في كل حال يتغلب على اليأس والقنوط والجلد والثقة حتى يأتيه نصر الله وهو مطلع عليه،(**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**) البقرة : 186.

4- **الجراءة والشجاعة في مواجهة الشدائد**: هذه العقيدة تعطي صاحبها صفات نفسية عامرة كريمة بغير حدود من هذه الصفات البراءة والشجاعة والبسالة النادرة، الشجاعة في كل ميدان من ميادين الحياة الشجاعة في مواجهة النفس والتغلب على ثقل الحيوانية، ولهذا ترى كثيرين من أصحاب العقائد ضربوا أروع الأمثلة في الاستقامة و التقديرية بعد تاريخ طويل في الجهالة وحب العرض واتباع الشهوات، واستطاعوا أن يعرضوا الاستقامة وأن يعلموا الشعوب الهداية والرجولة ونبذ الانحراف و مداواة النفو : (**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا**) النور 46.

5- **الإحاطة والشمول** :مما تتميز به العقيدة الإسلامية الإحاطة و الشمول حيث تعترف بالكتب السماوية كلها، حيث يأمر الإسلام الإيمان بكل كتاب أنزله الله على أحد من رسله (**وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ، أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**) البقرة :5.

ومن مظاهر الإحاطة والشمول : الدعوة العامة لجميع البشر و عدم التمييز بين جنس و جنس، ولون ولون، وفقير وغني، بل الكل أمام الله سواء، والدين لهؤلاء جميعا، والرسول صلى الله عليه وسلم يعض الناس جميعا : (**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**) 28.

ومن إحاطة الإسلام وشموله : بيانه لجوانب الحياة صغيرها وكبيرها، ما صلح منها وما فسد من طعام وشراب فأحل الطيب و حرم الخبيث (**يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ**) المائدة .

وقد بين الإسلام أن الأعمال هي قوام المسلم وهي ميزان بها يصعد و بها يهوي، وبها يسود في الأرض، وبها يضيع من قدمه الطريق، (**وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا**) 124 .

ثانيا: النظام الاجتماعي:

الأساس الثاني للحضارة الإسلامية هو النظام الاجتماعي المتكامل الذي جاء به الإسلام، وصبغ به الحياة الإسلامية، و هو نظام رباني اختاره الله للبشرية لينظموا حياتهم عليه، ويحييهم به حياة طيبة، ويسعدهم به في الدنيا والآخرة، ولا تتداخل معه أهواء البشر الشاردة أو أنظار هم القاصرة وإنما هو وعي إلهي رائق ينظم حياة الناس وينسقها، كما ينظم حركة العوالم ويهذبها ويسعد حياة البشر و يهنيها، ومن أهم أسس النظام

1- **المساواة بين البشر**: يقيم الإسلام المجتمعات الإسلامية على قاعدة مهمة مستقيمة هي المساواة التامة بين البشر، ويقرر المساواة على إطلاقها فلا قيود ولا استثناء، وإنها مساواة تامة بين الأفراد ومساواة تامة بين الجماعات و مساواة تامة بين الأجناس، و مساواة كاملة بين الحاكمين والمحكومين لا فضل لرجل على رجل ولا لأبيض على أسود، ولا لعربي على أعجمي، وذلك لقوله تعالى:(**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**) .

فهذه قومية عالمية ووحدة إنسانية متكاملة تكون جماعة دولية. تحمي فيها الامتيازات القادمة على الاختلاف في الألوان والأجناس واللغات والحدود الجغرافية، ومن المحال أن تكون حضارة إنسانية عالمية إلا بتحقيق ذلك لأنها من جانب تحافظ على فردية الفرد، ومن جانب آخر تطهرها من كل ما قد يكون فيها من الميول المتناقضة، والنظام الإسلامي بهذا يقطع الطريق على النظام الطبقي وما يصاحبه من نظام اجتماعي، وقد أحدثت هذه المبادئ ثورة اجتماعية هائلة بدلت الأوضاع الاجتماعية فالكل أمام الله سواء، ومن هذا المنطلق سار الناس بطاقاتهم إلى المجد لا يعترضهم جهل أو غرور أو تسلط، ويسعى الكل يعليه عمله ويرفعه جهده أو يوبقه كسله ويقصره ضرره، و لهذا نرى أن المجتمع الإسلامي برزت فيه طاقات جبارة ولولاه بعد الله، ما كان ما في الحياة شأن أو ذكر.

2- **العدالة المطلقة** :لقد جاء الإسلام بالعدل الذي يكفل لكل فرد ولكل جماعة ولكل قوم قاعدة ثابتة للتعامل لا تميل مع الهوى ولا تتأثر بالوأد أو المغص ولا تتبدل مجاراة للصهر أو النسب، والغني والفقر،والقوة والضعف (**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا**) المائدة : 58 .

وعن أنس عمر النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**لا تزال هذه الأمة بخير ما إذا قالت صدقت، وإذا حكمت عدلت، وإذا استرحمت رحمت**).

وقد ربى الإسلام الإنسان المسلم على العدالة بحيث تكون نابعة من ذاته، لذا قال صلى الله عليه وسلم: (أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه) وقوله عليه السلام (**عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به**).

ومن العدالة في الإسلام المساواة أمام القانون فلا يكون هناك قانون للأشراف و آخر لغيرهم أو يكون قانون للبيض وآخر للملونين، فعندما اهتمت قريش بأمر المرأة المخزومية التي سرقت و قد اعتزم النبي صلى الله عليه و سلم أن يقطع يدها

لتكرار السرقة منها، ولأن حد الله يجب أن يقام ولا يحابي أحد لجاهه فوسطوا أسامة بن بريد يشفع في ذلك لمكانته عند الرسول عليه السلام قال لائما أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة) ثم وقف خطيبا وقال **(ما بال قوم يشفعون في حد من حدود الله، إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)**، هذا هو العدل في الإسلام الذي حض الله و أمر به، جل شأنه، من ذلك قوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا)** .

ومن العدالة في الإسلام العدالة الاجتماعية التي تراعي المواهب وتهيأ لها الفرص بغض النظر عن فقرها أو غناها؛ ولذا برزت في الإسلام مواهب وقدرات وبطاقات أذهلت الجميع، فالمهم في الإسلام أن يفسح المجال للمواهب، ويوضع كل في مكانه الصحيح حتى إن الرسول صلى الله عليه وسلم اعتبر من لم يفتح المجال لذوي المواهب مضيعا لنعمة الله و خائنا للإنسانية، إذ يقول عليه أفضل الصلاة والسلام : (ومن استعمل رجلا من عصابة و فيهم من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين).

ومن العدالة الاجتماعية إعانة الضعيف، بقوله جل شأنه: **(وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ** 19،**"فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ)** 10 .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **(المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة).**

3- **الحرية** : تتجلى الحرية في المجتمع الإسلامي في أجل معانيها وأسمى مقاصدها وأروع مظاهرها، ومن هذه الحريات.

أ- حرية الاعتقاد: لقد قرر الإسلام حرية الاعتقاد وجعل لكل إنسان الحق في أن يعتنق من العقائد ما يشاء، وليس لأحد أن يجبره على ترك دينه واعتناق آخر ولو كان الإسلام، يوضح هذا قوله تعالى : **(لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)** البقرة ، وقوله جل شأنه: **(ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)** أي بدون إكراه، ولا يخفى على كل منصف أي ما يقرره الإسلام في هذا المبدأ الذي يتجلى فيه تكريم الإنسان و احترام إراداته ومشاعره، وترك حريته لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد و تحميله تبعية عمله و حساب نفسه، وهذا هو أخص خصائص التحرر الإنساني .

ب- حرية التفكير: كما يقرر الإسلام حرية الفكر والتفكير ويحض الناس على التأمل والبحث واستجلاء الحقائق والنظر إلى ما وراء الأشياء إلى غايتها. ولهذا نرى دعوة القرآن إلى التفكر في خلق السموات والأرض وفي خلق أنفسهم وفيما حولهم مما تقع عليه أبصارهم. أو تسمعه آذانهم، ليصلوا من وراء ذلك كله إلى معرفة الخالق وليستطيعوا التمييز بين الحق والباطل والهدى والضلال، والأدلة في القرآن الكريم كثيرة التي تحث على التأمل والتدبر والتفكر، من ذلك قوله جل شأنه: **(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ(20)وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)** وقوله تعالى، **(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا للهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا)**.

ج- **هوية القول** : لقد جعل الإسلام حرية القوي حقا لكل إنسان على أن يستعمل الإنسان حرية القول في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : (**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**) 104.

كما يحتم الإسلام على المسلم أن ينطق بالحق إذا سكت الناس ويجهر به اذا توارت الأصوات و خفت الألفاظ وكممت الأفواه، و يبين هذا قوله صلى الله عليه و سلم: (**من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**)، **وقوله صلى الله عليه وسلم : (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**).

كما نهى الإسلام المسلم عن تحقير نفسه بأسره لرأيه و كتمه لفكره، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (**لا يحقرن أحدكم نفسه**) قالوا : يا رسول الله وكيف يحقر أحدنا نفسه ؟ قال (**يرى أن لله عليه فعالاً ثم لا يقول فيه** : فيقول الله عز وجل يوم القيامة: (**ما منعك أن تقول في كذا وكذا ؟ فيقول: (خشية الناس) فيقول: (فإياي كنت أحق أن تخشى**).

ها هي شرائع الإسلام تنص على إبداء رأيه وإظهار فكره ولا يخشى في قول الحق لومة لائم .

هذا وقد وضع الإسلام ضوابط للحرية حتى لا تخرج عن إطار القيم والفضائل والأخلاق و حقوق الآخرين والصالح العام، فالإنسان حر في أن يمارس حريته بشرط أن يكون سيد نفسه فلا تستبد به آراؤه أو تستعبد شهواته، وهو حر أيضا أن يمارس حريته على ألا تتعارض هذه الحرية مع الصالح العام أي لا تعارض حرية الفرد مع حق المجتمع كله، فالإنسان حر ولكنه في الوقت ذاته مسؤول عن خير المجتمع والصالح العام .

وعلى هذا ترتكز الحرية الإسلامية على قاعدتين أساسيتين هم:ا شخصيته فلا يخضع الفرد لأهوائه ولا يكون عبدا لشهواته، والقاعدة الثانية : اجتماعية، وهي تقوم على مراعاة حقوق ومصالح المجتمع.

وهكذا نجد أن الإسلام في تصوره للحرية فاق جميع المذاهب والأديان والفلسفات فلم يطلقها كالوجودية الملحدة والشيوعية، ولم يكتبها وإنما أطلقها في حدود لا تتعارض مع خير الفرد والمجتمع، وكان من ثمار هذه الحرية اعتقادا و فكر و قوة الإنجازات العلمية الكبرى في جميع ميادين المعرفة التي تحققت على أيدي المسلمين منذ بزوغ فجر الإسلام .

4- **الأخوة** : أن يقوم المجتمع الإسلامي على أساس متين من الأخوة الإنسانية المتمثلة في قوله تعالى: (**يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**) النساء:01 .

وكذلك من الأخوة الإيمانية المتمثلة في قوله جل شأنه : (**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**)، ولقد قام الإسلام الأخوة على أساس التعاون والالتفاف حولي راية القرآن (**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**)، (**وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**"، " **فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْء فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وأحسن تأويلا**) 59.

5- **الأخلاق والفضائل**: إن الأخلاق في التصور الإسلامي هي أصل الحياة الإسلامية وشعبها التي تكون صرح المجتمع الإسلامي.

يقول جل شأن: **(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)**،وقال جل شأنه:**(وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يحب المتوكلين)** 159.

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إن من خياركم أحسنكم أخلاقا)**، وقد جعل حسن الخلق أكثر مما يدخل الجنة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟، قال : **(تقوى الله وحسن الخلق)**، وحسن الخلق يكون من أحب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم وأكثرهم قربا منه يوم القيامة، فعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : **(إن من أحبكم إلى الله وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا، وإن من أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيقهون)**، قالوا : يا رسول الله. قام علما الثرثارون والمتشدقون قول فيها المتفيقهون قال : **(المتكبرون)** .

وهكذا نجد أن الحضارة الإسلامية وصلت إلى ما وصلت إليه من إعجاز فاق جميع الحضارات لأنها قامت على أسس متينة إذ نظر الإسلام إلى الإنسان نظرتين :

1- **نظرة تكريم** : أعطاه فيها كل ما تحتفظ به كرامته، حمله من كل ظلم و بغي وعنت، و تولى رزقه وعطاء توجيهه وإرشاده، و أطلق حريته واحترم إرادته وأجاب دعوته.

2- **نظرة تقييم**: إن نظر إليه بمعيار خلقه ونفعه وعطائه وإيمانه.

أما المجتمعات فقد نظر إليها بمنظار ما فيها من قيم، من مساواة وعدالة وحرية وأخوة واتحاد و تعاون و فضائل، فإذا كملت هذه الأوصاف و وجدت هذه النماذج كان الإنسان متحضرا وكان المجتمع كذلك، وإذا فقدت كان المجتمع غير متحضر وكان الإنسان فيه غير حضاري وإن رفل في السعي ووصل إلى الفضاء لأن الإسلام يبحث عن حضارة الإنسان ورقيه، لا عن زخرفة البناء وعلوه، يبحث أولا سعادة المكرم لا زخرفة المسخر، لأنه منطقي في نظرته، واقعي في حكمه. فالحضارة التي تقوم علي هذه الأمس هي بلا ريب سيدة الحضارات.

الفرع الثالث : خصائص الحضارة الإسلامية

تمهيد :

إن المتأمل لخصائص الإسلام – التي تقوم عليها حضارته الروحية والعلمية والبنائية – يجد جمعا بين نقاء النفس البشرية لخالقها وحس توجهها، وبين الارتكاز على قوانين منطقية في تيسير الحياة والقيام بأعباء الرسالة وتبليغها، وتعهد الله –سبحانه – بنصر المؤمنين .

ويمكن رصد خصائص الحضارة الإسلامية في: الربانية، العالمية، والشمولية الإنسانية، وأنها صالحة لكل زمان ومكان، ومتطورة، كما تتمتع بالإخاء والتسامح، ومعطاءة، وتدعو إلى العلم والعمل، ومتوازنة، وتتميز بالوسطية والعدل، والأمانة، والجهاد.

1 – الحضارة الإسلامية حضارة ربانية:

يرتبط مع أن (الحضارة الإسلامية حضارة ربانية) بالفكرة الإسلامية كلها، وتقوم الفكرة الإسلامية في مسألة الفعل البشري، على أساس أن الله – تعالى – قد فتح الحرية للإنسان ابتداء؛ لكي يصنع تاريخه الفردي والجماعي، ولكي يشكل مصيرهما معا؛ اعتمادا في وجوده على قول العقل والإرادة، والانفعال الحسي والحركة، والإنسان بدوره عندما يستخدم حريته، إنما يعتمد على مقدمات لا يمكنه الاستغناء عنها بحال: الزمن، التراب، ثم التعاليم والنظم، والقيم، والأعراف، والتقاليد، وضعية كانت أم دينية، ويبلغ التداخل والتشابك بين إرادة الله وإرادة الإنسان .

فالتجربة الفردية أو الجماعية، إنما تجيء منبثقة عن طبيعة التجربة مشكلة بشكلها، حاملة بصماتها، مستمدة غذاءها ودماءها .

إذا كان الكل يسير بإرادة الله ، فإن إرادة الله لا تنفي إرادة البشر، ومن ثم مسئوليته عما يفعل، وما دام العبد لا يطلع على علم الله، وما قدر له في الأزل، وما تعلقت به إرادة الله – سبحانه – وما لم تتعلق به، فإن أعماله التي تصدر عنه، تكون عن إرادة لها، وقصد إليها، واختيار وحرية في القيام بها[55].

وهكذا لا يعني أن حضارة الإسلام حصارة ربانية، أنها تتم بيد الله – سبحانه وتعالى – بمعزل عن وعي البشر، وإنما معناه أنها تتحقق بجهد البشر، وإرادتهم وسعيهم وكدهم وخطئهم وصوابهم، فالحياة كلها عبادة، والأرض كلها مسجد.

وإذا كان الله – تعالى – هو الذي يرزق عباده، على نحو ما يتردد كثيرا في كتاب الله الكريم، فإن (تكفل الله رزق عباده، إنما هو في إيداعه موارد الرزق في الكون، وأسباب كسبه في الإنسان، وفي تنظيمه لتوزيع هذه الأرزاق، عن طريق الأديان والشرائع، وعلى الإنسان الإفادة من نعم الله المادية والروحية، لإحسان كسب هذه الأرزاق، وإحسان تداولها واقتسامه)[56] .

---

[55] – محمود العقيدة والأخلاق وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع، ط1 ، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية 1968م ص: 49–50 .

[56]– ميرزا، محمد حسين : الإسلام وتوازن المجتمع، تحقيق فتحي عثمان، رقم (355) من سلسلة الثقافة الإسلامية، دار الثقافة العربية للطباعة، ذو القعدة 381 هـ، مايو 1962م ، ص: 166.

إنها حضارة إيمانية انبثقت من العقيدة الإسلامية، فاستوعبت مضامينها وتشربت مبادئها واصطبغت بصبغتها، فهي حضارة توحيدية انطلقت من الإيمان بالله الواحد الأحد، البارئ المصور، مبدع السماوات والأرض، الأول، والآخر، الباطن والظاهر، خالق الإنسان والمخلوقات جميعا، هي حضارة من صنع البشر فعلا، ولكنها ذات منطلقات إيمانية ومرجعية دينية، كان الدين الحنيف من أقوى الدوافع إلى قيامها وإبداعها وازدهارها، ولقد تفردت الحضارة الإسلامية بكونها الحضارة العالمية التي تبلورت وازدهرت في ظل المرجعية الدينية، فلم يكن نهوضها وازدهارها كغيرها على أنقاض الدين، وعمل الثورة على الدين كما حدث في أوروبا إبان عصر النهضة.

فهي قائمة على الإيمان، الإيمان بالله ورسله وملائكته، وكتبه واليوم الآخر، وهذا ما فضلها عن سائر الأمم: (**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**) آل عمران: 110 .

فهي حضارة قائمة على الإيمان بوحدانية الله ونبوة محمد – صلى الله عليه وسلم – فالإله الواحد لا إله غيره هو القادر، وهو الخالق وهو المصور، وهو القابض، وهو الرافع، كل هذه المفاهيم جعلت من عقول أصحابها عقول سامية لا تفكر بالمنحدرات وصغار الأمور، ومحقراتها، هذا السمو في فهم الوحدانية كان له أثر كبير في رفع مستوى الإنسان وتحرير البشر من طغيان الملوك والأشراف، والأقوياء ورجال الدين، وتصحيح العلاقة بين الحاكمين والمحكومين، وتوجيه الأنظار إلى الله وحده وهو خالق الخلق ورب العالمين، فلا إله إلا الله محمد رسول الله هي روح الإسلام من شهد بها دخل الإسلام، ومن نأى عنه نور الإسلام، والإسلام قد أعلن الحرب على الوثنية منذ بزوغ شمسه، وحتى قيام الساعة.

فجملة القول أن الربانية هي صلة الإنسان بربه من خلال العبادات التي فرضها الله، وهي كلها تحقيق للربانية **((ولكون الشريعة اتسمت بالربانية، وبأن الله هو مصدرها، فهي مبرأة من كل نقص، لم تترك صغيرة ولا كبيرة إلا بينت حكمها، وجاءت خالية من كل جور وهوى، ولا تفرق بين الناس لمنصب أو جاه، ولذا اكتسبت أحكامها هيبة واحتراما في نفوس المؤمنين بها حكاما كانوا أم محكومين دون قسر لهم، أو إكراه لهم)**[57] .

2 – الحضارة الإسلامية حضارة إنسانية:

ومعنى (إنسانية) الحضارة الإسلامية، هو أنها رغم **(ربانيتها)** تتم بجهد البشر، ب ما زودهم به **(ربهم)** من مواهب وملكات وإمكانيات، في (جو عام) نظيف يتيح لهذه المواهب والملكات والإمكانيات، أن تأتي بخير الثمار، وأن تأتي للإنسانية كلها بالخير والأمن والرفاهية، لا بالتسلط والعدوان والبغي، ولا بالظلم والهوان، كما فعلت كل حضارة غير حضارة الإسلام، فالمجتمع الإسلامي – بانتسابه إلى الإسلام– لم يخرج عن كونه مجتمعا بشريا، يتكون من أفراد، لهم ميول فردية، توحي بها طبائعهم ككائنات حية، لها من فطرتها غرائز مختلفة بجانب ما تميزت به من قدرة على التفكير [58] .

فحضارتنا هي حضارة إنسانية جاءت للإنسان ترفع من قدره، وتحرز من عقله من الانحطاط في التفكير، وتخرجه من الظلمات إلى النور، بعد أن استعبد الإنسان من أخيه الإنسان، فجاء الإسلام وألغى كل هذه الضلالات،وأرسى المساواة

---

[57] – كامل، عبد العزيز : الإسلام والعروبة في عالم متغير، الكويت، سلسلة (كتاب العربي) رقم 22 يناير 1989 م ص: 1299 .

[58] – البهي، محمد: الإسلام في حياة المسلم، القاهرة، مكتبة وهبة ط1 ، 1977م ص:337 .

بين البشر فلا فرق بين عربي ولا أعجمي،ولا أبيض،ولا أسود إلا بالتقوى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات: 13).

فبهذه الدعوة الجامعة أحتوى الإسلام كل أجناس البشر، ولم يفرق بين نجس وآخر، فالقرآن حين أعلن هذه الوحدة الإنسانية العالمية على صعيد الحق والخير والكرامة جعل حضارته عقدا تنتظم فيه جميع العبقريات للشعوب والأمم التي خفقت فوقها راية الفتوحات الإسلامية، ولذلك كانت كل حضارة تستطيع أن تفاخر بالعباقرة الذين أقاموا صرحها من جميع الأمم والشعوب .

لقد ركزت تعاليم الدين الإسلامي على أن الناس جميعا سواسية في القيمة الإنسانية المشتركة، وأنه لا فضل لإنسان على آخر إلا بكفايته وعمله وخلقه ودينه، لذا فإن من أسس الحضارة الإسلامية : أنه لا فرق بين عرق وعرق، ولا لون ولون، ولا بين ناطق بلغة وناطق بأخرى، لمجرد اختلاف الأعراف، أو الألوان، أو اللغات، حيث قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: (**يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وأن أباكم واحد، لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى**) [59] .

وأن الناس كلهم متساوون في أصل الإنسانية، وإن اختلفت أفرادهم في الخصائص والهيئات الفكرية والنفسية والجسدية فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم: (**إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية، وفخرها بالآباء مؤمن تقي وفاجر شقي، أنتم بنو آدم، و آدم من تراب، ليدع رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفسها النتن**) [60] .

3 – حضارة الإسلام حضارة عالمية وشمولية:

من خصائص الحضارة الإسلامية أنها عالمية الأفق والرسالة، فالقرآن الكريم أعلن وحدة النوع الإنساني، رغم تنوع أعراقه ومنابته، ومواطنه، في قوله تعالى : (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**) الحجرات 13 .

إن القرآن حين أعلن هذه الوحدة الإنسانية العالمية على صعيد الحق والخير والكرامة جعل حضارته عقدا تنتظم فيه جميع العبقريات للشعوب، والأمم التي خفقت فوقها راية الفتوحات الإسلامية، ولذلك كانت كل حضارة تستطيع أن تفاخر بالعباقرة من أبناء جنس واحد، وأمة واحدة، إلا الحضارة الإسلامية، فإنها تفاخر بالعباقرة الذين أقاموا صرحها من جميع الأمم والشعوب، فأبو حنيفة ومالك والشافعي، وأحمد، والخليل وسيبويه والكندي والغزالي والفارابي، وابن رشد، وأمثالهم من اختلفت أصولهم، وتباينت أوطانهم ليسوا إلا عباقرة قدم فيهم الحضارة الإسلامية إلى الإنسانية أروع نتاج الفكر الإنساني السليم.

---

[59] – ابن حنبل ، أحمد : المسند رقم (22978) .

[60] – أبو داود ، السنن ، كتاب الأدب، باب التفاخر بالأحساب رقم الحديث (5116/ 18).

فعالمية الرسالة الإسلامية تكون بعدم اختصاصها بجنس من الأجناس البشرية، وبعدم انحصار تطبيقها في إقليم خاص، أو بيئة معينة، وبامتدادها أزمانا طويلة، تخلد فيها بعد العصر الذي فيه، وبدون ذلك لا يتحقق معنى العالمية في أي دعوة)[61] .

فلما كانت هذه الرسالة ذات هدف عالمي شامل كان الرسول – صلى الله عليه وسلم – مأمورا بأن يخاطب بها الناس على وجه العموم، دون تفريق بين قوم و آخرين، فكل من بلغته دعوته فهو داخل في عموم خطابه، سواء عصر رسالته أم جاء بعدها، سواء نطق بلغته أم لم ينطق بها.

كما أنها عالمية؛ لأنها تعد الإنسان لمستقبل خالد، والاعتقاد بإله واحد .

فإذا نظرنا للحضارات السابقة على الإسلام فنجدها وقد عرفت كل الحواجز التي أقامتها بين الفئات المختلفة من رعاياها .

فالحضارة الرومانية فرقت في الحقوق بين سكان **روما** وسكان سائر **إيطاليا**، ثم بين **الرومان**، وسائر **رعايا البلاد المفتوحة**، وبين الذين خضعوا **للإمبراطورية** ومن كانوا خارجها الذين دعتهم **(برابرة)** .أما **حضارة الإسلام فقد أزالت الحواجز النفسية والمكانية بين أبنائها في مختلف أنحاء العالم** فكانت بحق إنسانية عالمية .

فالحضارة الإسلامية مفتوحة الحدود، ممتدة الأرجاء، شاملة كل ما في الحياة من مجالات تقدم وارتقاء، في أسسها الفكرية والنفسية والمادية، فهي لا تحدها حدود ضيقة من الفكر، فتحجبها عن أي كمال من الكمالات، ولا تحدها حدود ضيقة من النفس فتحصرها ضمن الدوائر الأنانية العنصرية، أو القومية، أو الطبقية، ولكنها منفتحة الحدود النفسية، انفتاحا مقرونا بالتحريض على الانطلاق إلى الأبعاد الإنسانية كلها، تحمل إليها المحبة والرحمة[62] .

4- الحضارة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان :

لما كانت الحضارة الإسلامية عالمية شمولية وإنسانية فإن مقتضى ذلك أن تكون صالحة للتطبيق في كل البيئات الإنسانية، وأن تكون كذلك صالحة على مر الأزمان باعتبارها رسالة السماء الخاتمة لكل الرسالات، فلا تحدها حدود مكانية، ولا حدود زمانية فكل مكان من الأرض هدف لإقامة الحضارة الإسلامية عليه، وكل زمان من الدهر هدف لإقامة الحضارة الإسلامية فيه .

ويمكن توضيح مدى هذه الصلاحية إذا تتبعنا الأسس العقائدية والتشريعية والأخلاقية التي جاء بها الإسلام والتي قامت عليها الحضارة الإسلامية، وبهذا تتوافر لنا أدلة موضوعية واضحة الدلالة على صلاحية هذه الحضارة لكل زمان ومكان [63] .

---

[61] – الخطيب، سليمان : أسس مفهوم الحضارة في الإسلام، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي ط1، 1986م ص: 11-20 .

[62] – حبنكة، عبد الرحمن حسن: أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها، بيروت، دار القلم، ص33 .

[63] – النجار، مصلح بن عبد الحي الوافي في الثقافة الإسلامية، دمشق، دار الثقافة، ص172.

ففي مجال الاعتقاد والتشريع والأخلاق نجد الحقائق التالية:

1 – أن الله – سبحانه وتعالى – واحد لا شريك له، ولا معبود سواه .

2 – أن الله خالق هذا الكون ومبدعه على هذا النحو المعجز من حيث الدقة والنظام والتوازن والعلاقات وخلق الإنسان.

3 – أن الله – سبحانه وتعالى – سخر هذا الكون بما فيه للإنسان، وزود هذا الإنسان بالطاعات النفسية، والعقلية، والجسدية لاستغلال ما فيه من خبرات .

4 – أن الإسلام سن من التشريعات والقوانين ما يناسب فطرة الإنسان، وما تستقيم به حياته وجاءت تشريعاته قاطعة مفصلة في المجالات التي يعجز العقل البشري عن الاجتهاد النافع فيها.

5 – أن الحضارة الإسلامية حضارة أخلاقية للقيم الفاصلة فيها، والنشاط الإنساني محكوم بهذه القيم .

6 – أن الإسلام ترك للعقل الإنساني حرية الإبداع والابتكار في مجال استغلال خيرات هذا الكون، مع وضع ضوابط إنسانية تحكم هذا السلوك من الانحرافات المنافية للفطرة الإنسانية .

5 – الحضارة الإسلامية متطورة :

لما كانت رسالة الإسلام هي خاتمة الرسالات السماوية، وكان الرسول –صلى الله عليه وسلم – خاتم الرسل، فإن من الضروري أن تكون الحضارة القائمة على هذه الرسالة حضارة متطورة تستطيع أن تسع كل تطورات الحياة الإنسانية، بحيث تواجه ما يجده في حياة البشر مس تطورات في شتى المجالات، ولا تقف جامدة أمام متغيرات الحياة البشرية في واقعها الفردي والاجتماعي، ولذلك أقامت أساس تشريعاتها، وقوانينها، وآدابها، على أصلين ثابتين هما :

الكتاب والسنة، فترى المبادئ والأصول الكلية جميعها تعود إليها، ومن ثم فإن علاء المسلمين في استجابتهم لدعوة الله قاموا بوضع الكثير من قواعد التشريع وأصوله، ليواجهوا ما يجد في حياة الناس من وقائع وقضايا، ما لم يرد فيه نص قاطع من الكتاب والسنة، وكذلك اجتهد المسلمون في مواجهة متغيرات الحياة اجتهادا واسعا، استجابة لدعوة الخالق لهم لأعمال العقل والنظر في الكون من حولهم .

وقد حث النبي – صلى الله عليه وسلم – بعض أصحابه على اجتهادهم في بعض شئون الحياة، فعن أناس من أهل حمص من أصحاب معاذ بن جبل – رضي الله عنه: أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم – لما أراد أن يبعث معاذا إلى اليمن، قال: (**بم تقضي إذا عرض عليك قضاء؟** قال : **أقضي بكتاب الله، قال: فإن لم تجد في كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله، قال: فإن لم تجد في سنة رسول الله، ولا في كتاب الله؟ قال :أجتهد رأيي ولا آلو، فضرب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – صدره، وقال : الحمد لله الذ ي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله**)[64]

وفي غزوة بدر أشار أحد أصحابه – رضوان الله عليهم– أن يغير الرسول – صلى الله عليه وسلم – موقع جيش المسلمين فوافق الرسول – صلى الله عليه وسلم وأنفذ تلك المشورة، وعلى هدي الرسول – صلى الله عليه وسلم – سار أصحابه من بعده، وتبعهم علماء المسلمين، فلم تصادفهم واقعة، ولم توجد أمامهم حادثة إلا وكان لهم فيها رأي، واجتهاد،

64 – أبو داود : السن، كتاب الأقضية، باب اجتهاد الرأي في القضاء، رقم (3592) .

ومواجهة للتحديات العصرية، لذا فنجد أن الحضارة الإسلامية ثبتت أمام التحديات التي لو واجهتها أية حضارة أخرى لانتهت إلى زوال.

فقد بنى المسلمون هذه الحضارة الإسلامية وصنعوا التاريخ الإسلامي في ظل أشرس التحديات، فلقد حررت فتوحاتهم الإسلامية الأولى الشرق من القوى الاستعمارية القديمة الفرس والروم، تم قهر المسلمون أطاع الحروب الصليبية التي دامت قرنين من الزمن، وعلى أيديهم تمت الجريمة الأولى للمغول الذين أبادوا الأخضر واليابس، بل استطاعوا أن يدخلوا كثيرا منهم في الإسلام، وفي العصر الحديث قهروا أطاع أوروبا الاستعمارية، واليوم يصنع المسلمون تاريخا من الصمود والمقاومة ضد أحلام الإمبريالية الأمريكية في العراق وشريكتها الصهيونية في فلسطين، ساعين إلا إلحاقها بمصير الغزاة والمستكبرين.

وسر هذا التماسك في القرآن الكريم، هذا الكتاب الخالد جمع الأمة الإسلامية على مر العصور، ومهما ضعفت فإن الله يقيض لها على رأس كل قرن من يجدد لها دينها طالما كان بينهم كتاب الله، يقول تعالى :(**إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**) الأنبياء: 92.

ومن هنا حرص أعداء الإسلام على أن يطعنوا الأمة في موقع قوتها، وذلك بعزلها عن كتاب الله، ففي البلاد التي تتكلم بلغته حاولوا عزلها عن التطبيق لمفاهيمه وتحويله إلى شعائر تتلى فيها المآتم، أما البلاد التي تتكلم بلغات أخرى، وكانت حروفها عربية فقد حرصوا على تبديل الحرف العربي الذي يربطها بالقرآن، وإدخال حروف أجنبية تمهيدا لعزلها عن مصدر (**الشخصية الجماعية لأمة القرآن**).

6- الحضارة الإسلامية معطاءة :

إنها حضارة معطاءة، أخذت واقتبست من الحضارات والثقافات الإنسانية التي عرفتها شعوب العالم القديم، وأعطت عطاء زاخرا بالعلم والمعرفة والفن الإنساني الراقي، وبقيم الخير والعدل والمساواة والفضيلة والجمال، وكأن عطاؤها لفائدة الإنسانية جمعاء، لا فرق بين عربي وعجمي، وأبيض وأسود، بل لا فرق بين مسلم وغير مسلم، سواء أكان من أتباع الديانات السماوية والوضعية، أم ممن لا دين لهم من **أقوام شتيل** كانوا يعيشون في ظل الحضارة الإسلامية .

7- الحضارة الإسلامية حضارة العلم والعمل :

لقد عني الإسلام عناية كبيرة بالعلم، وأن أولى آيات القرآن تحث على التعليم،قال تعالى:(**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ**) العلق 1-3.

وقد أكد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فضل السعي في طلب العلم (**من سلك طريقا يبتغي فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة**) [65] .

فالعلم يمثل مقوما مها من مقومات البناء الحضاري لأي مجتمع من المجتمعات لما يترتب عليه مفاهيمه وتطبيقاته من آثار واضحة على مسيرة الإنسان الحضارية [66] .

---

65 – الترمذي ، السنن، كتاب العلم، باب فضل طلب العلم، رقم (2646).

وإذا كانت الحضارة بنت العلم، والعلم هدف يسعى المسلم إليه من واقع كتابه الذي آمن به، وتعاليم رسوله – صلى الله عليه وسلم – الذي اهتدى به، فليس ثمة شك في أن العلم يدفع إلى الإبداع والتفكير، وكل من التفكير والإبداع ينبت حضارة، وينشئ معرفة تحتاج إلى عمل واجتهاد .

وكما أن الحضارة الإسلامية حضارة علم فهي كذلك حضارة تدعو إلى العمل والاجتهاد (**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلا)** الكهف 30.

ولولا ذلك لما خرج من ظل الإسلام كل هؤلاء العلماء الذين أثروا البشرية جمعاء بعلمهم واكتشافاتهم التي لا زالت تدرس في الجامعات العالمية حتى اليوم.

8 – الحضارة الإسلامية حضارة متوازنة :

لقد خلق الله – سبحانه وتعالى – الإنسان من مادة وروح، وأمده بكل أسباب الحياة من جانبيها المادي والروحي، فهيأ للجسم البيئة الصالحة التي يعيش فيها على وجه الأرض، وهيأ – سبحانه – للجانب الروحي غذاءه من الوحي الذي نزل إلى الإنسان على يد الرسل، فالإنسان في مفهوم الحضارة الإسلامية هو ذلك الكائن المادي والروحي، وأن حياته الصالحة المستقيمة هي تلك التي يراعين فيها هذا الجانب وذلك، ويظهر جليا في تعاليم الإسلام وتشريعاته، فإلى جانب الدعوة إلى الإيمان والحرص على العبادة، نجد الدعوة إلى الأخذ بالأسباب المادية للحياة [67] .

وعلى هذا الأساس أقام المسلمون صرح الحضارة الإسلامية بمعطياتها الروحية والمادية، وحققت للإنسانية أقصى درجات طموحها في تلك العصور، التي كان فيها العالم من حولها يعيش حواء روحا، وأخلاقيا، وتخلقا واضحا في صناعة الحياة، فكل نشاط مادي له غاية أخلاقية، وفيه جانب روحي.

فقد وازنت الحضارة الإسلامية بين الجانب الروحي والجانب المادي في حياة الإنسان، فلا يطغى أحدهما على الآخر، فكما يدعو القرآن الكريم إلى العبادة فإنه كذلك يدعو إلى العمل وطلب الرزق، وهو لم يفصل أحدهما على الآخر(**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)** البقرة: 143.

فالإسلام يدعو إلى الوسطية في حياة المسلم، فلا يقبل المرء على الحياة الدنيا، وينسل الحياة الآخرة، ويتمادى في شهوته، ولا يقبل على الحياة الآخرة، وينسى الحياة الدنيا، فلا يأخذ نصيبه منها كيف، وقد استخلف الله الإنسان في هذه الأرض حتى يعمرها ويبنيها، فإن أعرض عن ذلك فهو لم يدرك غاية خلقه، ووجوده في هذه الدنيا .

لذا فإن التوازن نجده واضحا في الأخلاقيات الإسلامية، التي تقوم على اتقاء كل ما حرم الله تعالى وضبط النفس، وكظم الغيظ، ومراقبة الله وعدم معصيته كما نجده قاعدة التوازن في معالجة الإسلام في مختلف القوى في الإنسان بين الرغبات

---

[66] – الخطيب، سليمان: أسس مفهوم الحضارة في الإسلام، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي ط 1، 1986م .

[67] – حنكة، عبد الرحمن حسن أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها، بيروت، دار القلم، ص 261.

والضوابط وبين السروح والجسد، وبين العقل والقلب، وبين الترف والحرمان، فهو لا يقر المادية المغرقة، ولا الروحانية المطلقة، ولا يقر الرهبانية المفرطة، ولا الانحلال من ربقة الشريعة [68]

9- الحضارة الإسلامية حضارة الوسطية والعدل:

وأما الوسطية فتمثل في مظاهر عدة منها أن الإسلام ليس عقيدة مادية، تنطبق عليها المقاييس المادية، وليس عقيدة روحية تتصل بالرؤي والمعجزات، وإنها الإسلام عقيدة تقوم على المادة والروح معا .

والوسطية سمة لهذا الدين، بنيت في ضوئها التشريعات الإسلامية (**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا**) البقرة 143. وقد جعل الله – تعالى – هذه الأمة في منزلة وسطى بين المنزلتين فلا هي إلى الغلو المفرط، ولا هي إلى التهاون المفرط، ويمكن لنا أن نرصد مظاهر أخرى للوسطية في العقيدة الإسلامية الواحدة، وفي العبادات والتيسير فيها، وفي المعاملات وصورها، وفي التدرج في أحكام الشريعة، وفي السلوكيات الإسلامية التي ترفض التشدد، وفي توجيهات الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – وكل جزئية منها تحتاج إلى بسط وتفصيل، لكن مقامها ليس هنا [69] .

والتوسط في الدين الإسلامي له أسسه وركائزه، كما أن له منهجه القويم الذي يتفق مع الطبيعة البشرية التي فطر الله الناس عليها .

فقد ألزمت أسس الحضارة الإسلامية قادة المسلمين، وقضاتهم، وحكامهم بمراعاة العدل في المعاملة بين المسلمين، دون تمييز بين عناصرهم، وفئاتهم وطبقاتهم .

فالمسلمون كلهم سواء أمام الحق، وبين يدي القضاء، وإيجاد فرص العمل المتكافئة للجميع وفي اقتباس العلم والمعرفة، فالتفاضل الذي تدعو إليه الحياة يقوم على التمايز بين الأفراد بخصائصهم الفردية الفطرية والمكتسبة [70] .

وصور العدل في الإسلام كثيرة، منها العدل في مجال حق الحياة، والعدل في مجال الحكم، والعدل في المعاملات، والعدل في الحقوق والواجبات:

10- الحضارة الإسلامية حضارة الأمانة العلمية :

لما كان المسلمون والعرب هم الأوائل في اكتشاف العلوم، وكان لهم الفضل في الكثير من الاكتشافات العلمية التي بخست منهم زورا وبهتانا، وتم نسبة هذه الاكتشافات إلى غيرهم من العلماء غير العرب، وغير المسلمين، وفي حين كان العرب والمسلمون يقومون بترجمة الكتب إلى العربية من اليونانية والفارسية، كانت هذه الكتب منسية عند أصحابها آنذاك، فعلى الرغم من ذلك فإن هذه الكتب والمؤلفات التي قاموا بترجمتها، والتي سم الفصل في إبرازها، وإخراجها من طيات النسيان، لم تعرف هذه الكتب إلا بأسماء مؤلفيها الفعليين، وكتابها الحقيقيين .

---

[68] – عوض، أحمد عبده: الإسلام والبعث الحضاري، القاهرة، مركز الكتاب للنشر، 2010م، ص 32.

[69] – المزيد من التفصيل يرجع في ذلك لدراستنا عن (الوسطية والاعتدالية في الإسلام) القاهرة 1990م حيث تناولنا سمة الوسطية في المنهج الإسلامي، ومفهومها ومظاهرها وتطبيقاتها وغير ذلك.

[70] – حبنكة، عبد الرحمن حسن: أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها، بيروت، دار القلم، ص143 .

فلما نسب الغرب فضل اكتشاف الدورة الدموية الصغرى إلى **هارفي** بدلا من **ابن النفيس**، وهو مكتشفها أصلا كانت كتب علماء اليونان التي نسيها أصحابها، وربما لم يعلموا بها نسبت كلها إلى كتابها، وهذا ما يبرز الأمانة العلمية لدى المسلمين .

تميزت الحضارة الإسلامية عن غيرها من أنواع الحضارات بأنها حضارة أمانة مطلقة، فعندما قام علماء المسلمين بترجمة ونقل الكثير من علوم اليونان والفرس، والهنود وغيرهم فإنهم لم ينسبوا ما نقلوا لأنفسهم، وإنما إلى أصحابه الذين نقلوا عنهم، فهم يقولون : إن هذا الأمر عند جالينوس كذا، وإن أرسطو قال كذا، عملا بقول رسول الله –صلى الله عليه وسلم –: **(آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان)** [71] .

وهنا يبدو الفرق واضح بين رواج الحضارة الإسلامية من ناحية، وعلماء اليونان الذين نقلوا كثيرا عن غيرهم، ونسبوه إلى أنفسهم من ناحية أخرى.

11 – الحضارة الإسلامية حضارة الجهاد :

وأما فريضة الجهاد فهي أعظم صورة لليقظة، والتأهب والاستعداد والمرابطة حفاظا على كيان الدعوة الإسلامية في الداخل، وتبليغها في الخارج، ورغم أن الإسلام دين يقوم على السلم فإن القتال له بواعثه ومواقفه (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ) (البقرة : 216) ، فالمسلم حامل رسالة، ولا يعطي الذلة في دينه، ولذا رفع الإسلام من منزلة الشهيد وجعلها لا تطاول، وبهذا الفهم فتح المسلمون البلدان و جاهدوا وأقاموا حضارتها .

ثم تعهد الله بالنصر، في انتصار الحق على الباطل، إذا ما أخذ المسلمون بالأسباب، واعتمدوا على الله، دون أن تأخذهم ثقة أو غرور (**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَّ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ**) الحج : 39، **(وَلَيَنْصُرَنَّ الله من ينصره إن الله لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**) الحج:40،**(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)** الروم: 47، **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللهَّ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**) محمد:7.

وحديثنا المتقدم عن الخصائص السابقة هو تقديم للأهم، ولا نجد كثير صعوبة في الربط بين هذه الخصائص، فالتوحيد أمر متصل بالميناء العقائدي للأمة، وبيان لمناط التوجه في هذا الدين، وفي إطار من البناء العقائدي القويم نجد توازنا في جوانب التشريع والأخلاقيات والنفس البشرية، ونجد توسطا في التشريعات وفي المنهج الإسلامي، ثم يأتي الجانب الحركي والتبليغي لرسالة التوحيد بما حوته من توازن وما اتسمت به من وسطية، وذلك من خلال الجهاد والشهادة، ثم نصره –تعالى – للمؤمنين المجاهدين.

بيد أن خصيصة أخرى نلمحها في الشريعة الإسلامية، وفي هذا القانون الإلهي، وهي خصيصة لا تختلف كثيرا عما تقدم، وذلك في **(الشمول)** والذي نجده واضحا في انتظام الشريعة لكل شئون الحياة من نظم سياسية واقتصادية، واجتماعية وخلقية، وقضائية .

[71] – البخاري: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق رقم (33).

وكان هذا الشمول تأثيره العظيم في بناء الحضارة الإسلامية على أسس قوية، على نحو تجد فيه تفصيلا دقيقا لكل جزئيات الحياة، ولكل ما يجري فيها من أحداث، وما يستلزم ذلك من أحكام مفصلة.

فأحكام العقيدة تتناول مسائل الإيمان والتوحيد، وأحكام تتناول الأخلاق وتتصل بالصفات الحميدة التي حثنا الإسلام عليها مثل الصدق والصبر والأمانة... إلخ، والصفات المرذولة المنهي عنها مثل الكذب، والنفاق والرياء، والخداع والغدر ..إلخ .

وفي الأحكام العملية نجد العبادات بمعناها العام والخاص، والمعاملات التي يقصد بها تنظيم علاقات الأفراد فيما بينهم، وتشمل أحكام الأسرة (**الزواج والطلاق**) مما يدخل في نطاق قانون الأحوال الشخصية والمعاملات المادية (البيع والإجارة والرهن والكفالة (**مما يدخل في في القانون المدني**) ثم أمور الشركات والتجارة (القانون التجاري) وأحكام تتناول نظام القضاء والدعوى والشهادة واليمين در قانون المرافعات (وأحكام تتناول معاملة الأجانب غير المسلمين في الدولة الإسلامية (القانون الدولي الخاص) وتنظيم علاقة الدولة الإسلامية بالدول الأخرى، وعلاقاتهم ما في (القانون الدستوري) وأحكام تتناول موارد الدولة الإسلامية ومصارفها وتنظيم العلاقات المالية (القانون المالي) فضلا عن أحكام الجرائم والعقوبات (القانون الجنائي).

هذه بعض مظاهر شمول الشريعة الإسلامية في تغطية جميع الجوانب، ويبدو من ذلك قصور القوانين الوضعية في عدم تناولها لمسائل العقيدة والعبادات والأخلاق، وهي المسائل التي تبني الإنسان وتجعله صالحا ملتزما، يجازي على الخير، ويعاقب على الإثم.

الفرع الرابع : مصادر الحضارة الإسلامية [72]

أولا: القرآن الكريم :

تستمد العقيدة والشريعة والأخلاق والحضارة الإسلامية رؤيتها للكون والإنسان وتنظيم العلاقة بالله وبالإنسان من خلال مصدرين أساسين هما: القرآن والسنة.

والقرآن الكريم (المصدر الإسلامي الأول والأعظم) هو كتاب الله المنزل على محمد ابن عبد الله بلسان عربي مبين، منجما في مدة (**ثلاث وعشرين سنة**)، والمتعبد بلفظه ومعناه؛ ولا يجوز عليه التبديل ولا التحريف (**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**) الحجر:9.

ويحتوي القرآن على (114) سورة، وعلى ثلاثين جزءا، وستين حزبا، و(240) ربعا، وعلى نحو (6214) آية بالعد المدني.

وينقسم القرآن من حيث الإجمال والتفصيل إلى أربعة أقسام:

1-التشريع الجمل؛ وهو معظم العبادات.

2-التشريع الذي فيه البيان على نحو ما؛ كالأحكام المتعلقة بالجهاد والدفاع عن النفس والعلاقات الدولية.

3-التشريع التفصيلي؛ ومثاله القصاص والحدود، والحلال والحرام من الطعام، وأصول روابط الأسرة، والميراث.

4-القواعد العامة للتشريع والاجتهاد[73].

وعموما فقد **بني التشريع على التدرج والتيسير والتقليل من الأحكام**.

أما من ناحية (**الموضوع القرآني**) فهو كتاب حياة، ومنهج وجود للإنسان بالمعنى الممتد للوجود، أي في الماضي والحاضر والمستقبل؛ فالماضي هو ما حكاه القرآن عن قصص الأولين منذ بدء الخليقة، ومرورا بقافلة الصراع بين الأنبياء وأممهم، وحاضرا من ناحية التشريع الصالح في الحياة الدنيا، فضلا عن ملابسات مسيرة الدعوة الإسلامية، والقيم المستخلصة منها، ومستقبلا...فيما يتعلق بالمستقبل الإنساني على وجه الأرض في ظل تدهور القيم الإنسانية، وفقدان الصلة بالله، وما إلى ذلك من قيامة وحساب وثواب وعقاب وجنة ونار...ويتخلل ذلك كله (**منهج تربوي**) في تلقي الحقائق والتعامل معها والنظر في آفاق الكون والنفس، كما يتخلل ذلك كله نظرية في المعرفة، التجريبي منها والتجريدي.

وفي الوقت نفسه ثمة إجابات شافية عن كل التساؤلات الكبرى حول (الميتافيزيقيا)، وحول الطبيعة البشرية، وأسلوب التعامل المنسجم مع الفطرة والسنة الكونية، وكل ذلك يرتبط بالمنهج...أي بالشريعة ولا ينفك عن العقيدة، كما لا يمكن إحداث أي فصل – سواء على مستوى التصور أم التطبيق – بين أجزاء القرآن الكريم: (**أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**) البقرة 85.

---

[72] – الحضارة الإسلامية : إبداع الماضي وأفاق المستقبل / أ.د/ عبد الحليم عويس ،ص: 25 – 56 ،باختصار .

[73] – الشيخ محمد خضر حسين: خلاصة التشريع الإسلامي، دار القلم، الكويت ط4، عام 1404هـ، ص24.

وقد حظي القرآن الكريم بعناية كبيرة دلت عليها الحقائق التي ذكرناها من ناحية جمعه وتدوينه، وليس في البشرية الآن كتاب يدانيه في هذا، كما يشهد المستشرقون المنصفون أنفسهم، وحسبنا أن نراجع واحدا من أبرز الكتب الحديثة عن التوراة والأناجيل والقرآن في ضوء الحقائق العلمية[74] لمؤلفه **الجراح الفرنسي** العالمي **(موريس بوكاى)**، لنعرف أن القرآن هو المصدر الوحيد في الأرض الذي يصح أن ينسب بكل ثقة واطمئنان إلى الله.

وكما اعتنى المسلمون بالقرآن؛ عبادة، وتلاوة، وحفظا في الصدور، وكتابة، ونشرا في الآفاق، وترتيلا بالصوت...كذلك أقاموا حول القرآن سورا من العلوم التي تعيش عليه، ونستمد وجودها منه، وتصنع مناهجها، وموضوع بحثها، من بعد من أبعاده، وجانب من جوانبه، وهذه العلوم تسمى علوم القرآن، وهي تصل إلى نحو خمسين علما.

إن الموضوع الأساسي للقرآن الكريم – وباختصار شديد – هو الإنسان وليس الطبيعة، أي الثقافة وليس العلم التجريبي، وإن كان القرآن الكريم لم يكتف بأن كشف للإنسان عن نفسه، وأوقفه على سبل صلاحها وإصلاحها، وسبل غوايتها وضلالها، وقص عليه في سبيل تحقيق الصلاح والفلاح تاريخ النبوات، وتاريخ (الإنسان) عبر التاريخ؛ بل أعطاه – كذلك – (مفاتيح) اكتشاف الكون أو الطبيعة الخارجية من حوله؛ ممثلة في منهج علمي قائم على كل وسائل المعرفة الحسية والعقلية والوجدانية والدينية، كما أزاح فيه القرآن الكريم عن كاهل العقل الإنساني كل ما يعرفه عن الملاحظة والتفكر، والنظر في النفس والاجتماع والطبيعة، كما أوضح فيه القرآن الكريم أن الكون خاضع لسنن كونية ثابتة، وأنه يتصف بالحركة والانتظام والكمية والتقدير والتصنيف[75].

ولم يكتف القرآن الكريم بتمكين الإنسان من آليات النظر والبحث والمعرفة فحسب، بل إنه أخذ بيد الإنسان إلى العمل المعيشي الذي يمثل قوام حياته، والذي يستطيع تطويره والإبداع فيه من خلال آليات المعرفة التي مكنه القرآن منها.

ولهذا لفت القرآن الكريم **(وهو كتاب دين وحضارة)** أنظار أتباعه إلى أهم الحرف والمهن، عن طريق الإشارة إلى الحرف تارة، وضرب الأمثلة المستمدة من تلك الحرف تارة أخرى، أو الحديث عن مكونات تلك الحرف والمهن تارة ثالثة، مما يؤكد للمسلمين أهمية تلك الحرف والمهن وضرورتها في حياة الفرد والمجتمع.

ومن أهم هذه الحرف والمهن التي أشار إليها القرآن : الزراعة، صناعة الخبز، وطحن الحبوب، والرعي، وحلب اللبن من الماشية، والتجارة، والدباغة، والحرف الجلدية ، والأحذية، والاحتطاب، وصناعة النسيج، والحياكة والألبسة، والطباعة والنقوش، والتنجيد، والصباغة، والنجارة، وصناعة المعادن، وسبك المعادن، والصياغة، وصناعة النقود، والبناء والعمارة، والصيد وغيرها.

وقد قدم القرآن للمسلمين نماذج حرفية من حياة الأنبياء – عليهم السلام – ليعلموا أن سنن الله في العمل والاجتهاد، ولكن ذكر هذه الحرف والمهن في القرآن الكريم ليس مفصلا، بل جاء على سبيل الإشارة؛ ذلك لأن كتابا مجملا في تشريعاته كالقرآن الكريم لا يمكن أن يتناول الحرف والمهن اللازمة لقيام الحضارة الإسلامية عبر العصور، وإنما أتى بنماذج

---

[74]– اسم الكتاب: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، طبع دار المعارف بمصر.

[75]– عدنان زرزور، مقدمة كتاب من روائع حضارتنا للدكتور مصطفى السباعي، ص 26، 29.

ينبغي أن تكون في كل مجتمع، كما ينبغي أن تنمو وتزداد كما ونوعا باختلاف المكان والزمان؛ حتى تفي بحاجات الإنسان المتطورة عبر العصور، بحيث يظل المجتمع الإسلامي دائما وأبدا مجتمع الكفاية، وعدم الحاجة إلى الآخرين؛ في طعامه وشرابه وكسائه[76]، وغير ذلك من أمور حياته.

وقد بلغ عدد الحرف التي أشار إليها القرآن الكريم أكثر من ثلاثين حرفة.

وهكذا – من خلال هذه الصفحات الوجيزة – نكتشف بعض الآفاق التي علمها القرآن للمسلمين وللحضارة الإنسانية على كل مستويات الإبداع الدنيوي، ومستوى الصلة بالله ، وتنظيم الحياة باسمه تعالى، ووفق منهجه التشريعي والعبادي، والأخلاقي. وصدق الله العظيم: **(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)** الإسراء: 9.

ثانيا: السنة النبوية الصحيحة :

السنة الشريفة: هي ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قولا أو فعلا أو تقريرا أو صفة. والسنة هي المصدر الثاني للإسلام؛ فكرا وتشريعا وأخلاقا وحضارة، وهي تنتظم كل ما صدر عن الرسول، ودخل في باب التعليم والتربية لأمته؛ سواء كان قولا منه أو فعلا أو تقريرا لفعل فعله صحابته وسكت عنه.

ودورها أنها تأتي بعد القرآن مبينة وموضحة ومؤكدة، وقد تأتي بإضافة فرعية لم ينص عليها القرآن **(بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)** النحل44 : وحسبنا أن **آيات الأحكام** في القرآن قيل إنها(**200 آية**)، بينما أحاديث الأحكام نحو(**500 حديث**)كما ذكر ابن القيم.

ويضع **الجراح الفرنسي المعاصر موريس بوكاى، الحديث النبوي** في مرتبة **(الأناجيل)** من ناحية أنها تنسب إلى رواة ينسبونها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومن ناحية أنها مثل الأناجيل – وعكس القرآن – في التأخر الذي لحق بتدوينها[77].

لكن الذي لم يدركه **(بوكاي)** أن منهج الفحص العلمي الذي خضع له الحديث ولا سيما في السند **(الرواية)** منهج يفوق بمراحل كثيرة المنهج الذي اعتمد في تدوين وتمحيص الأناجيل...فالأحاديث أوثق من الأناجيل، على الأقل لأن الحديث قد دون بعضه أيام الرسول مثل صحيفة المصادقة لعبد الله بن عمرو بن العاص، ودون معظمه بعد ثمانية عقود فقط من وفاة الرسول... لكن الأناجيل لم يعتمد تدوينها إلا بعد ثلاثة قرون كاملة **(مجمع نيقية 320م)** كما أن اعتماد الأناجيل الأربعة التي تعترف بها الكنيسة لم يكن نتيجة إخضاع نصوصها للمنهج العلمي، أو المنهج النقدى التاريخي، كما جرى في الحديث بواسطة **(علم الجرح والتعديل)** الذي ينظر في **(السند)**بأسلوب النقد التاريخي الذي يعني تسلسل الحلقات، وشخصيات الرواة؛ وينظر في **(المتن)** ومدى انسجامه مع القرآن والحقائق الإسلامية، وهو ما نسميه بالنقد العلمي للنص؛ وإنما جاء نتيجة تدخل سياسى من **الإمبراطور قسطنطين** لإيجاد نظام عقدى يناسب الجماهير الوثنية والمسيحية.

ومعروف من مؤرخي الدولة البيزنطية أن الأناجيل الأربعة التي أقرت، لم تحظ بأغلبية من المجتمعين، وإنما فرضت كما المحنا بتدخل خارجى من قسطنطين Canstan tine-؛ فالسنة النبوية، كما نرى، أوثق من الأناجيل عند العرض على

---

[76]– جمال محمد محمد الهنيدي، التربية المهنية والحرفية في الإسلام، طبع بمصر، ص171، ص252، (بتصرف).

[77]– أنظر: كتابه السابق الذكر طبع دار المعارف بمصر، وأنظر: محمد حسين عبد الله: دراسات في الفكر الإسلامي، ص28، 33، الأردن.

أصول المنهج العلمي. والسنة تعني الطريقة، أي أنها تنقل إلينا الطريقة التي نتبين بها كيف قام النبي صلى الله عليه وسلم بترجمة القرآن إلى واقع معاش، وكيف أفرغ الفكرة الإسلامية في القالب العملي، وكيف شكل مجتمعا إسلاميا على أساس هذه الفكرة، ثم كيف نظم هذا المجتمع وأبرزه في صورة دولة كاملة؛ كي يثبت أن القرآن كتاب سماوي مثالي واقعي.

وبهذه السنة – أيضا – نعرف وجهة القرآن الحقيقية؛ فكأنها تطبيق لمبادئ القرآن على الأحوال العملية؛ تزودنا بسوابق ثمينة للدستور الإسلامي ونحصل بها على مجموعة مهمة كبيرة من التقاليد الدستورية[78].

يقول الكاتب النمساوي المهتدي للإسلام (محمد أسد) (ليوبولد فايس سابقا) :منذ أربعة عشر قرنا من الزمان والسنة مثل المفتاح الذي يفهم به أسلوب الحياة الإسلامية، ويفهم به سبيل العودة إليها، وطريق النهضة الإسلامية بوجه عام؛ أليست هي المثال الذي أقامه لنا الرسول من أعماله وأقواله؟ أليست هي التفسير الأول الصحيح للقرآن الكريم؟

ومن جانب آخر تقوم السنة بدور ذي ثلاث شعب:

1- نهي تمرن الإنسان – بطريقة فردية منظمة – على أن يحيا دائما في حال من الوعي الداخلي والضبط واليقظة (اعبد ربك كأنك تراه).

2- وهي تمرن الإنسان على أن يكون نافعا اجتماعيا وإيجابيا في مواجهة العادات والتقاليد، ومتماسكا مع مجتمعه الصغير والكبير[79].

3-وهي تجعل من إشعاعات الرسالة الممثلة في سلوك الرسول)حقيقة يمكن أن يتمثلها المسلم؛ بمعنى أن هذا المسلم العادي الصغير الموجود في تركيا أو باكستان أو الجزيرة العربية أو أندونيسيا، أو مصر، أو أوربا أو أمريكا يستطيع أن يتمثل – مع اختلاف في مستوى التمثيل – شخصية أعظم مثل أعلى في التاريخ وهو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

إن العمل بالسنة في كل المجالات فرض أمر الله به في القرآن الكريم ؛ قال تعالى : (**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**) الحشر 7، وقال : (**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**) الأحزاب 39، وقال تعالى : (**من يطع الرسول فقد اطاع الله**) النساء: 79.

وتصرف الرسول صلى الله عليه وسلم ينقسم إلى أربعة أقسام :

1-**تصرف بالإمامة** : كالإقطاع، وإقامة الحدود، وإرسال الجيوش ونحوها.

2- **تصرف بالقضاء**: كإلزام أداء الديون، وتسليم السلع، ونقد الأثمان، وفسخ الأنكحة..

3- **تصرف بالفتيا**: كابلاغ الصلاة، وإقامة المناسك.

4- **تصرف متردد** بين هذه الأقسام[80].

والجمهور على أن هذه الأقسام كلها من باب التشريع والتوجيه.

---

[78]- أنظر المودودي: نظرية الإسلام وهديه، ص 238.

[79]- بتصرف من محمد أسد: الإسلام على مفترق طرق، تعريب د/ عمر فروخ: دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ص88.

[80]- أنظر علال الفاسي: مقاصد الشريعة، طبع بمصر، ص83.

أما الجانب المتطور (الاجتهادي) في الحياة كأمور الحرف والمهن وتدبير الحروب والزراعة وطرق المعيشة والبناء...وما إلى ذلك، فهذه كلها أمور غير تشريعية ويصح فيها – وحدها – قول الرسول :" **أنتم أعلم بأمور دنياكم**.."

ثالثا : العقيدة الإسلامية :

يقصد بالعقيدة الإسلامية: الإيمان؛ أي التصديق الجازم بالله وبوحدانيته، وما يجب له في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وبكل ما جاءت به النصوص من أمور الغيب وأخباره)والبعث والحساب والجنة والنار(؛ مع التسليم له –تعالى– في الحكم والأمر والقدر والشرع....وللرسول بالطاعة والتحكيم والاتباع في كل ما أمر به أو نهى عنه عليه الصلاة

والسلام...اتباعا بالقلب والقول والعمل.

وتتلخص عقيدة المسلم الإيمانية في مبادئ بسيطة واضحة لا غموض فيها ولا التواء، وهي:

أولا: لا إله إلا الله؛ أي الوحدانية المطلقة المنزهة عن كل مظاهر الشرك.

ثانيا: محمد رسول الله وخاتم النبين

ثالثا: الاعتقاد في نبوة كل من ورد ذكرهم في القرآن من الأنبياء والمرسلين وفي نبوة غيرهم ممن لم يرد ذكرهم وصحت نبوتهم، أو بتعبير وجيز (الإيمان بمبدأ الوحي والنبوة) من ناحيتي القوة (**الإمكان**) والفعل (**الوجود**).

رابعا: الإيمان بالكتب السماوية من ناحية أصل التنزيل ونبذ ما حرف منها؛ مما لا يستقيم مع منطق العقل وقيم الدين وشرف الأنبياء وتنزيه الله سبحانه وتعالى.

خامسا: الإيمان بالملائكة على النحو الذي وصفهم الله به في القرآن الكريم، ووصفتهم به السنة النبوية الصحيحة.

سادسا: الإيمان بالبعث والحساب والثواب والعقاب والجنة والنار والقضاء والقدر: (**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ**) البقرة : 285.

الله...الواحد :

إن الله في عقيدة المسلم لا يشبهه شيء:(**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**)الشورى:11،(**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**) الإخلاص 1 – 4.

إنه سبحانه و تعالى خالق كل شيء : (**اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**) الزمر: 62، 63.

والعليم بكل شيء : (**اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ**) الرعد:8، 9، (**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**) الأنعام: 95.

والمنعم بكل شيء: (**اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**) غافر 64.

ومبدع كل شيء: (**بَدِيعُ السَّمَـواتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**) الأنعام: 101- 103.

وتنزيه الله عن كل شبهة تجسيم أو تشبيه حقيقة (**أساسية**) من حقائق التصور الإسلامي كما أن تفرد الله – سبحانه – بكل حقوق الربوبية الواحدة حقيقة أساسية في هذا التصور كذلك.

فهو – سبحانه – بريء من كل ما تنسبه إليه التوراة من أنه كان يتعب ويستريح، أو كان يصارع عبده يعقوب، أو تمثل في صورة بشر، أو يظلم جنسا من البشر لحساب جنس آخر...أو يحزن أو يندم...إلى آخر هذا الزيف من التصورات الساذجة التي لا تليق بجلال الله تعالى – سبحانه – عن ذلك علوا كبيرا.

كما أنه – سبحانه – بريء من الولد وما يتبعه، قبل وبعد، من مشاعر وأعمال؛ فالخلق كلهم عبيده وعياله، وهو يصطفى منهم من يشاء، ومقياس تفاضلهم جميعا واحد...

وحاشاه –سبحانه– أن يتحد مع أحد، أو أن يقترب إلى درجة ألوهيته أحد، أو أن يتجاوز أحد – مهما كان – درجة عبوديته – سواء أكان عيسى أم محمد أم إبراهيم أبا الأنبياء – فكلهم عبيده ورسله، وهذا أكبر فخرهم وشرفهم.

وحاشاه – سبحانه – وهو الواحد الأحد المتفرد أن يرضى بعبودية المشاعر ويتنازل عن عبودية السلوك...أي أن يقبل الأعمال المتصلة بالآخرة، ويتنازل عن أعمال الدنيا...ولأي شيء جاء الدين إذن؟! ألم يأت الدين للدنيا...نظاما ومشاعر معا.

وإن مقتضى الوحدانية الحقة – سبحانه – أن يفرد بالعبادة؛ فلا يركع ولا يسجد لسواه، ولا يؤله غيره.

وإن مقتضى هذه الوحدانية الحقة، كذلك، أن تخضع أعمال الناس لحكمه – سبحانه – دون شريك من سلطة بابوية أو من (**مجلس قانوني**) أو (**تشريع** وضعي)، لا يحيط بالبناء الفطري الإنساني؛ فالحكم من مقتضى عبوديته، وصدق القرآن الكريم(أفحكم الجاهلية يبغون و من أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) المائدة51.

وهكذا.. فهو توحيد مطلق ممتد، ومنساب في عالم المشاعر والسلوك، وليس في هذا التوحيد شركاء ولا أنداد، سواء سموا بهذه الأسماء أو تلفعوا بأردية قانونية أو جدلية أخرى.

والحق أن الإيمان بالله وإفراده – سبحانه – بالوحدانية والربوبية ليس مجرد إيمان قلبي أو تصور فكري بل هو يقين داخلي وتفاعل يجعل التوحيد المطلق والإيمان الكامل هو الروح السارية والقوة الموجهة لكل أعمال الإنسان... فيصبح الإبداع البشري الخير، أيا كانت ميادينه، صلاة خاشعة في محراب الكون لمن خلقه ويرعاه... الله الواحد القادر المهيمن.

فإذا غاب هذا المفهوم للتوحيد، أو تغبشت صورته، فلا عاصم للإنسان من **عبادة عجل السامري** – عبادة الذهب – كما فعل قدماء بني إسرائيل...أو عبادة اللذات والشهوات والمال والأشياء، كما هو حال الحضارة الغربية (**المسيحية**) الآن؛ تلك الحضارة التي قال فيها نفر من أبنائها: إن أهلها يعبدون (**البنك**) **ستة أيام في الأسبوع**، ثم يذهب نفر منهم إلى **الكنيسة في اليوم السابع**، وذلك دون أن تغيب صورة (**البنك**) عنهم أثناء القداس؟

ولقد كان التوحيد الإسلامي – وما يزال – هو سبيل هوية الأمة؛ ومن ثم توحيد موقفها الفكري في العقائد والشرائع، في الثوابت والأصول والأركان...وتبعا لذلك، وانطلاقا منه، السبيل لتوحيد موقفها الفلسفي والمعرفي في خضم الصراعات والتحديات الحضارية التي أحاطت وتحيط بها[81].

موقع الإنسان في العقيدة الإسلامية وعلاقته بالكون:

لم يخلق الله الإنسان عبثا (**أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا**) المؤمنون: 116، بل كرمه وحدد له هدفا يجب أن يسعى إليه بأساليب مختلفة؛ يرضى عنها الله في كل حياته(**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**) الذاريات56، وذلك انسجاما مع لغة الكون الذي سخره الله له (**وإن من شيء إلا يسبح بحمده**) الإسراء44، (**وتسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن**) الإسراء 44، فهو في عبادته متناغم مع لغة الكون كله، مع أنه الأجدر بالعبادة الشاملة؛ لأنه المستخلف عن الله لعمارة الأرض باسم الله.

ولا يفهم مما بسطنا القول فيه عن الإيمان بالله وتوحيده، ونفي كل مظاهر الشرك عنه – سبحانه – نفي الإنسان وأنه مجرد ذرة تافهة في الفضاء –كما يقول بعضهم –فلئن كان الله (هو الواجد الخالق المعبود)؛ فإن الإنسان هو عبد الله المصطفى لعمارة هذا الكون، اصطفاه كانت تتمناه الملائكة(**وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة**) البقرة: 29، لكنه مع عبوديته ليس الحقير الذي يكمن خلاصه في الفناء والإمحاء كما تقول الهندوسية وغيرها لأنه سيد في الكون، سخر الله له ظواهره وقواه، لكنه أيضا ليس سيد هذا الكون – كما تقول **المذاهب المادية واللادينية** – وإنما هو سيد فيه، وعبد الله فيه أيضا، وليس عبدا لأية قوة أخرى، وسيادته في هذا الكون (نعمة) أنعم بها عليه سيد هذا الوجود، تكريما له، وتمكينا له من القيام بمهام الاستخلاف في عمارة الكون وترقيته[82].

لقد خلق الله الإنسان وسلحه – لتمكينه من القيام بمهام الاستخلاف – بأوامر تكوينية فطرية، وبأوامر تشريعية وعبادية، وترك له في المقابل مساحة الحرية الإنسان؛ هي مناط الثواب والعقاب، في تفاعله – إيجابا وسلبا – مع القوانين الفطرية والكونية والتشريعية.

وفي ظل هذه الرؤية الإسلامية لعلاقة الإنسان بالكون... والأوامر الإلهية الكونية والتشريعية؛ يتجلى حظ الإنسان المتاح له من الحرية والإرادة، وتتضح (**المعادلة**) الإنسانية المتوازنة، القائمة على تقنين الحرية من جانب، ورفض نظريات الحتمية الجبرية التاريخية أو القدرية من الجانب الآخر.

وليس أروع من القرآن الكريم، وهو يرفض الحتمية الجماعية، أو الجبرية الفردية فيوجه النظر إلى أنه لا حتمية هنا ولا هناك، وإلا انعدم معنى (**المسئولية**) وانعدم –بالتالي– معنى الثواب والعقاب، يقول القرآن الكريم(**تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون**)البقرة: 140.

---

[81]– محمد عمارة: معالم المنهج الإسلامي، دار الشروق –الطبعة الأولى، مصر، 1411هـ/ 1991م، ص 32، 33.

[82]– المرجع السابق، ص35.

فليس الإنسان – لأنه عبد الله، الخاضع لقدر الله وشرعه – مجبرا أو آلة تحركها أية عوامل، وإنما – هو قبل أي مؤثر – المسئول الأول عن صناعة الحضارة، وهو المحرك الأول للحضارة في مرحلة نموها واستمرارها وازدهارها، وفي مرحلة أفولها أيضا.

لكن ذلك لا يعني أن يتعامل الإنسان على أنه وحده في هذا الكون، وأنه حر في أن يحطم كل (نظام) ويتمرد على كل أصول عقلية أو قانونية؛ كسائق السيارة المجنون الذي يعتقد أن إشارات المرور إنما هي قيود واصفاد، ويرى أن تحقيق حريته يقتضي حرية الانفلات من هذه القواعد المرورية.

إن هذه الحرية الفردية اللامبالية المستغلة مرفوضة في شرع الله وفطرته؛ لأنها تعني العشوائية التي هي سلب للعقل والقانون، ومن الواضح أن (حرية اللامبالاة الفردية) هذه تقضي على (حرية المجموع) من جانب، وتقضي على المسئولية الخلقية من جانب آخر.

(اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ *لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) الزمر: 92، 93.**(ولله يسجد من في السماوات و الأرض طوعا وكرها)** الرعد: 16،**(وله من في السماوات و الأرض كل له قانتون)** الروم: 29.

كما ينبغي على الإنسان – كذلك – ألا ينسى أنه محكوم بسنن ونواميس إلهية تفوق طاقاته وقدراته جميعا، وبدونها لا يمضي حق وعدل، ولا يستقيم نظام كوني ولا وجود بشرى، ولا تتحقق حكمة الله **(من تسيير الكون والخلائق جميعا وفق طرائق محددة ؛ تؤول بهم إلى الأهداف التي رسمها علم الله المطلق، ورفعتهم إليها إرادته التي لا راد لها)**[83].

الكون: صداقة الإنسان ودلالة على الخالق:

وإذا كانت هذه هي طبيعة العلاقة بين قدرة الله وإرادة الإنسان في الفعل الحضاري؛ فما حقيقة العلاقة بين الإنسان والطبيعة التي هي ركن أساسي من أركان العملية الحضارية؟

إن الطبيعة بالنسبة إلى الإنسان هي مجاله، وهي بيئته، وهي مخلوقة من أجله، وإن جمالها وأهميتها وعطاءها الحق لن يتجلى إلا إذا سخرها الإنسان وأعمل فيها عقله ويده منضبطا بشرع الله...والطبيعة من غيره جماد وفوضى وتدمير أحيانا.

لقد رفض القرآن الكريم التصور العبراني للعلاقة بين الإنسان والطبيعة، وهي علاقة الرهبة والخوف؛ لأن الطبيعة في التصور القرآني قد خلقت من أجل الإنسان، كذلك فإن اللعنة التي تحل بالأرض في العهد القديم بسبب خطيئة آدم وحواء – حين أكلا من الشجرة المحرمة – لا تتفق مع وصف القرآن للأرض بأنها مستقر ومتاع إلى حين، بل إن الإنسان في القرآن هو المحور والغاية في عالم الطبيعة، ومن أجله سخرت الكائنات كلها؛ يقول تعالى: **(ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات و ما في الأرض)** لقمان: 19.

[83]– محمد المبارك: نظام الإسلام، العقيدة العبادة، دار الفكر، الطبعة الرابعة، 1975م/ 1390هـ بيروت، ص28.

وكل ما يخيل لبعضهم أنه صراع بين الإنسان والطبيعة، ليس إلا من باب التهذيب؛ مثلما يهذب الإنسان أبناءه لينتجوا ويثمروا، كذلك فإن الإنسان يتولى الطبيعة بالتهذيب، لكي تضع إمكاناتها وطاقاتها تحت تصرفه، ولكي تعطي وتثمر، وتتعاون معه في إنجاز الحضارة الإنسانية...

فالأمر إذن ليس (صراعا) بل ليس (تحديا) وانا هو (تدافع) كريم، لولاه لفسدت الأرض... (**أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ**) الرعد: 17.

وكيف يكون الأمر صراعا مع أن الأرض في الإسلام إنما جعلت كلها مسجدا؟ وكيف يكون الأمر صراعا مع أن الزمن هو الدهر ولا يجوز أن يسب المسلم الدهر؟

وعندما أطلق الله للإنسان حريته، أطلقها في حدود الحفاظ على نظام (المرور الكونى) بإشاراته وعلاماته، التي تحول دون الصدام والموت المحقق، فلا جبر ثمة ولا حتمية، وإنما نظام يسمح لكل الحريات – التي قد تتصارع – بالحركة الحرة المأمونة: (**أيحسب الإنسان أن يترك سدى**) القيامة : 39، من غير أن تنضبط حركته بقوانين وسنن، وأوامر و نواه، كلا... إنه لن يترك هملا يرعى كما ترعى السوائم، بل لا بد له من قيود وضوابط يرعى في حدودها ويتحرك في مجالها.

ولهذا كله كان القرآن الكريم – عندما يتحدث عن سنن الله في المجتمع الإنسان – يتحدث عنها كحلقة في سلسلة النظام الكوني القائم على التناسق بين عناصر الكائنات الوجودية...تناسق يؤدي به عملها الذي تقتضيه طبيعة وجودها، فلا مندوحة من أن يهيمن الله...الكبير...المتعال...الجبار...المهيمن على الحركة العامة للكون، ولا مندوحة للإنسان – في الوقت نفسه – من أن ينسق خطواته على أساس الانسجام مع هذه الهيمنة الإلهية.

الإنسان وعلاقته بالكون:

ومن الجدير بالذكر أن كل حضارة إنسانية تنبثق عن مفهوم للوجود، وتصور للإنسان؛ يحدد موقعه في الوجود وعلاقته بالكون وما وراء الكون، وتنطلق من عقيدة يؤمن بها الإنسان (صانع الحضارة).

وهكذا في الإسلام، فالعقيدة القائمة على الإيمان بوجود الله وتوحيده هي التي تمد باقي أجزائه بالحياة وتحدد اتجاهاتها ومعالمها؛ فتوجه الإنسان وترشده إلى التصور الحقيقي الوجود الخالق (الواحد الأحد) ووجود الكون ووجود الإنسان، والصلة بين الله والكون والإنسان، وكذلك الحياة وما وراءها من حياة أخرى[84].

وحين خاطب القرآن الكريم الإنسان ودعاه إلى الإيمان بالله، انطلق به من الكون الذي يعيش فيه ومن نفسه، (أي من قراءة الكون والنفس) للإيمان بالله وبقدرة الله وتوحيده (**وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**) الذاريات: 20، 21.

(**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**) فصلت53.

[84]– المرجع السابق، ص36، 37.

والإنسان في العقيدة الإسلامية كائن كرمه الله وفضله على سائر المخلوقات؛ بما فيه من صورة كريمة، ومن سمو ونفحة روحية، وإرادة وقدرة على تحصيل العلم؛ لأن الله منحه الإرادة والعقل وحرية الاختيار وسخر جميع الكائنات – في الأرض – له، بل وأسجد له ملائكته، وبسبب وجود عنصرى العقل والروح فيه جعله الله مكلفا، وجعل حياته اختبارا وابتلاء: (**إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا**) الإنسان: 2، وهذه هي الأمانة الثقيلة التي حملها الإنسان[85]، والتي كلفه الله بها وأرسل له الأنبياء ليساعدوه على معرفة ما يعجز عن معرفته بعقله ووسائله في تعامله مع أخيه الإنسان، ومع الكون الذي سخره الله له تسخيرا يمكنه من الانتفاع به وتطويعه لمنافعه، بالإضافة إلى التأمل والتفكير في الكون وما فيه؛ ومن ثم أخذ دروس الاعتبار وإدراك عظمة الخالق منه.

والإسلام حين ينتقل بالإنسان من مجال التفكير في الكون إلى توجيه تفكيره إلى خالق الكون؛ يقوده في حقيقة الأمر إلى الإيمان الواعي بالله وبقدرته في إبداع الكون والإنسان... وهذا الإيمان يملي عليه الاعتراف بالخالق وقدرته على تجاوز الأسباب، لأنه –سبحانه – مسبب الأسباب وحاكمها، كما يملي عليه الاعتراف بعظيم قدرة الله وعظيم سلطانه، وكذلك الاعتراف بنعم الله عليه، ومن ثم بحمد الله على صفاته الحميدة ويشكره على نعمه العديدة... " وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا " (النحل: 18).

وكل ذلك مع الشعور بمسئولية الإنسان أمام خالقه ومالك أمره، والحاكم عليه وعلى مصيره، والتوجه، بالتالي، إليه بالسؤال والدعاء: (**وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ**) النساء: 32، (**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**) (**غافر**:60) **والاستغفار والتوبة إليه** (**فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ**) هود: 91 .

وأخيرا...فقد قدم الإسلام للمسلمين وللحضارة الإسلامية والإنسانية، إطارا منهجية علميا لعقيدة التوحيد التي ختمت بها رسالات الأنبياء، وفي هذا الإطار تحددت النظرة التوحيدية للإنسان والحياة والكون، وتحددت نسبة العلاقة بين الوحي والعقل، وبين الغيب والشهادة؛ فيما يتصل بعقيدة إيمانية يقدمها دين سماوى، من خلال كتاب أنزله الله، وبواسطة رسول لا ينطق عن الهوى؛ لكن ذلك لم يحل دون أن يقوم العقل بدوره في اكتشاف ينابيع الإيمان؛ من خلال حركته وسياحته الفكرية العميقة في عوالم الحياة والكون والإنسان، مسترشدا في سياحته تلك بالوحي نفسه: (**رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلا سُبْحَانَكَ**) آل عمران: 191، (**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**) فاطر: 28، (**أَفَحَسِبتُم أَنَّمَا خَلَقنَكُم عَبَثا وَأَنَّكُم إِلَينَا لَا تُرجَعُونَ**) المؤمنون: 110.

دور العقل في العقيدة:

ليس هناك مجال مغلق دون العقل في الإسلام إلا مجال السمعيات (ما وراء المادة... عالم الغيب) الذي لا يستطيع أن يبحر فيه... فالغرق والضلال في انتظاره إن حاول ذلك؛ لأن طاقته دون ذلك بكثير، وحسبه نفسه والكون يعمل في مجالهما؛ ومع أن الإسلام وحي من الله ودين ينقاد المؤمن به الله ، فإنه لم ينكر أبدا دور العقل، بل يعده مصدرا أساسيا للمعرفة الكونية

[85]– المرجع السابق، ص68، 69، بتصرف.

والإنسانية، وللاهتداء إلى خالق الكون أيضا...لكن خروج العقل عن نطاق قدرته، وتجاوزه حده، هو الأمر الذي يرفضه الإسلام ثقة منه في أن للعقل حدودا... شأنه شأن كل الطاقات البشرية كما أشرنا.

وفي مقدمته لكتاب (العلم يدعو للإيمان) لمؤلفه (كريس موريس) C. Morrison يقول :(إن العقل – مهما بلغ من القوة والذكاء – ليس إلا حاسة من الحواس التي تربطنا بعالمنا الحدود، وكما يكون للعين مدى تنتهي عنده مقدرتها عن الإبصار؛ فلا تدرك ما وراء هذا المدى من مرئيات إلا أشباحا باهتة وصورا شائهة لا تغني عن الحق شيئا... كذلك شأن العقل – وهو حاسة الإدراك – له مجاله المحدود الذي يعمل فيه ويدرك حقائق الأشياء في محيطه؛ فإن أبى إلا أن يركب متن الشطط، ويستوي على ظهر الغرور؛ انزلق إلى ظلمات الضلال، وتقطعت به إلى الحق الأسباب).

ويقول أيضا: (ولسنا نريد أن نمسك العقل عن التفكير والبحث في التعرف على الله، فهو الطريق الطبيعي إليه، وإنما نريد أن ينهج العقل منهجا قصدا في البحث عن الله ؛ فلا يندفع وراء الخيالات والفروض، ولا يشتط في التطلع إلى ما فوق طاقته، وليعترف بقصوره عن إدراك الحقيقة وعجزه عن تناولها، ويرجع إلى القلب يطلب عنده الاطمئنان والسكينة).

وفي رسالة التوحيد يقول الشيخ محمد عبده: (**إن قئرنا عقل البشر قدره وجدنا غاية ما ينتهي إليه كماله...إنما هو الوصول إلى معرفة عوارض بعض الكائنات التي تقع تحت الإدراك الإنساني...أما الوصول إلى كنه حقيقة حقا فمما لا تبلغه قوته....خذ أظهر الأشياء وأجلاها كالضوء، قرر الناظرون فيه له أحكاما كثيرة، فصلوها في علم خاص به، لكن لم يستطع ناظر أن يفهم ما هو ولا أن يكتنه معنى الإضاءة نفسه؛ وإنما يعرف من ذلك ما يعرفه كل بصير له عينان،وعلى هذا القياس..**) (وليس هذا حال العقل الإنساني مع ما يساويه في الوجود أو ينحط عنه، بل كذلك شأنه فيما يظن من الأفعال أنه صادر عنه كالفكر وارتباطه بالحركة والنطق، فماذا يكون أمره بالنسبة للوجود الأعلى؟ ماذا (تكون دهشته – بل انقطاعه – إذا وجه نظره إلى ما لا يتناهى من الوجود الأزلي الأبدي..؟)، وينتهي **الإمام محمد عبده** إلى القول: (أما الفكر في ذات الخالق فهو طلب للاكتناه من جهة، وهو ممتنع على العقول البشرية لما علمت من انقطاع النسبة بين الوجودين، وهو تطاول إلى ما لا تبلغه القوى البشرية من جهة أخرى، فهو عبث ومهلكة؛ عبث لأنه سعي إلى ما لا يدرك، ومهلكة لأنه يؤدي إلى الخبط في الاعتقاد، لأنه تحديد ما لا يجوز تحديده، وحصر ما لا يصح حصره)[86].

وقد أثبتت عصور التاريخ أن العقل عاجز وحده عن الوصول للحقيقة، وأنه كثيرا ما يتخبط إذا ابتعد عن وحي الله وحراسة السماء؛ ولهذا أرسل الله الرسل مساعدة للعقل على الانضباط والعمل وفاقا لموازين قويمة تقوده إلى الخير والحق، ولعل التطور الدائم للأفكار والمعارف من أقوى الأدلة على عدم كمال العقل...وأنه آلة قابلة للتطور وزيادة المعرفة في كل العصور...وهذا يعني استمرار عجزه مهما ركبه من غرور.

[86]– محمد عقلة: الإسلام حقيقته وموجباته، مكتبة الرسالة الحديثة، الأردن، عمان، الطبعة الأولى، 1403هـ/ 1982م، ص 27، 28 بتصرف.

أثر التوحيد على الحضارة الإسلامية مقارنا بالنصرانية في رأي أحد المستشرقين:

في مقال كبير – كان قد ألقي في مؤتمر إفريقية الشمالية الذي عقد في باريس – نشر بالفرنسية، ثم ترجم في بعض الجرائد والمجلات العربية إلى اللغة العربية...أورد **درينيه ميوليها** – عن قضية التوحيد بين المسيحية والإسلام قائلا : – في اعتقادي أن خطأ المشتغلين منا بالإسلام هو في درس هذا الدين مستقلا عن الظروف التي كانت محيطة بظهوره؛ فلو عرفنا كيف كان حال العالم حين ظهر لوقفنا على أسباب انتشاره المدهش.

وقال (**رينيه ميوليه**): إن الذي ساعد الإسلام على الانتشار هو ما قرره الإمبراطور **قسطنطين**« في القرن الرابع للمسيح من جعل المسيحية دين الحكومة، وقد جر هذا القرار على الدولة البيزنطية من المشاكل أعقدها، فكم أهرقت من دماء في سبيل كل عقيدة من عقائد المسيحية، وكم من مقاطعة ضيعها الإمبراطور على إثر كل قرار كان يصدر من مجمع (نيقية) أو من غيره من المجامع.

وإن مسألة طبيعة المسيح، أو مسألة الأقانيم التي نعتقدها الآن (أي يعتقد بها النصارى) بكل سكينة واطمئنان، قد سالت من أجلها دماء غزيرة، ونشأت من الجدال فيها حروب هائلة.

هذا... وإنه قد بلغ من عناية الحكومة بنشر الدين المسيحي أنها غفلت عن احتياجاتها الأولية؛ فاحترمت الصوامع، ورفعت عن أهلها الخدمة العسكرية، وأعفتهم من الضرائب؛ فلم يكد يدخل القرن السادس حتى كانت الدولة في غاية الضعف، وملئت جوانبها بالخلافات الدينية.

وعلى الطرف الآخر – كما يقول »رينيه ميوليها – كان للتوحيد أثره العظيم عند المسلمين...فالإسلام دين جاء بخلاف كل ذلك.

فقد اعتاض عن تعدد درجات الإدارة (المسيحية) بسلطة واحدة يرجع إليها الحل والعقد في كل الأمور. ولم يقرر شيئا من وساطة القسيسين بين الآلهة والشعب.

ولم يسن نظام الصوامع، وقضى على عادة العزوبة التي كانت متبعة مستفيضة بين المسيحيين في ذلك العصر، وقضى أيضا على عادة التنسك والخروج من الدنيا فقرر الاشتغال بالدنيا والآخرة معا.

ثم إن الإسلام أرجع الدين إلى حالته الطبيعية، ولم يأت بشيء من تلك العقائد المسيحية الفلسفية، بل قال بكل وضوح (لا إله إلا الله)، وبذلك خلا الإسلام من ذلك الاعتقاد الذى قسم الدول الأوربية، والذي جعل أهل مصر وآسيا الصغرى في حالة استياء من تسلط الدولة البيزنطية.

وكيف لا تميل هذه الشعوب الساخطة إلى أهل الإسلام وهم يعلنون أنهم أهل التسامح مع مخالفيهم في الدين...لا يطلبون منهم إلا ضريبة يستعينون بها على إصلاح شئونهم وشئون الدولة الإسلامية.

ومن هذا الوصف التاريخي الموجز يمكنكم أن تتصوروا كيف نضبت ينابيع الحياة في الدولة البيزنطية، وأنتم تعرفون كيف انتشرت عادة التنسك والتقشف مع أنها لم تقلل من فساد الأخلاق، ويمكنكم أن تدركوا كيف أن سكان البلاد التابعة الآسيوية اعتبرت ظهور الإسلام إيذانا بنجاتهم وسعادتهم.

بينما جاء المسلمون متشبعين بروح التسامح؛ وذلك هو سر الانقلاب العظيم الذي أعطاهم ملك آسيا وإفريقيا ونصف إسبانيا. وإذا كان ذلك كذلك أدركتم ما تبع هذه النهضة من الأعمال الجلية.

لقد أتي العرب (الإسلام) بعقائد سهلة ملائمة للفطرة، وأعطوا الحياة الدنيا قسطها من الاعتبار؛ فترقت العلوم والفنون والآداب باجتهادهم الذي عجز عنه المسيحيون الذين عاصروهم، وإني ليخيل إلى أنه كانت على أبصار مسيحي القرون الوسطى غشاوة من تنسك منعتهم من إدراك الأشياء على حقائقها[87].

رابعا: الشريعة والأخلاق في الإسلام.. المصدر والغاية:

تنبع أهمية الأخلاق في الإسلام من ارتباطها ببناء الشخصية السوية الإنسانية الكريمة، ومن ارتباطها بالعقيدة والشريعة، ومن ضرورتها للسلوك السوي لدى الأفراد والجماعات[88].

ولعل من أكبر ما يؤكد أهمية الأخلاق أن الله مدح نبيه بها في قوله تعالى: " **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** " (القلم:4) ولم يمدحه بصفات جزئية أو بصورة ظاهرية، كما أن الرسول جعل جوهر بعثته إتمام حسن الأخلاق، فقال: "**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ حُسْنَ الأَخْلاَقِ**"[89]. وقال أيضا: " **إِنَّ الله لا يَنْظُرُ إِلى أَجْسامِكُم، وَلا إِلى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ** " [90].

وتقوم الأخلاق في الإسلام على الدين والإيمان بالله ، فبدون إيمان حقيقي تصدر عنه الأخلاق، تصبح الأخلاق (مصلحية) أو (دنيوية) لا قيمة لها، حتى ولو كان ظاهرها طيبا، لكنها تفقد النية...ولعل البعد الديني الإيماني(في صلته بالأخلاق يتضح في قول الرسول: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت " [91].

وقد عبر عن صلة الأخلاق بالعقيدة الشيخ محمود شلتوت أفضل تعبير عندما قال: (إن العقيدة – دون خلق – شجرة لا ظل لها ولا ثمرة، وإن الخلق – دون عقيدة – ظل لشبح غير مستقر).

والحق أن محاولة الفصل بين القيم الخلقية والعقيدة إن هي إلا محاولة لإجهاضهما ووأدهما معا، وهذه قضية خطيرة تعاني منها المجتمعات الغربية على وجه الخصوص، ومن الجميل أن نذكر أنه عقد في إنجلترا عام 1907م مؤتمر للتحقيق الدولي في التربية الأدبية، اشترك فيه أكثر من 700 من مشاهير العلماء والفلاسفة ورجال الأدب والسياسة، وقد أجمع المؤتمرون على أنه لا يمكن الإحاطة بمواضيع التربية الأخلاقية دون الرجوع إلى الوازع الديني[92].

---

[87]– نقلا عن: عبد المتعال الجبري: الحضارة والتمدن الأغسلامي، طبع بمصر، ص16.

[88]– أنظر: كايد قرعوش: الأخلاق في الإسلام، دار المناهج ط1، 1420هـ 1999م، عمان الأردن، ص 17 – 20 (بتصرف).

[89]– رواه مالك في الموطأ في حسن الخلق.

[90]– رواه مسلم.

[91]– متفق عليه.

[92]– يوسف القرضاوي: دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي، مكتبة وهبة، 1995، ص8، د/ كايد قرعوش وآخرون: الأخلاق في الإسلام، ص28.

ومن الجدير بالذكر أن الأخلاق في الإسلام لا تقوم على مجرد الإيمان والتدين العادي، بل يجب أن ترتفع إلى مرحلة التقوى التي هي من أزكى مراحل التدين وأعلاها. والتقوى ملكة نفسية ووجدانية تجعل الإنسان يتمتع بفطرة الاتقاء والامتناع عن كل ما حرمه الله، وهي من تجليات عمق الإيمان بالله، وعندما تتحقق تصبح فطرة في النفس.

والحق أن الدين يستهدف من وراء كل تشريعاته – سواء في مجال العقيدة أو العبادات أو المعاملات المختلفة – إقامة مجتمع فاضل؛ لا يتحقق بغير الأخلاق القائمة على اليقين بضرورة الإيمان والتقوى، واليقين – كذلك – بان الدين هو الأساس المتين للأخلاق، وأن الأخلاق الكاملة صورة صحيحة عن الدين؛ فكل من لا أخلاق له لا دين له، وكل من يدعى خلقا من دون دين فهو ماكر خادع، وصياد للمنافع، ومستغل لبعض جوانب الأخلاق لحماية تأمين مصالحه؛ فأخلاقه ناقصة وغير مقدسة، وعرضة للهزات والتمييع والتبدل وفق المصلحة[93].

وكما تقوم الأخلاق الصحيحة البناءة على الإيمان والدين، فكذلك تقوم على (العلم)، فالعلم الصحيح رديفن الإيمان وخادمه ومؤازره، ولا يمكن أن يتعارض علم صحيح مع إيمان صحيح... بل هما متعاونان؛ وبهذا الاعتبار يشكل العلم أساسا آخر من اسس التربية الأخلاقية، ولا يمكن أن يشكل التقدم العلمي مناخا يتيح للعابثين فرص التحرر من الالتزام الأخلاقي.

ويؤكد القرآن هذا الارتباط بين الأخلاق والعلم في قوله تعالى : (**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**) (الجمعة : 2).

فقد جاء الحديث عن تزكية النفس(أي تهذيبها وتطهيرها بالأخلاق الطيبة) وسطا بين تلاوة القرآن وبين تعليمهم الكتاب والحكمة، فالعلم يحوط الأخلاق ولا ينفك عنها[94].

ويعد الأساس التنفسي (الدوافع) أساسا من أسس الأخلاق في الإسلام؛ فالإسلام لا يدعو إلى أخلاق مثالية بعيدة عن الواقعية؛ تمنع الناس من التمتع بالطيبات من الرزق الحلال والزواج الحلال، أو تمنعهم من التملك أو حب المعرفة أو الطعام أو الشراب؛ وإنما يسمو الإسلام بهذه الدوافع ويشق لها طرقا من الحلال تحفظ لها إطارها الإنساني الإيجابي البناء، وما أغلق بابا من أبواب الحرام إلا فتح بدلا منه أبوابا كثيرة من الحلال.

قال تعالى: (**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**) **الأعراف: 32 وقال تعالى(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا)** الأعراف: 31

الأخلاق الإسلامية بين المسئولية والجزاء:

في التشريعات الوضعية تستطيع أن تتجنب كل أعمال الخير، وأن ترتكب كل المحرمات التي يبيحها القانون الوضعي كالزنا وشرب الخمر والقمار؛ دون أن تشعر بمسئولية ما دمت لا تعرف الله ولا الدين، ودون أن تخشى الجزاء، لكن الأمر على العكس من ذلك في الإسلام؛ فالأخلاق ترتبط ارتباطا عضوية في المنظور الإسلامي بقاعدة أساسية هي:

---

[93]– محمد عقلة: النظام الأخلاقي في الإسلام، ص39.

[94]– كايد قرعوش وآخرون: الأخلاق في الإسلام، ص29.

لا أخلاق بدون التزام...ليس بالمعنى الإلزامي القانوني الظاهري فحسب، ولكن بالمعنى الإلزامي الداخلي الذي يواجه بقوة داخلية الانحراف العشوائي نحو الشهوات، أو نحو التقصير في الواجبات الأخلاقية، قال تعالى :" **فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا** " (النساء: 135).

والقوة الباطنية الملزمة، وهي تلك القوة الموجهة الفطرية، التي تستطيع أن تميز بين طريقي الخير والشر (**أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ**) (البلد: 8) ونضغط لترجيح كفة الخير (**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى**) (النازعات40، 41).

إن هذه القوة الباطنية تعتمد على أن في نفس كل إنسان طاقة نورانية يمكن له بالعقل الواعي البصير أن يشعلها بان يقرأ في كتاب فطرته النقية – ما سبق أن نطرها الله عليه صلى الله عليه وسلم وبعبارة أخرى فإنه عندما يرجع أشد الناس إلحادا إلى سلطة العقل فإنه لا يفعل سوى الإنصات إلى ذلك الصوت الإلهي الذي يتكلم في داخل كل منا، دون أن يذكر اسمه، وهو ينطق صراحة عندما يتحدث إلى المؤمن [95].

يتصل بهذه الفكرة الأساسية الفطرية في التصور الأخلاقي في الإسلام وهي فكرة (الإلزام) فكرتان أساسيتان ناتجتان عنها، تستلزم إحداهما الأخرى، وهما:

أ- فكرة المسئولية.

ب-وفكرة الجزاء.

فأما المسئولية، أي التكليف بمعناه الإنساني العام، فتحدده تلك الآية القرآنية الكريمة: (**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ**) (الأحزاب: 82).

ويرى الدكتور محمد عبد الله دراز(أن هذه المسئولية تتفرع عنها ثلاثة أنواع من المسئولية: مسئولية دينية، ومسئولية اجتماعية، ومسئولية أخلاقية محضة، ويجمع هذه المسئوليات الثلاث تلك الآية القرآنية الكريمة التي تقول :(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**) (الأنفال: 27)، وأما فكرة الجزاء، فتأتي كرد فعل طبيعي على الموقف الأخلاقي الذي التزمنا به وتحملنا مسئوليته؛ بأعبائها الشخصية والاجتماعية.

وأنواع الجزاء التي يقول بها باحثو الأخلاق الإسلامية ثلاثة:

1 – **جزاء أخلاقي** يغلب عليه الشعور النفسي، كما أنه قد يساعد النفس على الاستزادة من الالتزامات الأخلاقية؛ فيكون هذا أيضا نوعا من الجزاء، وكما يقولون :(فإن الحسنة تلد حسنة)، كما أن المعصية تلد معصية. هذا بالإضافة إلى تلك السعادة الروحية التي تغمر النفس، حين تشعر بأنها أدت واجبا أخلاقيا، ولعل في حديث الرسول ما يؤكد هذا المعنى :(إذا ساءتك سيتك وسرتك حسنتك فأنت مؤمن)[96].

جزاء قانوني: وهو جزاء يتمثل في الحدود التي جاءت بها الشريعة من قصاص ورجم وجلد وغيرها.

---

[95]– محمد عبد الله دراز: دستور الأخلاق في القرآن، ترجمة: عبد الصبور شاهين، طبع دار الرسالة، ص36.

[96]– المرجع السابق: فصل (الجزاء).

2- **جزاء إلهي**: ويتمثل في نوعين من الجزاء:

أ- جزاء دنيوي عاجل، وإن كان غير كامل؛ لأن الدنيا بطبيعتها غير كاملة **"مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ "** (النحل: 97).

ب- وجزاء أخروي آجل، يمتاز بالوفاء والكمال: **" وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ "** (آل عمران: 180) **" إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ "** (المؤمنون: 111).

ويقف وراء هذا البناء الأخلاقي الإسلامي ركنان أساسيان؛ يفرقان بينه وبين سائر النظريات الأخلاقية الوضعية، وهذان الركنان هما:

أ- النية، أي الباعث الداخلي.

ب- الدافع، أي الهدف والغاية :(ونلاحظ ضما ارتباطهما بالجزاء الأخروي وبمراقبة الله).

فمهما تكن مادة العمل جميلة وطيبة المظهر، فإن افتقاد أي عمل، عبادة كان أو معاملة، للنية السليمة الخيرة، وللهدف السامي العلوي، يجعلان أي عمل - مهما كان (أخلاقيا)- عملا نفعيا أو تجاريا، لا يمت إلى بناء الأخلاق الإسلامية بصلة. وعن الركن الأول: النية، قال » :إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى)[97]، وعن الركن الثاني: الدافع، قال عندما سأله رجل من الأعراب : يا رسول الله ، الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل لذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ فقال رسول الله "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله"[98].

خصائص الأخلاق الإسلامية :

تتميز الأخلاق في الإسلام بجملة من الخصائص من بينها:

1-أنها شاملة لأفعال الإنسان الخاصة بنفسه او المتعلقة بغيره، فردا او جماعة أو دولة؛ فلا يخرج شيء عن دائرة الأخلاق في الإسلام، مما لا نجد له نظيرا في شريعة سماوية أو قانون وضعي.

فالأخلاق في الإسلام لم تغادر شعبة من شعب الحياة سلما أو حربا، فردا أو بيتا أو مدرسة أو سياسة أو اجتماعا أو اقتصادا أو ترفيها إلا ولها أثر بالغ فيها[99].

2-وتتميز الأخلاق في الإسلام بأنها منسجمة مع الفطرة في تطبيقاتها العملية، بحيث

تحقق رغبات الإنسان في ظل شريعة الله، كما أنها تعبير عن أصل فطرته الإنسانية الراقية[100].

3-وتتميز الأخلاق في الإسلام بأنها (مطلقة)؛ فليست لأصحاب دين وحدهم أو لجنس وحده؛ فلا ازدواجية فيها للمعايير بين البشر.

4-ولهذا أيضا تتميز الأخلاق في الإسلام (بالثبات)، فالصدق صدق إلى يوم القيامة،

---

[97]- رواه البخاري.

[98]- (متفق علي).

[99]- محمد عقلة: النظام الأخلاقي في الإسلامي، ص44 وما بعدها.

[100]- محمد قطب: التطور والثبات في حياة البشر، دار الشروق، الطبعة الرابعة، 1400هـ/ 1980م، ص 106، 107.

والأخلاق ليست صادرة من المجتمع بل من الله، وهي تمثل محورا لا بد أن يبقى ثابتا ليعرف الحق من الباطل على امتداد التاريخ.

1- كما تتميز (بالواقعية)، فهي ليست مثالية تحث على الزهد وإهمال الدنيا بل تجمع بين الواقعية والمثالية.

2- وتتميز بأنها (إلزامية)، لأنها جزء من الشريعة التي تقوم على الأوامر والنواهي.

3- وتتميز بأنها (وسطية) معتدلة لا إفراط فيها لا تفريط.

4- وتتميز بأنها (تعبدية) (وتشريعية) لكنها معقولة ومعللة، ولكل خلق جوانبه التي تقرها المصلحة والعقل وتجربة التاريخ.

5- وتتميز بأنها لا تقف عند حدود (القانون) الظاهر بل هي تخضع لخوف الله ومراقبته والضمير الداخلي.

6- وتتميز بأنها (واضحة) لا فلسفية مركبة، كما أنها عملية واقعية موجهة لكل الناس؛ ولهذا جمعت بين التفصيل والتعميم، كما أن وسائلها لا بد أن تكون (أخلاقية). كريمة كغايتها.

7- وتميز- كذلك - بأنها إيجابية فاعلة تغير المنكر، وتقف مع الحق والمعروف، وتواجه الانحراف والإفساد، وتنشر الخير والحب والرحمة. ومن أكبر صور السلبية الأخلاقية في الإسلام: التناقض بين الفكر والقول من جانب، والعمل والالتزام مع الآخرين من جانب آخر...إنه (النفاق) الذي يذمه الله -تعالى- في قوله :" **كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ**" (الصف3)

إن الأخلاق الإسلامية صدق مع الله، ومع النفس، وروح إيجابية تصوغ الحياة صياغة أخلاقية تليق بالإنسان.

خامسا : اللغة العربية وآدابها.. من مصادر الحضارة الإسلامية:

لم يعد ثمة شك - عند الموضوعيين والمحللين بعمق - أن اللغة العربية لغة متفردة من بين لغات العالم؛ فلا تدانيها لغة أخرى في أصالتها ومرونتها وقدرتها وثرائها...

وعندما كنت في مؤتمر إسلامي معهد الحضارة الإسلامية بمدينة وهران الجزائرية أعلن مدير المعهد آنذاك[101]، بل قرأ علينا ما أرسله أحد علماء (فقه اللغة ومقارنة اللغات) من الفرنسيين حول نتائج دراسته لمدة عشر سنوات، والتي أراد فيها أن يعرف: هل كان من الممكن أن يتنزل القرآن بلغة غير العربية؟ وهل بإمكان لغة أخرى أن تسع كتاب الله المعجز ألفاظا ومضامين وغايات...؟ وقد انتهى من دراسته إلى استحالة ذلك...فأعلن إسلامه.

وثمة دليل آخر (مادي ملموس) لا يقوى على دحضه عاقل؛ فنحن نرى بأعيننا أجناسا غير عربية (أطفالا في سن العاشرة، وشبابا وشيوخا، مبصرين وعميانا) من الهنود والترك والبربر والفرس...قد لا يعرفون إلا بضع كلمات في اللغة العربية، وقد لا تستطيع التفاهم معهم بالعربية، لكنهم يستظهرون القرآن كله؛ ربما أفضل من كثير من العرب !!

ولقد سألت نفسي: هل لو كان القرآن باللغة الإنجليزية أو الفرنسية أو الصينية أو اليابانية: أكان من الممكن للعربي - بخاصة - ولكل الأجناس بعامة أن تستظهره على هذا النحو؟ إن هذا يكاد يكون مستحيلا. وهل يمكن القول، مع إيماننا

---

[101]- هو الأستاذ الدكتور بكرى عبد الكريم، وهو الآن مدير التدريب في مسجد باريس الكبير الذي تشرف عليه الحكومة الجزائرية، وهو شخصية أكاديمية معروفة في الجزائر، وكان المؤتمر في سنة 1995 تقريبا.

بالطبيعة القرآنية المعجزة، وبالوعد الإلهي المبشر والضامن لهذا التيسير، والمتمثل في قوله تعالى :(**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**) القمر: ٢٢، هل يمكن – مع إيماننا بهذا – ألا يكون اللغة العربية خصوصيات كمالية وجمالية ذاتية؛ هيأتها للاختيار الإلهي لكن تكون لغة هذا الكتاب المعجز في كل آياته (القرآن الكريم)؟ إن هذا أمر بدهي، فلا يمكن أن يوضع المضمون الشريف الرباني المعجز إلا في وعاء شريف يعلو على كل الأوعية الأخرى!!

إن اللغة العربية ليست لغة من أرقى لغات العالم فحسب؛ بل هي أرقاها بيقين، ولا يعوزها إلا أمة تعرف قيمتها وتحسن تقديمها للعالم، وهي نتميز في تركيب حروفها وكلماتها وجملها، وفي كل ما يتعلق بالبناء العام للكلمة ثم للجملة، مع مرونة في التصريف والاشتقاق، وعمق في معرفة خصائص الأصوات عند تأليفها مع بعضها في ثنايا الكلمات؛ كالإدغام والإبدال والإمالة؛ حيث توجد أسس عقلية أو منطقية تقوم عليها من حيث صورها وموقعها في الكلام، وقواعد عامة تربط بين اللفظ والمعنى[102].

أما حروفها فهي، وإن لم تكن أكثر من حروف الأبجديات الأخرى (وربما تكون هذه ميزة ومظهر تحد وقدرة)؛ إلا أنها – مع ذلك – تفي بالخارج الصوتية، وإعرابها بسيط لا يزيد على أربع حركات واضحة (فتح وكسر وضم وسكون)، كما أن كلماتها سهلة النطق سلسة، تتوزع توزيعا متساويا من غير ضغط على حركة دون حركة؛ ومن ثم يسهل نطقها على المبتدئين، فضلا عن أنها تخضع لموازين أمكن حصرها في عدد من القواعد، وليس هناك لغة أخرى وصلت إلى ما تحقق في اللغة العربية في ضبط المشتقات بالموازين؛ سواء من حيث المبني أو المعنى، وبالرغم من أن الكلمة العربية تعني – في أصلها – معنى ماديا واقعيا، فإنها لا تلبث أن تصبح أيضا ذات معنى شعري مجازي ولكن دون أن يقع لبس بين الدلالتين عند الاستعمال. أما جملها فلا يشترط في تكوينها ترتيب محدد؛ بل يمكن تقديم الاسم أو الفعل حسب الرغبة في تأكيد معنى معين، كما لا يشترط إدخال الفعل أو الاسم في الجملة كما يحدث في لغات أخرى؛ بل يمكن تكوين الجملة دون فعل أو اسم؛ إذا كان المعنى لا يستدعي ذلك.

ونظرا لسلاسة الألفاظ والجمل العربية ظهر في اللغة العربية فن (العروض) كفن كامل أثر في كثير من اللغات الأخرى [103]، على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي، ولعله أدق ميزان لموسيقى الشعر في لغات العالم كله.

وقد يزعم بعضهم – اعتمادا على بعض الآراء الشعبية السطحية – أن اللغة العربية لغة صعبة، وذلك دون مقارنتها باللغات الفرنسية والصينية واليابانية مثلا؛ ومع رفضنا لهذا الزعم إلا أننا نرى أن لغة عظيمة ذات أعماق إعجازية متصلة بالقرآن الذي وسعنه؛ لا يمكن أن تكون كذلك لغة سهلة مبتذلة، فالعربية – كلغة عالمية أولى يتكلم بها في كل يوم نحو مليار وثلاثمائة مليون من البشر (في صلاتهم على الأقل) لغة جامعة لليسر والعمق والمرونة والقدرة على التعبير عن كل الخلجات والمشاعر والأخيلة والماديات معا؛ لكنها تحتاج في دراستها إلى جد ومثابرة حتى يتمكن الذي يتكلم بها – بعد ذلك – من التعبير بها عن كل صور الإبداع والوجدان.

---

[102] – أحمد عبد الباقي: معالم الحضارة الإسلامية في القرن الثالث الهجري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1/ 1991م، ص305.

[103] – حسن الباشا: دراسات في الحضارة الإسلامية، نشر النهضة العربية 1988، ص10.

ولو كانت العربية صعبة على النحو الذي يزعمونه لما انتشرت هذا الانتشار الواسع في فترة وجيزة نسبية، ولما تأثر بها كثير من الشعوب التي احتكت بالعرب سواء غالبة أو مغلوبة، ولولا ظهور بعض النعرات القومية عند بعض الشعوب لظلت لها السيادة بين جميع الشعوب الإسلامية، ولو كانت اللغة العربية صعبة – كما يزعم هؤلاء – لما كتب لها البقاء ولماتت كما مات غيرها من اللغات، ولما كانت أطول اللغات الحالية عمرا[104].

إن العربية لغة دولية علمية دينية دنيوية...يتكلم بها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، ويعبرون بها عن أحاسيسهم وآدابهم، ويتعلمون بها معارف غيرهم، ويدونون بها أفكارهم وعلومهم، وهي أداة سليمة ودقيقة للتعبير العلمي والفني، وقد كان من عبقريتها – يوم كان لها رجال – أنها استوعبت الحضارة الإنسانية والإسلامية، وقام علماؤها بترجمة معارف البشرية إليها؛ من اليونان والهنود وغيرهم، وعنها نقلت الحضارات والثقافات الإنسانية والإسلامية إلى الشعوب الأخرى، ومنها الشعوب الأوربية ؛ فترجم ما حوته العربية من علم ومعرفة وثقافة وآداب إلى العالم كله.

هذا...مع ملاحظة أن العرب – ومن تعرب من الأجناس الإسلامية الأخرى – ما تركوا علما معاشيا تطبيقية ولا إنسانيا إلا وكانت لهم فيه جهود بارزة.

ويتصل باللغة العربية الخط العربي الذي أخذ شأنه في الازدياد منذ ظهور الإسلام؛ إذ صار انتشار الخط العربي مصاحبا لانتشار اللغة العربية بل زاد عليها حين صار يكتب به لغات غير عربية مثل الفارسية والأردية والتركية.

وقد عنى بالخط العربي منذ ظهور الإسلام عناية موضوعية من حيث التوضيح؛ عن طريق ابتكار علامات الإعراب والإعجام، ومن حيث التجويد، ومن حيث ابتكار النسب
الجميلة في كتابة الحروف والكلمات وتنسيق الجمل.

وكان الخط العربي – مثله مثل اللغة العربية – وسيلة التعبير عن الحضارة الإسلامية، وعاملا مهما في توحيدها الثقافي والحضاري.

وعندما امتدت فتوح العرب والإسلام بين الهند شرقا والمحيط الأطلسي غربا، وبين بحر قزوين شمالا وبلاد النوبة جنوبا، ثم انتشر الإسلام بعد ذلك ندخل إسبانيا وأجزاء من أوربا وجزر البحر الأبيض المتوسط وآسيا الصغرى وأرمينية وبلاد البلقان، كما انتشر شمال بحر قزوين ودخل الهند وما وراءها وتوغل في إفريقية، سارت العربية – لعدة قرون – مع الإسلام حيثما سار، ولولا أخطاء بعض العرب العنصريين لانضوت تحت لواء الإسلام شعوب كثيرة كان لمعظمها ماض حضاري تليد كالفرس والهنود[105] وغيرهم.

وقد عرفت اللغة العربية بأنها اللغة الشاعرة لطبيعتها الموسيقية والفنية، كما عرفت بأنها لغة الشعر والنثر والقصص والأمثال والحكم والخطابة، وكانت الأسواق – كعكاظ – مجال تنافس في كل هذه المجالات الأدبية.

---

[104] – المرجع السابق، ص11.

[105] – المرجع السابق، ص11، 12.

ولعل وصول العرب إلى هذا المستوى الشعري الذي تمثله مرحلة المعلقات السبع، كاف في الدلالة على النبوغ العربي في فن الشعر.

ويذكر أحمد أمين أن أشهر المجموعات التي لدينا مما نسب إلى الجاهليين – عدا دواوين الشعر والمعلقات – هي: الفضليات، وديوان الحماسة لأبي تمام، ومثل حماسة البحترى، ومختارات ابن الشجري، وجمهرة أشعار العرب المنسوب لأبي زيد القرشي؛ إلى جانب بعض الأشعار الواردة في الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، والشعر والشعراء لابن قتيبة[106]، لكن أحمد أمين دأب على انتهاج نهج صديقه طه حسين في الشك في نسبة الشعر الجاهلي إلى أصحابه الجاهليين؛ بحجة أنه ظل غير مكتوب نحو قرنين، وظلت تتناقله الرواة شفاها، وهي أقوال)شكية(يحسنها كل الناس لكنها لا تثبت أمام النقد العلمي، وقد فند آراءه كثير من مؤرخي الأدب الثقات؛ حين فندوا منهج طه حسين الاستشراقي الديكارتي وأتوا عليه من قواعده.

ومع ذلك فإن أحمد أمين انتهى إلى أن ما سلم من شعر ومل صحيحين يدلنا على الحياة العقلية العربية، ويدلنا على ثراء معجم اللغة العربية قبيل الإسلام، ويدلنا في النهاية على أصالة هذه اللغة.

ولعل المستشرق الأستاذ (نولدكهه) كان أصدق وأقوم سبيلا من صاحبنا أحمد أمين مع أنه حاول الاستعانة به – وذلك في قول نولدكه :(إنا ليتملكنا الإعجاب بغني معجم اللغة العربية القديم؛ إذا ذكرنا مقدار بساطة الحياة العربية وشؤونها، وتوحد مناظر بلادهم، واطرادها اطرادا يدعو إلى السآمة والملل، وهذا يستتبع – حتما – ضيق دائرة التفكير، ولكنهم في داخل الدائرة الضيقة وضعوا لكل تغير – وإن قل – كلمة تدل عليه، ويجب أن نقر بأن معاجم اللغة العربية قد تضخمت كثيرا بكلمات استعملها الشعراء وصفا الأشياء ؛ فذكرها اللغويون على أنها أسماء لتلك الأشياء.

ولكن رغما عن هذا كله يجب أن نعترف بأن معجم اللغة العربية غنى غنى رائعا، وسيبقى دائما مرجعا مهما لتوضيح ما غمض من التعبيرات في جميع اللغات السامية الأخرى.

وليست اللغة العربية غنية بكلماتها فحسب، بل بقواعد نحوها وصرفها أيضا، فجموع التكسير – وأحيانا أسماء الأفعال – كثيرة زائدة عن الحاجة.

ولا يؤخذ على اللغة العربية أنها كانت تدور في فلك البيئة المحيطة بها، شعرا أو نثرا؛ فذلك شيء طبيعى، بدليل أنها عندما خرج بها الإسلام إلى العالم الخارجي وانفتحت على حضارتي الروم وفارس وغيرهما، وترجمت العلوم المختلفة، وعرب عبد الملك بن مروان الدواوين، نجحت في كل ذلك نجاحا باهرا، وأصبحت لغة عالية يشكو رجال الكنيسة في الأندلس من أنها لغة الثقافة والعلم والحضارة التي يفتتن بها المثقفون النصارى واليهود والتي قضت على اللغة اللاتينية.

ومع هذه العالمية التي حققتها اللغة العربية – كركن أساسي من أركان الحضارة الإسلامية – ومع ما حققته علومها وفنونها من مستوى رفيع، ومن انتشار كبير إلا أن هذا لا يعني أنها كانت منغلقة فلم تتفاعل مع اللغات والآداب الأخرى، لاسيما اللغات الإسلامية كالفارسية والأردية والتركية، والتي دخل أبناؤها في الإسلام، وتعربوا فأصبحوا عربا مقياس الإسلام؛ إذ العروبة القرآنية هي عروبة الفكر واللسان والعقل والوجدان، وأصبحت أعداد هؤلاء المتعربين، في مجالات

[106]– أحمد أمين: فجر الإسلام، دار الكتاب اللبناني، ط11، 1979م، ص58.

الإبداع أكثر من أعداد العرب؛ ومع أن طبيعة الإسلام والحضارة الإسلامية ألا يرغم أحد على ترك دينه أولغته، فقد اختاروا هم (العربية) لاعتبارات تتصل بالإسلام من جانب، وباللغة العربية ذات الغزارة والقوة والسهولة في الوصول إلى التعبيرات الدقيقة من جانب آخر.

وقد اضطر أحمد أمين – لهذا – إلى الاعتراف في نهاية حديثه إلى أن العرب – وإن انخذلوا حسب رأيه – في النظم السياسية والاجتماعية، فقد انتصروا في شيئين عظيمين: اللغة والدين؛ فأما لغتهم فقد سادت هذه الممالك جميعا وانهزمت أمامها اللغات الأصلية للبلاد، وصارت هي لغة السياسة ولغة العلم، وظل هذا الانتصار حليف العرب في أكثر هذه الممالك إلى اليوم، وكذلك الدين؛ فقد ساد هذه الأقطار واعتنقوه، وقل من بقي من سكان هذه البلاد على تدينه الأصلي[107].

وهذا الانتصار – في رأينا – خير دليل على أصالة هذه اللغة وقوتها، وعلى أنها تستحق أن تكون لغة القرآن، وأن تسير معه في دنيا الناس حيث سار.

[107] – المرجع السابق، ص96.

الفرع الخامس : عوامل قيام الحضارة وانهيارها [108]:

إن معرفة وتحديد عوامل قيام الحضارات يتطلب معرفة الظروف والتجارب التي مر بها الإنسان وعايشها، بهدف الاستفادة من الماضي، وتعتبر الحضارة غاية أي اجتماع بشري مستقر، وانهيار الحضارة هو نهاية وجود المجتمع البشري واستقراره، وإن أي مجتمع بدون حضارة سيكون مجتمعاً بدائياً؛ فالحضارة تضع حاجزاً بين الإنسان وهمجيته فتحميه.

إن ابن خلدون اعتمد على مقاربة متعددة فروع المعرفة؛ ليُبين كيف أن العلاقة المترابطة للعلاقة الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية، والسياسية والتاريخية والديموغرافية، تؤدي إلى نهضة المجتمعات وسقوطها[109].

عوامل قيام الحضارة والعمران:

1 – العوامل الطبيعية الجغرافية:

إن للحضارة عند ابن خلدون سببًا طبيعيًّا جغرافيًّا، ففي المقدمة الثالثة يعنونها ابن خلدون بعنوان: (في المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر والكثير من أحوالهم)، ثم يفسر ذلك بقوله: (قد بينا أن المعمور من هذا المنكشف من الأرض إنما هو وسطه لإفراط الحر في الجنوب والبرد في الشمال، ولما كان الجنبان من الشمال والجنوب متضادين في الحر والبرد، وجب أن تندرج الكيفية من كليهما إلى الوسط، فيكون معتدلاً، فالإقليم الرابع أعدل للعمران، والذي حافته من الثالث والخامس أقرب إلى الاعتدال، والذي يليهما من الثاني والسادس بعيدان من الاعتدال، والأول والسابع أبعد بكثير، فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات والفواكه، بل والحيوانات وجميع ما يتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال، وسكانها من البشر أعدل أجسامًا وألوانًا وأخلاقًا وأديانًا، حتى النبوات فإنما توجد في الأكثر فيها، ولم نقف على خبر بعثة في الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية، وذلك أن الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع في خَلْقهم وأخلاقهم؛[110] قال تعالى :﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾) آل عمران: 110[111] .

2 – الانتقال من البداوة إلى الحضر:

فقد بين ابن خلدون أن أجيال البدو والحضر طبيعية، فاختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نِحْلَتِهِم من المعاش، فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري منه وبسيط قبل الحاجي والكمالي، فمنهم من يستعمل الفلح من الغراسة والزراعة، ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر، والمعز والنحل والدود، لِنِتَاجِها واستخراج فضلاتها، وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة – ولا بد – إلى البَدْو؛ لأنه متسِعٌ لما لا يتَّسِعُ له الحواضر من المزارع والفُدُن والمسارح للحيوان وغير ذلك، فكان اختصاص هؤلاء بالبدو أمرًا ضروريًّا لهم، وكان حينئذ

---

[108] – رابط الموضوع :https://www.alukah.net/culture/ ، يوم :12/ 01/ 2021 م ،الساعة : 14.22 زوالا .

[109] – الحضارة الإسلامية (أسباب الانحطاط والحاجة إلى الإصلاح)، محمد عمر شابرا، ص : 61 .

[110] – مقدمة ابن خلدون، علي عبدالواحد وافي، ص: 392، 393، 399، 401.

[111] – للتعليق على العامل الجغرافي وأثره في الحضارة والعمران، المرجع السابق، ص: 403، 404، تعليق رقم: (268) .

اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والكِنِّ والدَّفاءة، إنما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة، ويحصِّلُ بُلغَة العيش من غير مزيد عليه، للعجز عما وراء ذلك.

ثم إذا اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش، وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرَّفْه، دعاهم ذلك إلى السكون والدَّعة، وتعاونوا في الزائد على الضرورة، واستكثروا من الأقوات والملابس، والتأنق فيها وتوسعة البيوت، واختطاط الأمصار للتحضر، ثم تزيد أحوال الرَّفْه والدَّعة فتجيء عوائد الترف البالغة مبالغها في التأنق في علاج القوت واستجادة المطابخ، وانتقاء الملابس الفاخرة في أنواعها من الحرير والديباج وغير ذلك، ومعالاة البيوت والصروح، وإحكام وضعها في تنجيدها، والانتهاء في الصنائع في الخروج من القوة إلى الفعل إلى غاياتها، فيتخذون القصور والمنازل، ويُجْرون فيها المياه ويعالون في صَرْحها، ويبالغون في تنجيدها، ويختلقون في استجادة ما يتخذونه لمعاشهم من ملبوس أو فراش، أو آنية أو ماعون، وهؤلاء هم الحضر، ومعناه الحاضرون أهل الأمصار والبلدان، ومن هؤلاء من ينتحل في معاشه الصنائع ومنهم من ينتحل التجارة. وتكون مكاسبهم أنمى وأرفه من أهل البدو؛ لأن أحوالهم زائدة على الضروري ومعاشهم على نسبة وُجْدهم[112].فقد تبين أن أجيال البدو والحضر طبيعية لا بد منها كما قلنا[113] .

3 – وجود سياسة ينتظم بها أمر العمران:

يرى ابن خلدون أن الاجتماع البشري ضروري، وأنه لا بد لهم في الاجتماع من وازع حاكم يرجعون إليه، وحكمه فيهم: تارة يكون مستندًا إلى شرع منزل من عند الله يوجب انقيادهم إليه إيمانُهم بالثواب والعقاب عليه الذي جاء به مبلِّغُه؛ وتارة إلى سياسة عقلية يوجب انقيادهم إليها ما يتوقعونه من ثواب ذلك الحاكم بعد معرفته بمصالحهم. فالأولى يحصل نفعها في الدنيا والآخرة لعلم الشارع بالمصالح في العاقبة، ولمراعاته نجاة العباد في الآخرة، والثانية إنما يحصل نفعها في الدنيا فقط.

وما تسمعه من السياسة المدنية فليس من هذا الباب، وإنما معناه عند الحكماء ما يجب أن يكون عليه كل واحد من أهل ذلك المجتمع في نفسه وخلقه حتى يستغنوا عن الحكام رأسًا: ويسمون المجتمع الذي يحصل فيه ما يسمى من ذلك "بالمدينة الفاضلة"؛ والقوانين المراعاة في ذلك "بالسياسة المدنية". وليس مرادهم السياسة التي يُحْمل عليها اهل الاجتماع بالمصالح العامة؛ فإن هذه غير تلك. وهذه المدينة الفاضلة عندهم نادرة أو بعيدة الوقوع، وإنما يتكلمون عليها على جهة الفرض والتقدير.

ثم إن السياسة العقلية التي قدمناها تكون على وجهين. أحدهما يراعي فيها المصالح على العموم ومصالح السلطان في استقامة ملكه على الخصوص. وهذه كانت سياسة الفرس وهي على جهة الحكمة. وقد أغنانا الله عنها في الملة ولعهد الخلافة، لأن الأحكام الشرعية مغنية عنها في المصالح العامة والخاصة والآداب، وأحكام الملك مندرجة فيها، الوجه الثاني أن يراعى فيها مصلحة السلطان وكيف يستقيم له الملك مع القهر والاستطالة، وتكون المصالح العامة في هذه تبعًا.

– المرجع السابق، ص : 467،468 112

[113] – انظر:المرجع السابق،ص472،473،476،477،478،479،480.

وهذه السياسة التي يحمل عليها أهل الاجتماع التي لسائر الملوك في العالم من مسلم وكافر، إلا أن ملوك المسلمين يجرون منها على ما تقتضيه الشريعة الإسلامية بحسب جهدهم؛ فقوانينها إذًا مجتمعة من أحكام شرعية، وآداب خلقية، وقوانين في الاجتماع طبيعية، وأشياء من مراعاة الشوكة والعصبية ضرورية، والاقتداء فيها بالشرع أولاً، ثم الحكماء[114] في أدبهم والملوك في سيرهم[115] .

4 – الثروة ودورها في الحضارة والعمران:

المال عند ابن خلدون لا يعتمد على الحظ أو قراءة النجوم، أو وجود مناجم الذهب والفضة؛ يقول ابن خلدون: "اعلم أن كثيرًا من ضعفاء العقول في الأمصار يحرصون على استخراج الأموال من تحت الأرض، ويبتغون الكسب في ذلك، ويعتقدون أن أموال الأمم السالفة مختزنة كلها تحت الأرض مختوم عليها بطلاسم سحرية لا يفض ختامَها ذلك إلا من عثر على علمه، واستحضر ما يحله من البخور والدعاء والقربان"[116] .

وقد أكد ابن خلدون أن الكسب والإنتاج والعمران لا يتحقق إلا بالعمل، فيقول: "فلا بد من الأعمال الإنسانية في كل مكسوب ومتمول؛ لأنه إن كان عملاً بنفسه مثل الصنائع فظاهر، وإن كان مقتنى من الحيوان والنبات والمعدن، فلا بد فيه من العمل الإنساني كما تراه، وإلا لم يحصل ولم يقع به انتفاع"[117].

5 – العدل ودوره في العمران والحضارة:

فقد أكد ابن خلدون على أهمية العدل في قيام الحضارات، ففي عنوان له في المقدمة (الظلم مؤذن بخراب العمران)؛ يقول ابن خلدون: (اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابُها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك، وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب، فإذا كان الاعتداء كثيرًا عامًّا في جميع أبواب المعاش، كان القعود عن الكسب كذلك لذهابه الآمال جملة بدخوله من جميع أبوابها، وإن كان الاعتداء يسيرًا كان الانقباض عن الكسب على نسبته، والعمران ووفوره ونَفَاق أسواقه، إنما هو بالأعمال، وسعي الناس في المصالح والمكاسب، ذاهبين وجائين، فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران، وانتقضت الأحوال وابْذَغَرّ[118] الناس في الآفاق من غير تلك الإيالة في طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها، فخف ساكن القطر، وخلت دياره، وخربت أمصاره، واختل باختلاله حال الدولة والسلطان؛ لما أنها صورة للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورةً)[119].

---

[114] – المرجع السابق، ص724،725.

[115] – انظر: المرجع السابق، ص489–782.

[116] – المرجع السابق، ص838.

[117] – المرجع السابق، ص833.

[118] – ابْذَغَرَّ :ابذعروا تفرقوا وفروا (القاموس) .

[119] – المرجع السابق، ص697،698.

ثم يقول ابن خلدون: (واعلم أن هذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم، وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه، وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشري، وهي الحكمة العامة المراعاة للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة، من حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، فلما كان الظلم كما رأيت مؤذنًا بانقطاع النوع لما أدىٰ إليه من تخريب العمران، كان حكمة الحظر فيه موجودة، فكان تحريمه مهمًا، وأدلته من القرآن والسنة كثيرة، أكثر من أن يأخذها قانون الضبط والحصر)[120].

عوامل انهيار الحضارة والعمران :

أشار ابن خلدون في مقدمته عن أسباب انهيار الحضارات وخراب العمران، ومن هذه الأسباب التي ذكرها ابن خلدون:

1 – تغلب العرب على الأوطان[121]:

وقد أشار ابن خلدون إلىٰ هذا الأمر، وعنون له عنوانًا: (العرب إذا تغلبوا علىٰ أوطان أسرع إليها الخراب)، وقد فسر ذلك بقوله: (والسبب في ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم، فصار لهم خلقًا وجبلة، وكان عندهم ملذوذًا لما فيه من الخروج عن رِبقة الحكم، وعدم الانقياد للسياسة، وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له)[122] .

2 – الاستبداد بالملك وحصول الترف:

وقد بين ذلك ابن خلدون بقوله: "وبيانه من وجوه:

الأول :ما كان المجد مشتركًا بين العصابة، وكان سعيهم له واحدًا، كانت همتهم في التغلب علىٰ الغير والذّبِّ عن الحَوْزَةِ، وإذا انفرد الواحد منهم بالمجد قرع عصبيتهم، وكبح من أعنَّتهم واستأثر بالأموال دونهم، فتكاسلوا عن الغزو، وفشل ريحهم، ورئموا المذلة والاستعباد، ثم رُبِّي الجيل الثاني منهم علىٰ ذلك، يحسبون ما ينالهم من العطاء أجرًا من السلطان لهم علىٰ الحماية والمعونة .

والوجه الثاني :أن طبيعة الملك تقتضي الترف، فتكثر عوائدهم وتزيد نفقاتهم علىٰ أعْطِياتهم، ولا يفي دخلهم بخرجهم؛ فالفقير منهم يَهْلك، والمترف يستغرقُ عطاءه بتَرفِه، ثم يزداد ذلك في أجيالهم المتأخرة إلىٰ أن يقصُر العطاء كله عن الترف وعوائده.

وأيضًا فالترف مفسد للخُلق بما يحصل في النفس من ألوان الشر والسفسفة وعوائدها، فتذهب منهم خلال الخير التي كانت علامة علىٰ الملك ودليلاً عليه، ويتصفون بما يناقضها من خلال الشر، فتكون علامة علىٰ الإدبار، والانقراض بما

---

[120] – المرجع السابق، ص699،700.

[121] – يستخدم ابن خلدون في معظم فصول المقدمة كلم(العرب) بمعنى الأعراب أو سكان البادية الذين يعيشون خارج المدن ويشتغلون بمهنة الرعي، وخاصة رعي الإبل، ويتخذون الخيام مساكن لهم، ويظعنون من مكان إلى آخر حسب مقتضيات حياتهم وحاجات أنعامهم التي يتوقف معاشهم عليها؛ وهم المقابلون لأهل الحضر وسكان الأمصار. كما تدل على ذلك الحقائق نفسها التي عرضها ابن خلدون في الفصول التي وردت فيها هذه الكلمة (تعليق رقم 359) للدكتور/ على عبدالواحد وافي، مقدمة ابن خلدون، ص469.

[122] – المرجع السابق، ص508،509.

جعل الله من ذلك في خليقته، وتأخذ الدولة مبادئ العطب، وتتضعضع أحوالها وتنزل بها أمراض مزمنة من الهرم إلى أن يقضي عليها.

والوجه الثالث :أن طبيعة الملك تقتضي الدعة، وإذا اتخذوا الدعة والراحة مألفًا وخُلُقًا، صار ذلك طبيعة وجِبلة، فتربَّى أجيالهم الحادثة في غضارة[123] العيش ومهاد الترف والدعة، وينقلب خلق التوحش، وينسون عوائد البداوة التي كان بها الملك؛ من شدة البأس، وتعود الافتراس، وركوب البيداء، وهداية القفر، فلا يفرَّق بينهم وبين السُّوقة من الحضر إلا في الثقافة والشارة، فتضعف حمايتهم، ويذهب بأسهم، وتنخضد شوكتهم، ويعود وبال ذلك على الدولة بما تلبس به من ثياب الهرم[124]...

3 – الظلم مؤذن بخراب العمران:

(ومن أشد الظلمات وأعظمها في إفساد العمران تكليف الأعمال وتسخير الرعايا بغير حق، فإذا كلفوا العمل في غير شأنهم واتُّخذوا سُخْرِيًّا في معاشهم، بطَل كسبهم واغتُصبوا قيمة عملهم ذلك، وهو مُتموَّلهم، فدخل عليهم الضرر، وذهب لهم حظ كبير من معاشهم، بل هو معاشهم بالجملة، وإن تكرر ذلك أفسد آمالهم في العمارة، وقعدوا عن السعي فيها جملةً، فأدى ذلك إلى انتقاص العمران وتخريبه)[125].

(وأعظم من ذلك في الظلم وإفساد العمران والدولة التسلط على أموال الناس، بشراء ما في أيديهم بأبخس الأثمان، ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان على وجه الغصب والإكراه في الشراء والبيع، وربما تُفرض عليهم تلك الأثمان على التراخي والتأجيل، فيتعلَّلون في تلك الخسارة التي تلحقهم بما تحدثهم المطابع من جبر ذلك بحوالة الأسواق في تلك البضائع التي فرضت بالغلاء إلى بيعها بأبخس الأثمان، وتعود خسارة ما بين الصفقتين على رؤوس أموالهم)[126] .

4 – الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره ومؤذنة بفساده:

(الملك والدولة غاية العصبية، والحضارة غاية للبداوة، وأن العمران كله من بداوة وحضارة وملك وسوقة له عمر محسوس، كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكونات عمرًا محسوسًا، وتبين في العقول والنقول أن الأربعين للإنسان غاية في تزايد قواه ونموها، وأنه إذا بلغ سن الأربعين وقفت الطبيعة عن أثر النشوء والنمو برهة، ثم تأخذ بعد ذلك في الانحطاط، فلتعلم أن الحضارة في العمران أيضًا كذلك؛ لأنه غاية لا مزيد وراءها، وذلك أن الترف والنعمة إذا حصلا لأهل العمران دعاهم بطبعه إلى مذاهب الحضارة والتخلق بعوائدها.

والحضارة كما علمت هي التفنن في الترف واستجادة أحواله، والكَلَف[127] بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه من الصنائع المهيَّئة للمطابخ أو الملابس، أو المباني أو الفرش، أو الآنية ولسائر أحوال المنزل، وللتأنق في كل واحدة من

---

[123] – الغضارة :النعمة والسعة والخصب (القاموس).

[124] – المرجع السابق، ص533،534،535.

125 – المرجع السابق، ص701.

[126] – المرجع السابق، ص701.

127 – كَلِفْتُ به كَلَفًا فأنا كَلِف، أحببته وأولعت به (المصباح).

هذه صنائع كثيرة لا يحتاج إليها عند البداوة، وعدم التأنق فيها، وإذا بلغ التأنق في هذه الأحوال المنزلية الغاية تبعه طاعة الشهوات، فتتلون النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة لا يستقيم حالها معها في دينها ولا دنياها، أما دينها فلاستحكام صبغة العوائد التي يعسر نزعها، وأما دنياها فلكثرة الحاجات والمؤونات التي تطالب بها العوائد ويعجِز الكسب عن الوفاء بها)[128] .

هذه هي نظرية "ابن خلدون" في قيام الحضارات وسقوطها، ولا شك أنه تحليل مهم قد سبق به علماء الاجتماع في العالم أجمع، ولا شك أن "ابن خلدون" نظر فيه نظرة شمولية، غير قائمة على الجزئية في النظر، لكنه وصف للظاهرة من كل جوانبها، فاستحق بذلك أن يكون عالم الاجتماع الأول في تاريخ الإنسانية.

نتائج البحث: نستطيع أن نلخص أهم النتائج في الآتي:

1 – الحضارة عن ابن خلدون عكس البداوة، وهي غاية العمران، وتؤذن بخرابه، وتحمل بذور فساده .

2–تعاقب البداوة والحضارة عند ابن خلدون، فطور البداوة هو طور الخشونة والبأس والغلبة والاكتفاء بالضروري والفضائل، أما طور الحضارة، فإسراف وترف وسكون ودعة ومفاسد.

3 – للدول أعمار كما للأشخاص أعمار، لا تتعدى مائة وعشرين عامًا، وتمر بثلاثة أجيال: الخشونة والبسالة في المجد، والترف والانكسار وضعف العصبية، والترف والعجز عن المدافعة وانقراض الدولة.

4 – لقيام الحضارة وانهيارها أسباب متداخلة سياسية واجتماعية وأخلاقية واقتصادية.

عوامل قيام الحضارات في الرؤية الغربية :

فسرت الرؤية الغربية قيام الحضارات بسبب عاملين فقط وهما الطبيعة والإنسان، وكان نتيجة تركيز نظرتها في قيام الحضارات على الذات الإنسانية والطبيعة أن يُعتبر الجنس أو العرق العامل الأساسي في نشوء الحضارة، واختصت بذلك الجنس الأبيض لما يتمتع به من خواص أهلته لصنع الحضارة.

أما دخول الطبيعة كعامل مهم في نشأة الحضارة فيكمن في نشوء صراع بين الطبيعة والإنسان ليتحدى الإنسان نفسه وتتفجر طاقاته ليبني حضارة مزدهرة، إلّا أن هذا الصراع أدى مع مرور الأيام إلى إحداث الفساد في العمران، والجدير بالذكر أن فكرة الصراع بين الإنسان والطبيعة من حوله هي فكرة غربية بحتة تبدو للوهلة الأولى منطقية إلّا أنه عند التوغل فيها نجد أنها فكرة مدحوضة حيث إن الطبيعة وُجدت لخدمة الإنسان وعليه فإن فكرة الصراع بينهما مرفوضة، فالعلاقة بينهما علاقة تكامل وانسجام.

فالحضارة قد تأسست منذ البداية على فكرة الصراع دون وجودٍ للقيم الأخلاقية، مما أدى إلى ظهور العديد من المشكلات مثل استنفاذ الموارد ومصادر الطاقة المخزونة، بالإضافة إلى تراكم النفايات بشكل كبير واستخدام أسلحة الدمار الشامل التي أدت إلى إهلاك النسل، وكل تلك الأمور سببها السلوك الإنساني الفاسد.

وقد تم استبعاد البعد الغيبي في عوامل قيام الحضارة في الرؤية الغربية، حيث تعاملت مع عالم الشهادة، واقتصر علمها على المفاهيم الوضعية التي تقوم على الصراع.

وقد سعت الحضارة الغربية إلى تحقيق المنفعة للإنسان وإشباع غرائزه مع إهمال الجانب الروحي، الأمر الذي أدى إلى التهديد بالخطر، ولم يرى الغرب أن مقياس تفوّق الحضارات لا يكون في حجم إنتاجها فقط وإنما

---

[128] – المرجع السابق، ص817،818.

في أخلاقية الجماعات المتحضرة في المجتمع وخدمتها للإنسانية، حيث انحصرت وجهة النظر الغربية في عرقٍ معيّن أو نطاق دولة معينة، أو طبقة ما.

والجدير بالذكر أن انفصال الحضارة عن الدين في المجتمع الغربي أدى بها إلى الانحلال، والذي أدى بدوره إلى مشكلات عديدة أهمها انهيار الأسرة، وتفككها، وانتشار المخدرات، وغيرها من مشاكل المجتمعات الغربية.

عوامل قيام الحضارات في الرؤية الإسلامية :

لقد استخلف الله الإنسان في الأرض للقيام بدوره الحضاري فيها، ويمكن القول إن تقدم المجتمع وتخلفه يرجع للإنسان نفسه، وقد أكد القرآن الكريم هذا الأمر عندما بيّن أن أي تغيير في العالم يبدأ من تغيير الناس لما في أنفسهم، إذاً فإن قيام الحضارة وسقوطها يعود إلى الموقف البشري نفسه، والإرادة الإنسانية وليس إلى الطبيعة أو المادة.

كما أن بقاء الأمة وحضارتها مرتبط بصلاح نفوسها وفسادها سواء داخلياً أو خارجياً، أما التغيير الداخلي للنفس فيحدث من خلال الإيمان والذي يعمل على تنشئة الأفراد على الصدق، والأمانة، والإخلاص، ومحاسبة النفس وضبطها، كما يؤهلهم إلى مجتمع مزدهر، ويعد الإيمان الأساس الذي تقوم عليه الحضارة لما يحدثه من آثار في حياة الإنسان، ويبين الإيمان حقيقة الوجود ويرسم غاية الحياة، وحقيقة التوحيد التي تمثل جوهر العقيدة التي يتم بناء الحضارة على أساسها.

ويشكّل الإيمان الوعي الجماعي للمجتمع الذي تقوم عليه الحضارة فلكل دائرةٍ حضاريةٍ نظرياتها المعرفية المحددة لخصائصها الجوهرية والتي تمنحها الهوية الثقافية والاجتماعية المتميزة.

كما أن الإيمان يبدأ بعملية إصلاح القلب والذي يتبعه صلاح في الأعمال، وبالتالي الانعكاس على قيام الحضارة المادية، ويقوم الإيمان على الوسطية في مبادئه والتي تعد سيرة المسلمين التي بنوا عليها حياتهم القائمة على العدل الذي يعد منطلقاً للتغيير، والتعمير، والاستثمار.

ويمكن القول إن الوسطية قاعدة أساسية من قواعد التحضر الإسلامي في مختلف الجوانب الفكرية، والسلوكية، والتعميرية، وبما أن الإيمان يعني المعرفة والتصديق والعمل فإن ذلك يعني تكامل العلم والعمل معاً، مما يتيح للفرد أن يتطور ويحقق العمران في الأرض، وبالتالي البعد عن الفساد والإفساد فيها، وهذا يعني تحقيق الهدف من استخلافه .

إن الإيمان بالله وتوحيده هو المرجع والمبدأ الذي تنبثق عنه كافة المفاهيم والقيم التي تمنح الحضارة الإسلامية هويتها كما ويربط جميع مكوّناتها لتصبح كياناً متكاملاً، وقد ارتبطت علاقة التوحيد بجميع مظاهر الحضارة، حتى إن المسلمين قد اتخذوا التوحيد عنواناً لجميع أبحاثهم وأدرجوا الموضوعات الأخرى تحت لوائه، ويعتمد مبدأ التوحيد على الوحدة وليس التنويع لذلك نجد أن الحضارة الإسلامية لا تؤمن بوجود إلهين .

أما مسؤولية الإنسان عن تصرفاته فتسمى بالتكليف، وفي التصور القرآني فإن كل شخص يمتلك حرية التصرف وهو مسؤول عن أعماله، وعليه يجب على الإنسان أن يغير ما بنفسه من سوء وأن يتحمل المسؤولية لإحداث التحضر المطلوب، ويتم ذلك من خلال تثبيت العقيدة الصحيحة في النفس.

والجدير بالذكر أن الإيمان يمنح الإنسان القوة التي تجعله يتحلى بالأخلاق الحميدة والتي تحرضه بدورها على الرقي والتقدم في الدنيا، كما يمكن القول أن الإيمان عامل حضاري يوجه إرادة الجماعات نحو المسار الصحيح ليزيدها عطاءً وقوة، ويجعلها تبدع أكثر .

عوامل قيام الحضارة :

أولا: (العقيدة) : فلا حضارة دون عقيدة تدفعها وتغذيها. ويقدم القرآن الكريم نظاماً متكاملاً للحياة الإنسانية: سياسيًّا، واقتصاديًّا، واجتماعيًّا، فالتوجيهات القرآنية ما وُضعت إلا للارتقاء بروح الإنسان، وصياغة مجتمع العدالة والمساواة.

ثانيا : (الإنسان) : فعناية القرآن بالإنسان وتأهله ليكون صانع الحضارة تمتد إلى آفاق رحبة متسعة؛ إذ حرص كتاب الله على أن يعرّف الإنسان أن جميع البشر متساوون، بغض النظر عن اللون، أو الجنس، أو العقيدة، فالجميع سواسية أمام قانون إلهي رحيم أساسه العدل؛ والقرآن حرص على تأسيس إنسان متوازن الشخصية، سويّ النفس، لا يطغيه الغنى، ولا ينسيه الفقر، لا يستخفه النصر، ولا تسحقه الهزيمة، لا تبطره النعمة، ولا تزلزله المصيبة، مطمئن القلب، راضي النفس، متفائل الروح، لا ييأس، وإن سُدت في وجهه الأبواب، وأُغلقت أمامه السبل، وتقطعت دونه الأسباب، موقن بأن مع العسر يسراً، وأن بعد الليل فجراً، وبعد الضيق فرجاً، وبأنه **(لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون)** يوسف:87) **(ولا يقنط من رحمة ربه إلا الضالون)** الحجر:56 .

ثالثا : (العلم) وقد اتسم النهج القرآني في دعوته المؤمنين إلى الأخذ بأسباب العلم بالشمولية والعلو فوق المتغيرات النسبية؛ ليناسب كل زمان ومكان، ومن هنا تتميز آياته بتوجهين:

الأول: دعوة الإنسان إلى تبصر آيات الله في الكون والنظر فيها، بل النظر في نفسه.

والثاني: الإشارة إلى حقائق علمية. ويشدد المؤلف على أن العلم الذي يدعو إليه كتاب الله هو العلم النافع المفيد للبشرية، لا العلم الذي يعمل على إفنائها باختراع أسلحة الهلاك، ويستطرد: (صحيح أن القرآن الكريم دعا المؤمنين إلى الأخذ بأسباب القوة، لكنه في الوقت نفسه حذرهم من استغلال هذه القوة في البطش بالآخرين).

ويكشف المؤلف أهمية العوامل الاقتصادية في قيام الحضارات، لافتاً النظر إلى أنه لا يمكن قيام حضارة دون توافر مقومات مادية تُعين على قيامها، وتنظيم تشريعي يحول دون اكتنازها لصالح قلة أو فئة، وحرمان القاسم الأعظم من البشر من الاستفادة من خبراتها، ومن هذه المقومات يحدثنا القرآن عن الأرض وما تحفل به من خيرات.

ويرى المؤلف أن أول ملمح في نهج القرآن للنظم السياسية والإدارية، تنظيمه لأمر الولاية، انطلاقاً من اعتبارها مسؤولية عظيمة، لا ينبغي أن يتصدى لها إلا القادر على أعبائها، فالولاية ليست تشريفاً، وإنما عبء وتكليف، وهي تتحقق بمبايعة سائر المسلمين **لولي الأمر مباشرة**، أو بتوكيل آخرين ليبايعوا عن من لا تمكّنه ظروفه من الحضور والمبايعة. والولاية – بحسب النهج القرآني– تعد نظاماً سياسيًّا راقياً، يحقق للمجتمع العدالة والمساواة والاستقرار.

رابعا : حضارة تعارف لا حضارة تصادم :يدعو القرآن الكريم إلى مبدأ تعارف الحضارات لا تصادمها، ففي أكثر من آية وموضع يؤكد لنا القرآن الكريم مبدأ الوحدة الإنسانية في المنشأ والميلاد، داعياً إلى إقامة جسور من التعارف والتعاون بين البشر باعتبارهم جميعاً جاءوا من أب واحد، وأم واحدة؛ وتعارف الحضارات يؤدي إلى تآلفها وتعاونها، ويفضي إلى الوئام،

ويثري الفكر الإنساني، ويلبي حاجات البشر المختلفة؛ وذلك على عكس العولمة التي تعني فناء خصوصية الحضارات داخل حضارة واحدة معينة.

وقد اهتم المنهج القرآني اهتماماً كبيراً برسم ملامح أساسية للمجتمع المسلم، تساعده على الاستقرار وبناء كيانه الحضاري، الذي تتوافر له المبادئ والقيم القرآنية الخالدة مثل: التوازن، والحركية، والتطور بوجوهه المختلفة، بما يلبي مطالب الإنسان الحياتية، ويزكي نزعته، التي ترفض تصنيف الإنسان على أساس عرقي، أو طبقي، أو مذهبي، وتساوي بين البشر في الحقوق والواجبات، فلا يتميز أحدهم على الآخر إلا بتقوى الله، وقد أولى القرآن الكريم للأسرة جل اهتمامه؛ لأنها خلية المجتمع الأولى، وأطَّر علاقاتها على أساس توازن دقيق، من خلال رابطة الزواج، التي هي أسمى ألوان ارتباط البشر، فقد وصفها القرآن بـ (الميثاق الغليظ) قال تعالى:(**وأخذن منكم ميثاقا غليظا**) النساء:22.

عوامل انهيار الحضارة :

فالانهيار لا يأتي من الخارج غالباً، لكنه يجئ من داخل الحضارة نفسها. ووَفْقًا للمؤلف، فإن كل التجارب الحضارية تؤكد عبر تطورها أن ثمة درجتين للانحطاط والسقوط:

الأولى: الانقلاب النفسي والذهني إلى الأدنى.

والثانية: هي درجة الانقلاب العلمي والخلقي بناءً على الانقلاب الذهني والنفسي المتدني.

فالتغيير الداخلي فكريًّا ونفسيًّا، هو المرحلة الأولى في أي سقوط، كما إن فساد الفكر والنفس هو البيئة التي تنمو فيها جراثيم الانحطاط الأخلاقي، وفساد الفكر يؤدي إلى فساد العقيدة.

الفرع السادس : النظام السياسي (الخلافة ، الحجابة، الوزارة، الولاة)

تمهيد :

لم يلزم الإسلام المسلمين بإطار سياسي محدد؛ فهو دين جاء لكل زمان ومكان، فلذلك قام منهجه على وضع الضوابط والشروط لكل النظم سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية(مع ترك أسلوب التطبيق وآلياته للظروف، مع الالتزام بالنية الصحيحة والغاية الكريمة، والوسائل الكريمة.

والركنان الأساسيان في النظام السياسي الإسلامى هما: العدل والشورى؛ فبأية وسيلة تحقق العدل والشورى كان ذلك هو النظام السياسي الإسلامي، مع الالتزام بالضوابط الإسلامية.

وقد عرف الصحابة من أسلوب الرسول صلى الله عليه وسلم في الحكم والقيادة والمعالم الأخلاقية والسياسية – الأسس التي قاد بها الأمة، وتدار بها الأمور، ويتعامل بها مع غير المسلمين في السلم والحرب.

أما قيام الرسول الذي أرسله الله رحمة للعالمين: " **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** " (الأنبياء : 107) بتطبيق العدل)، – ومع العدل الرحمة أيضا – فهو أمر لا يحتاج إلى بيان أو استدعاء لوقائع السيرة...فمن يعدل إذا لم يعدل الرسول؟ ومن يرحم إذا لم يرحم عليه الصلاة والسلام؟

وآيات القرآن التي تحث على العدل في الرضا والغضب، والحب والكره كثيرة معروفة (**إِنَّ اللهَّ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ**) النحل: 90، (**وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ**) النساء: 50،(**وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَآنُ قَوْمٍ**) المائدة: 8، وقد سار الراشدون والحكام الصالحون في الدول الإسلامية المختلفة على نهج خاتم الأنبياء، عليه السلام.

وتعد (السلطة القضائية) هي المسئولة عن تحقيق العدل، وهي تضيق وتتسع حسب كثرة الأقضية وتعدد الأقاليم.

وأما قيام الرسول صلى الله عليه وسلم بتطبيق (الشورى) تنفيذا لأمر الله : (**وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**) آل عمران: 109. فهو أمر تجلى في كثير من المواقف السلمية والحربية...ففي الحربية شاور في (بدر) وخضع المسلمون لرأى (**الحباب بن المنذر**) في تحديد مكان إقامة الجيش، وفي (**أحد**) خضع للشورى، وفي الخندق استجاب لرأى سلمان الفارسيه في حفر الخندق، وفى صلح الحديبية كان رأي (**أم سلمة**) هو الطريق لجمع الكلمة... وهكذا.

أما في السلم فقد كان للرسول (مجلس شورى)؛ ذلك لأن النبي كان شديد الحرص على مشورة أصحابه، لا للاهتداء برأيهم؛ فله من رأيه المستمد من الوحي ما يغنيه عنهم، ولكنه يريد أن يدربهم ويعلمهم فضل الشورى، وكان الرجال الذين يتألف منهم مجلس شورى الرسول أحد عشر صحابيا وهم: حمزة بن عبد المطلب، جعفر بن أبي طالب، أبو بكر الصديق، عمر بن الخطاب، على بن ابى طالب، عبد الله بن مسعود، عمار بن ياسر، حذيفة بن اليمان، أبو ذر الغفاري، المقداد بن عمرو، بلال بن رباح، وقد توفي فريق منهم قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وكان للرسول (**أمراء وعمال**) يرسلهم إلى البلاد التي آمنت برسالته لتنفيذ سياسته في العدل وتحقيق الأمن[129].

---

[129]– منير العجلاني: عبقرية الإسلام في أصول الحكم، دار النفائس، بيروت، ط2/ 1409هـ– 1988م، ص42.

وكان للرسول عمال على الصدقات، فقد ورد في سيرة (ابن هشام)، أن رسول الله قد (بعث أمراءه وعماله على الصدقات إلى كل ما وطأ الإسلام من البلدان، فبعث المهاجر ابن أبي أمية إلى صنعاء، وزياد بن لبيد إلى حضرموت، وعدي بن حاتم على طبي وصدقاتها، وعلي بن أسد، ومالك بن نويرة على صدقات بنى حنظلة، وبعث العلاء بن الحضرمي على البحرين، وبعث على بن ابى طالب إلى أهل نجران ليجمع صدقاتهم ويقدم عليه بجزيتهم)[130].

وهكذا – في حدود حاجة الدولة الناشئة – أقام الرسول معالم الدولة الإسلامية... (نظريا) من خلال:

(الدستور) الذي يحكم (المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب، ومن تبعهم ولحق بهم، وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس)... أي يحكم هذا الدستور المسلمين المهاجرين والأنصار، ومن تبعهم من اليهود وغيرهم؛ من الذين يخضعون (للمواطنة) ويقبلون – مع اختلاف دينهم – أن يكونوا أمة واحدة في الدفاع عن المدينة.

ثم من خلال (المسجد) الذي أصبح دار قضاء وحكم ومشاورة وعبادة وملتقى ضيوف الدولة، و(الإخاء) الذي ربط بين الوافدين المهاجرين وإخوانهم الأنصار أصحاب يثرب[131].

كما أقام الرسول الدولة (عمل) من خلال قيامه هو بمهام الحكم وقيادة الجيش والقضاء والتعليم...في المرحلة الأولى، ثم تعيينه بعد ذلك ولاة على الأقاليم، وإقامته المجلس شورى يساعده في السياسة العامة.

فلما لحق الرسول بالرفيق الأعلى جرى في **(سقيفة بني ساعدة)** أسلوب من أروع أساليب الشورى الهادفة، قال فيه الأنصار رأيهم ثم قال المهاجرون رأيهم، وحاول الخزرج من الأنصار الاشتراك في الحكم بطريقة (منا أمير ومنكم أمير) إلا أن الأمر انتهى – بفضل المهاجرين والأوس– إلى أسلوب بعيد عن هذه المساومات، وولي الرجل الأفضل وهو أبو بكر الصديق (وبايعه المهاجرون والأنصار...في السقيفة...ثم في مسجد الرسول في اليوم التالى[132].

ويعلمنا **(اجتماع السقيفة)** الحقائق التالية التي تحدد لنا أسلوب اختبار الحاكم في الإسلام:

أولا: إنه ليس في الأحاديث الصحيحة المروية عن الرسول نص على خلافة رجل بعده؛ ولو وجد هذا النص لما استطاع أحد من المسلمين أن يخالفه.

ثانيا: أن النبي لم يخصص الخلافة في قبيلة، أو أسرة؛ ولو عرف شيء من ذلك، لما أحجم أحد المجتمعين عن إعلانه.

ثالثا: أن المسلمين كانوا مجمعين على ضرورة الخلافة.

رابعا: أن المسلمين نظروا في قضية الخلافة إلى المصلحة العامة.

خامسا: أن المسلمين – في اجتماعهم الأول – عرفو القريش – عشيرة الرسول – فضلها، وأن العرب لا تنقاد إلا إليها، فقبلوا أن تكون الخلافة فيها، اعتمادا على حديث "الأئمة من قريش"

سادسا: أن المسلمين خافوا على أنفسهم التفرقة، فأجمعوا على أن يكون لهم خليفة واحد، يكون رمزا لوحدتهم.

---

[130] – المرجع السابق، ص9643.

[131] – ابن هشام: السيرة النبوية 2/ 152 نشر مصطفى السقا والإبياري، القاهرة، 1936.

[132] – محمد حميد الله: الوثائق السياسية في عهد النبي والخلافة الراشدة، القاهرة، 1941، ص2.

سابعا: أن المسلمين أدركوا أن بقاء منصب الرئاسة شاغرا مدة طويلة فيه تعطيل لمصالح المسلمين وتهيئة للفتنة.

ثامنا: تدلنا الأحاديث التي دارت بين الصحابة على أنهم إنما بايعوا أبا بكر لسابقته في الإسلام وفضله وسنه، وكان للسن شأنها الكبير !!

تاسعا: أن البيعة أخذت له من الحاضرين في المدينة لأن فيها جل الصحابة، أصحاب الرأي[133].

وفي ضوء القواعد الكلية لنظام الحكم في الإسلام، وفقه المسلمين بالمقاصد الشرعية التي ترتبط بها السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية؛ أبدع المسلمون نظمهم في الحكم والإدارة ؛ مستفيدين من تجارب الآخرين، في ضوء ثوابتهم التي وردت في الكتاب والسنة.

وكان نظام الخلافة – والوظائف المساعدة لها– خير ترجمة للسياسة الشرعية، وخير ضامن لإصلاح الراعي والرعية؛ يوم كان الخلفاء قادرين على القيام بمهامه، وكان الناس أهلا لمثل هذا النظام الجامع بين خيري الدنيا والآخرة.

أولا: الخلافة :

اختير أبو بكر الصديق خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصبح اللقب الذي يعرف به هو (خليفة رسول الله) واختصارا: (الخليفة) ويقصد بهذا المصطلح لغة: من قام مقامه، وبقي بعده، فهو خليفته ، وجمعه (خلائف وخلفاء)، أما في الاصطلاح فالخليفة : السلطان الأعظم، وهو منصب رئاسة الدولة الإسلامية، وكما يقول الماوردى: هي (خلافة عن النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا) فالخليفة لقب إسلامي يجمع صاحبه الصفتين : الدينية والسياسية، وهو أمام شريعة الله مثل كل الناس؛ فهو خاضع لها، ورأيه الاجتهادى مثل رأى غيره، لكنه الإمام في الصلاة، والأمير في الجهاد، والرئيس في الإدارة والقضاء، وصاحب الولاية العامة.

ومع أن الخليفة أول العابدين – أو هكذا ينبغي أن يكون – وأول الخاضعين لشريعة الله، إلا أنه يجمع تحت رئاسته السلطات الثلاث:

التشريعية (من خلال الشورى)، والتنفيذية (أجهزة الحكومة الشرطة والجيش والحسبة...)، والقضائية، لكنه – مع ذلك – مجرد مؤتمن على تطبيق شرع الله، وليس ملك ولا دكتاتور ولا رئيس جمهورية؛ فالخلافة في الحقيقة، نظام متفرد قوامه (سياسة الدنيا بالدين وحراسة الدين)[134].

وكل الطوائف والفرق الإسلامية مجمعة على وجوب الخلافة) ومافقد الدين من يحرسه، وما فقدت الرعية الاعتدال والاحتكام إلى شريعة الله ، إلا يوم زالت عنها (حقيقة) الخلافة؛ فضعف الخلفاء، وتركوا الأمور لغيرهم كما تركها خلفاء العباسيين طورا للبويهيين الشيعة، وطورا للسلاجقة السنة، ثم أزيلت الخلافة العثمانية بعد ذلك وهي آخر خلافة على يد (مصطفى كمال أتاتورك) أحد يهود الدولة، وذلك سنة 1924م، ومعروف كيف فرض الإلحاد والانحلال بعد سقوط

---

[133]– منير العجلاني: مرجع السابق، ص60، 61.

[134]– محمد حميد الله: مرجع السابق، ص7.

الخلافة في أرض الخلافة العثمانية.- ولئن كانت (الخلافة واجبة) فقد اختلف في مصدر وجوبها: هل هو الشرع أو العقل؟ فقال بعضهم: وجبت بالعقل؛ لأنه لا بد من رئيس يحمل الناس على الدين والاستقامة.

والراجح أنها واجبة بالشرع (وإن كان العقل يوجبها أيضا)، لأننا وجدنا صحابة رسول الله سارعوا – حتى قبل دفن الرسول صلى الله عليه وسلم – إلى بيعة أبي بكر، وتسليم النظر إليه في أمورهم، وكذا في كل عصر من بعد ذلك، ولم يترك الناس فوضى في عصر من الأعصار، واستقر ذلك إجماعا دالا على وجوب نصب الإمام.

ويقول محمد رشيد رضا: إن وجوب الخلافة ثابت لا بمجرد الإجماع وما في ذلك جلب المنافع ودرء المخاطر، فهناك أحاديث صحيحة تدعو إلى الإمامة، كقوله» :تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، وقوله صلى الله عليه وسلم :"من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية"[135].

ولكي نفهم طبيعة نظام الخلافة – بعيدا عن تشويهات أعداء الإسلام له – نقول: إننا ملزمون بالتفريق بين الخلفاء الراشدين، وبين الذين جاءوا بعدهم، فالخلفاء الراشدون – ومن قلدهم من الأمويين والعباسيين – كانوا بعيدين تماما عن نفسية الملوك، وكانوا يتحرون في أعمالهم كلها رضا الله ورضا المسلمين، وريا كانت الخلافة – في نظر بعضهم – انقطاعا الخدمة الناس، وفراقا لكل راحة، وزهدا في كل رغبة، وقتلا لكل كبرياء، وبدء عهد جديد صعب شديد في حياتهم؛ قال أحدهم: رأيت عمر بن عبد العزيز، وكان من أخيل الناس في مشيته ، فلما ولي الخلافة، رأيته يمشي مشية الرهبان.

كان الخلفاء وكلاء عن الأمة في خدمتها وخدمة دينها، فما كانوا يستبدون بشيء من أمورها، وإنما كانوا يحيطون أنفسهم بأصحاب الرأي يستشيرونهم قبل العمل، وما أخطأ من قال : إن المساجد في صدر الإسلام كانت كالمجالس النيابية في هذا الزمان؛ تنظر فيها قضايا الأمة، وتلتمس لها الحلول باتفاق تام بين الخليفة والرعية. لم يعرف الخلفاء الراشدون المجالس النيابية ولكنهم كانوا يرجعون إلى مجالس أخرى – لعلها أفضل – ملاكها أصحاب السابقة والرأي، الذين دلت على مكانتهم أعمالهم وعقولهم [136].

– وتدلنا على سياسة الخلفاء هذه الخطب التي يستفتحون بها إمارتهم...

– لما بويع لأبي بكر بالخلافة، صعد المنبر وقال :

(أما بعد، فإني وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، القوى فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم)

وخطب عمر الناس فقال:

(إني والله ما أنا عملك فأستعبدكم، وإما أنا عبد الله عرض على الأمانة، فإن أبيتها ورددتها عليكم واتبعتكم حتى نشبعوا في بيوتكم وترو واسعدت، وإن حملتها واستبعتكم إلى بيتي شقيت؛ ففرحت قليلا، وحزنت طويلا...).

---

[135]– منير العجلاني: المرجع السابق، ص65.

[136]– منير العجلاني: مرجع السابق، ص112، 113.

ويلخص الماوردي واجبات الخليفة او (سلطاته) في أشياء هي:

حفظ الدين على الأصول التي أجمع عليها سلف الأمة، وتنفيذ الأحكام بين المتشاجرين، وقطع الخصام بينهم، وحماية البيضة، والذب عن الحوزة، وإقامة الحدود، لتصان محارم الله – تعالى- عن الانتهاك وتحفظ حقوق عباده، وتحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة، وجهاد من عاند الإسلام بعد الدعوة، وجباية الفيء والصدقات، على ما أوجبه الشرع نصا واجتهادا من غير عسف، وتقدير العطاء، وما يستحق في بيت المال من غير سرف ولا تقصير فيه، واستكفاء الأمناء، وتقليد النصحاء فيما يفوضه إليهم من الأعمال، وأن يباشر بنفسه الأمور والأحوال، ليهتم بسياسة الأمة وحراسة الملة، ولا يعول على التفويض تشاغلا بلذة أو عبادة؛ فقد يخون الأمين ويغش الناصح[137].

وقد اشترط الفقهاء في الخليفة أربعة شروط هو :(العدالة، والعلم، والكفاية، وسلامة الحواس) ، واشترط بعضهم أن يكون من (قريش) إن وجد وتوافرت فيه الشروط.

وفي العصور التالية للراشدين، أموية وعباسية، عرفت للخليفة علامات وشارات، كما تبعنه مباشرة الإدارات الدينية الأساسية وهي: الإمامة في (الصلاة) و (الفتيا) و(الحسبة) و(القضاء).

أما العلامات التي أصبحت من لوازمه، فهي: (البردة، والخاتم، والقضيب؛ وأما الشارات فهي: الخطبة، والسكة، والطراز)[138].

ومع فترات الضعف التي مرت بها الخلافة العباسية، وسيطرة بعض الطوائف على الخلفاء والخلافة؛ إلا أنها كانت رمزا يلتف حوله المسلمون، ويجدون فيه مرجعيتهم، وعندما سقطت سنة 656 هـ في بغداد، ثم سقطت في القاهرة، سنة (950 هـ) شعر المسلمون بفراغ كبير... لكن سرعان ما ظهرت الخلافة العثمانية التي دافعت عن المسلمين أكثر من أربعة قرون، وقامت أوربا بهيئة محاولة لإسقاطها إلى أن نجحت سنة 1924م فأصبح العالم الإسلامي يعيش بلا راع يرعاه، ولا مرجعية واحدة تقوده.

ثانيا : الحجابة:

الحجابة : هي المنع، من حجب إذا منع، والحاجب: هو الشخص الذي من صلاحياته حجب الناس عن الخليفة حتى ولو كانوا وزراء أو أمراء، ما لم تكن هناك تعليمات من الخليفة باستثناء أفراد أو طبقات.

ومن المعروف أن أبواب بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبواب بيوت الراشدين –رضي الله عنهم- كانت مفتوحة أمام كل الناس، فما عليهم إلا أن يطرقوها ليخرج لهم الرسول أو الراشدون، ولربما يلتقون بهم على انفراد في المسجد أو الشارع.

ولكن بعد قيام الخوراج باغتيال الإمام على، ومحاولة اغتيالهم لعمرو بن العاص، ومعاوية (رضي الله عن الجميع) ظهرت وظيفة (الحاجب) في الدولة الأموية.

---

[137]– محمد حميد الله: مرجع السابق، ص 17، 18.

[138]– ابن خلدون: المقدمة، المكتبة التجارية، مصر، 1948، ص210، 242، 261، حسن الباشا: دراسات في الحضارة الإسلامية، ص234.

وقد نقل الأمويون أسلوب الحجابة من المشرق إلى الأندلس عندما سقطت دولتهم في المشرق سنة 132 هـ، وأسسوا دولة لهم في الأندلس (138- 422 هـ) بقيادة عبد الرحمن الداخل (صقر قريش).

وفي أول الأمر كان الحاجب في الدولة الأموية بالأندلس يقوم بالوساطة بين الخليفة ووزرائه، ثم أخذت سلطة الحاجب في الاتساع حتى أصبح أرفع الوزراء شأنا، وصار يسمي بذي الوزارتين، وصار يشرف على الشئون المدنية والعسكرية، ثم زاد نفوذه حتى استبد بالأمر وسيطر على الخليفة، وبذلك صارت إليه أمور الدولة في أواخر الخلافة الأموية بالأندلس.

ولما ولى الحجابة المنصور بن أبي عامر (الحاجب) أمور الأندلس؛ حجر على الخليفة الأموي الطفل المؤيد هشام الثاني (366- 399هـ/ 978- 1009م)، واتخذ الزاهرة عاصمة جديدة بناها بدلا من الزهراء، وسيطر حتى على أم الخليفة (صبح) التي كانت تحاول إنقاذ ابنها من هيمنة الحاجب المنصور، ومن الغريب أن المنصور ظل محتفظا بلقب (الحاجب) رغم استبداده بالسلطة، كما خلفه أبناؤه الذين احتفظوا بلقب (الحاجب) إلى أن سقطت الدولة العامرية سنة (399هـ، 1008م) بعد أن سيطرت – ظلما – على الدولة الأموية والأندلس أكثر من ثلاثة عقود.

واحتفظ ملوك الطوائف بالأندلس بلقب الحاجب رغم تلقبهم بألقاب الخلافة، وصار لقب الحاجب في عصرهم يعني الحاكم الشرعي والملك والخليفة أي صاحب السلطان الأول في الدولة[139].

وفي الدولة العباسية استمرت وظيفة الحجابة وزادت أهميتها وسلطتها تدريجيا، وبدأ الخلفاء العباسيون باتخاذ (حجاب) اقتصر سلطانهم في أول الأمر على حفظ باب الخليفة واستئذان الداخلين عليه، ثم قوى سلطان الحاجب فصار يمنع الناس عن مقابلة الخليفة إلا في الأمور المهمة: إذ صار بين الناس والخليفة داران: دار الخاصة ودار العامة ؛ يقابل كل فئة في مكان حسب ما يراه الحجاب (وهذا ما يسمى بالحجابة الثانية) ثم تطور الأمر فصار الحجاب يحجرون على الخليفة نفسه، ويمنعون البطانة وسائر الأولياء من مقابلته بحجة المبالغة في الاحترام.

وكان للحجابة في العصر العباسي قوانين ورسوم أوضحها هلال الصابئ في كتابه رسوم دار الخلافة[140].

ثالثا : الوزارة :

بصرف النظر عن الأصل الفارسي – كما يقال – لمصطلح الوزير؛ إلا أن وروده في القرآن يؤصل وجوده العربي، فهو بمعنى: المساعد، ومعنى الملجا (**كَلَّا لَا وَزَرَ**) القيامة: 11 اي لا ملجأ.

وقد ظهرت وظيفة الوزير مبكرة في حضارة الإسلام، فقد ذكر المؤرخون أن عمر بن الخطاب (بعث إلى الكوفة بعمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود، وقال لأهل الكوفة: إني بعثت بعمار بن ياسر أميرا (وعبد الله بن مسعود) معلما ووزيرا.

---

[139]- ينظر حول الحجابة: حسن إبراهيم حسن: النظم الإسلامية، القاهرة، 1931، ص30- 49.

[140]- حسن الباشا: المرجع السابق، ص 52، 54.

وفي عصر بني أمية تلقب بالوزير (زياد بن ابيه) في عصر معاوية بن أبي سفيان، وروح بن زنباع الجذامي في عهد عبد الملك، وربما كانت تسمية الوزير في صدر الإسلام والعصر الأموي مستمدة من الآيات الكريمة :(**وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي**) (طه:29- 32).

غير أن وظيفة الوزير بدأت تتخذ معالمها بشكل رسمي و قانوني - ضمن النظام السياسي الإسلامي - في العصر العباسي؛ إذ صار الخليفة العباسي يستعين في إدارة شئون الدولة وتصريف أمورها والإشراف على دواوينها وإعداد مكاتباتها وتنظيم أموالها بموظف أطلق عليه لقب وزير[141].

والوزارة الإسلامية على نوعين :(وزارة تفويض): وهي تتمتع بسلطات كاملة غير محدودة، وأخرى سلطتها محدودة ثابتة وتسمى :(وزارة التنفيذ)، ويختلف كل وزير عن الآخر في المرتبة والنفوذ والمؤهلات الشخصية التي يجب توافرها في كل منهما.

أما وزير التفويض فهو القائد الأعلى وعقل الخليفة المفكر، وفي يده جميع السلطات في الدولة، ولا يتميز الخليفة عنه سوى في اللقب[142]. وفي سلطات ثلاث أخرى هي من حق الخليفة وهي: أن الوزير لا يستطيع أن يولى نائبا عنه أو خلفا له، كما أنه لا يستطيع أن يعلن للناس استقالته ؛ إذ إنه موظف شخصي لدى الخليفة، كما لا يستطيع الوزير - إلا بإذن خاص- أن يعزل أو ينقل موظفا عينه الخليفة، أما في سائر الأمور الأخرى فلوزير التفويض مطلق الحرية[143].

صفات الوزير وواجباته:

لقد تحدث شهاب الدين أحمد بن محمد بن الربيع فى كتاب (**سلوك المالك في تدبير الممالك**) الذي ألفه للخليفة العباسي المعتصم عن صفات الوزير فشرط فيه أن يكون- : -

- حسن العلم بالأمور الدينية؛ لأن الدين عماد الملك.
- حسن العقل؛ لأن العقل ملاك كل شيء وبه تدبر الأمور.
- شديد الحلم، جميل الصفح، ما لم يضر بالسياسة.
-حلو اللسان، بليغ القلم، ليخاطب الملوك.
-حميد الأخلاق، تام القبول، أديب النفس.
-سهل الحجاب، مبذول الإنصاف، ظاهر البشر.
- معمور القلب بالنصيحة، معتقد الخير والصلاح.
- قليل اللهو، بطيء الغضب، كريم الطبع، كتوم السر، صبورا محتملا.
- صحيح الجسم والرأي، جيد الفكر.

---

[141]- ينظر في الوزارة في الدولة الإسلامية: عبد العزيز الدوري: النظم الإسلامية، ص 159 - 172 (بيت الحكمة جامعة بغداد).

[142]- خودابخش: الحضارة الإسلامية: ترجمة وتعليق: د/ على حسنى الخربوطلي، دار الكتب الحديث؟، ص 126 - 128.

[143]- ينظر في الوزارة في الدولة الإسلامية: ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية، ص 112 طالقاهرة، 1927، الجهشياري: الوزراء والكتاب طبعة مصطفى السقا، القاهرة 1928، ص 96- ص125.

أما عن واجبات الوزير فأهمها :

أن يكون خبيرا بأدب التدبير والسنن والفرائض والأحكام. وأن يكون ذا نصح للملك وأمانة وصدق قول و فعل يعتمد عليه، وأن ينهي إلى الملك كل كلام يخاف عاقبته على المملكة، ليجمع بذلك صدق الملك ونصحه، والخروج في اللائمة عند الحوادث، وأن يدمن النظر في سير الملوك وتدابيرهم وتجاربهم، وأن يجعل نهاره للنظر في أمور العامة، وليله للنظر في أمور الخاصة، وينبغي أن يوكل بنفسه من يرفع أخباره إليه ، فيتصفحها في خلوته ويمضي في الغد ما وافق الصواب ويتلافى ما يمكن تلافيه، وأن يكثر عيونه على الخاصة والعامة حتى يعرف أخلاقهم وأحوالهم، وأن تكون شفقته على الملك كشفقته على نفسه، وعلى الخاصة كحواسه، وعلى العامة كأعضائه، وأن يحسن اختيار من يستعمله في أعمال الملك ولا يسامح أحدا في جنايته[144].

وبصفة إجمالية فإن قوة الوزير وضعفه وحجم سلطاته لا تحددها القوانين بقدر ما تحددها قوة الخليفة وضعفه، وأيضا قوة الوزير وضعفه.

رابعا : الولاة:

الولاة هم حكام الأقاليم، كبيرة كانت أو صغيرة، حسب كفايتهم وثقة الخليفة فيهم، فمعاوية بن أبي سفيان كان واليا لعمر وعثمان – رضي الله عنهما– على الشام، وكان ناجحا في تحقيق أمن الناس وسعادتهم؛ وكان عمرو بن العاص واليا على مصر...وهكذا.

ويشترط في الوالي – مع الإسلام والعدالة – الذكاء والفطنة والأمانة والرحمة بالناس؛ فقد رفض الرسول تولية الأقرع بن حابس – بعد أن استدعاه ليوليه – عندما عرف أنه ليس رحيما بأولاده العشرة، ولم يقبل واحدا منهم، فمن لم يرحم أولاده لن يرحم الناس[145].

والولاة نوعان: النوع الأول ذو السلطات المطلقة في ظل خضوعه ومن معه لشريعة الله، وهذه كانت سائدة في عهد الرسول وأبى بكر وبداية عهد عمر – رضي الله عنهما – فقد كان الولاة في هذه الفترة لا يقومون بشئون الحكم فحسب، بل كانوا يمثلون الخليفة في الشئون الدينية، وإلقاء خطبة الجمعة في المسجد الجامع، ويؤمون المصلين، بحيث يمكن تسميتهم ممثلي أو نائبى الخليفة[146].

ولكن في عهد عمر اتسعت الدولة الإسلامية عبر عدد من البلدان المتباعدة ؛ فظهرت فكرة فصل الشئون الدينية عن الشئون الزمنية، وبدأت حكومة الولاية – في الأقاليم – تنقسم إلى فروع، وهي الولاية التي نسميها (الحكومة ذات السلطات المحدودة)؛ فأصبح هناك إدارة للشئون المالية، وإدارة للقضاء؛ وهي فروع تفرعت كلها عن الحكومة، وكان لكل فرع منها هيئة خاصة من الموظفين، وهنا؛ وبعد انفصال الإدارات الحكومية المختلفة نلاحظ الفرق بين الوالي المحدود السلطة أو المطلق

---

[144]– نقلا عن منير العجلاني: عبقرية الإسلام في أصول الحكم، ص 186، 183.

[145]– ينظر حول الولاة: السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة 1/ 64 القاهرة 1927.

[146]– ينظر حول الولاة في الدولة الإسلامية: حسن إبراهيم حسن: النظم الإسلامية، ص52 – 61.

السلطة؛ فالوالي المطلق السلطة يعينه الخليفة مباشرة، فيقود الجيش ويتولى القضاء ويولي القضاة، ويجمع الضرائب والزكاة، ويقوم بنفقات الحكومة، ويمارس الشئون الدينية ويعاقب المخالفين للشريعة، ويؤم المسلمين في الصلاة ويتولى قيادة الجيش [147].

[147]- خوادا بخش: الحضارة الإسلامية، ص141.

الفرع السابع : النظام الإداري في الحضارة الإسلامية (الدواوين ، الامارة)

أولا :الدواوين في الخلافة الإسلامية :

في المرحلة الأولى خلال العهد النبوى الشريف والعهد الراشدي، لم نكن نسمع إلا عن (بيت المال) وإن كان العهد الراشدى قد حمل بذور إنشاء عدد من الدواوين، لكن العهد الأموي(41- 132هـ) هو العهد الحاسم في إنشاء الدواوين، والتي ظلت تتطور إلى أن نضجت إلى حد كبير خلال العهد العباسي (الأول والثاني) وقد تحددت التخصصات لكل ديوان، وحدد لكل ديوان موظف مسئول بدعى (صاحب الديوان)، وكان لبعض الدواوين فروع في الأقاليم...وقد اشتهر من الدواوين – بعد نضجها والتوسع فيها الدواوين التالية

1-**ديوان بيت المال**:وهو أصل الدواوين، إذ يدون فيه جميع ما يرد إلى بيت المال من عين وغنائم وأعشار.

2-**ديوان النفقات**:ويتولى تدوين ما ينفق أو يخرج من الأموال العامة للإنفاق على الجيش أو غيره.

3-**ديوان الخراج**: وهو يتولى أمور الجباية والحفاظ على حقوق بيت المال في ضريبة الخراج، كما يقوم بتقديم حسابات الضرائب في مختلف الولايات

4-**ديوان الجيش (الجند)**: وفيه تحفظ سجلات بأسماء الجند وأنسابهم ومراتبهم وأرزاقهم وأعطياتهم.

5-**ديوان البريد**:ويتولى نقل الرسائل والأوامر والأخبار بين حاضرة الخلافة والولايات، ويقوم صاحبه بعرض الأخبار التي ترد على الخليفة [148]، ثم يتلقى أوامره للرد عليها[149].

6-**ديوان الرسائل**: ويتولى تحرير كتب الخليفة وأوامره إلى الولاة والقواد وكبار الموظفين، وكتب التقليد والرسائل السياسية.

7-**ديوان التوقيع والدار(أي حوائج الناس التي تقدم إلى الخليفة في داره)**:ومهمة هذا الديوان جمع القصص والرفاع التي ترفع إلى الخليفة، وشرح ما فيها، ورفعها إليه؛ ليقول فيها رأيه.

8-**ديوان المستغلات**:ويتولى صاحبه إدارة ممتلكات الدولة من العقارات والأراضي الزراعية[150].

9-**ديوان الصدقات**: ومهمة هذا الديوان جباية موارد الزكاة وغيرها من الصدقات وتوزيعها على مستحقيها وفق الأحكام الشرعية.

9-**ديوان المصادرة**: كان الخليفة أبو جعفر المنصور قد أحدث هذا الديوان ليتولى تسجيل الأموال المصادرة بأنواعها المختلفة، وأسماء من صودرت منهم، وإدارة ما يتعلق بتلك الأموال.

10-**ديوان الفض**:(أي فتح الرسائل بعد تلقيها وتلخيص محتواها وتوضيحه).وهذا الديوان يقوم بفتح الرسائل فيفضها ويلخص محتواها ليطلع عليها الخليفة ويوقع ما يراه بشأنها.

11-**ديوان المواريث**:وقد أحدث هذا الديوان في عهد المعتمد على الله آخر خلفاء العباسيين، بعد أن فرضت ضريبة المواريث [151].

---

[148]- أحمد عبد الباقي: معالم الحضارة العربية في القرن الثالث الهجرة، بيروت، 1991، ص14- 19.

[149]- عبد الوهاب القرش: العلاقات الحضارية بين المسلمين والبيزنطيين في الشام ومصر في العصر الأموي، ص71، رسالة دكتوراه، كلية دار العلوم، القاهرة 2003.

[150]- المرجع السابق، ص71.

12 – **ديوان الزمام**:وهو يتولى الإشراف على الدواوين الأخرى ومرافقها وتدقيق أعمالها، وبخاصة ما يتعلق بالنواحي المالية منها[152].

وجدير بالذكر أن الدكتور حسن الباشا قد حصر الدواوين في ديوانين ومائة (102)، ويبدو أنها قد خضعت لتخصص أكثر مع اتساع دولة الخلافة، كما أنه بالإمكان أن يكون لكل عدد من الدواوين (ديوان كبير) يضمها...

ومن الدواوين التي أشار إليها، ولم يكن كثير منها في دواوين القرن الثالث الهجرى[153].

1- ديوان الأحباس	11- ديوان الجند
2- ديوان الأحداث والشرطة	12- ديوان الجيش
3- ديوان الأزمة	13- ديوان الخراج
4- ديوان الأسطول	14- ديوان الخلافة
5- ديوان الأشراف	15- ديوان الخمس
6- ديوان الإقطاع	16- ديوان الرسائل
7- ديوان الأهراء	17- ديوان الزمام
8- ديوان البريد	18- ديوان النفقات
9- ديوان الإنشاء	19- ديوان الضياع
10- ديوان التوقيع	20- ديوان الصوافي

ثانيا : الإمارة :

تمهيد :إن الإمارة كانت منصبًا مُلحًّا بعدما اتسعت دولة الإسلام، وتعددت الأقطار، فقد كان الخليفة يُفَوِّض إمارة بلد أو إقليم للوالي أي الأمير على جميع أهله، ويكون لهذه الولاية عقد يتم باختيار الخليفة ورضائه، ومن ثم أصبح كل مَن يتولى أمر بلد أو قطر من الأقطار نيابة عن الخليفة يُلقب ب**الأمير** أو **الوالي**[154] .

أقسام الإمارة أو أنواعها:

تنقسم الإمارة إلى نوعين، وبيان النوعين على النحو[155] الآتي:

أولا : الإمارة العامة: وتسمّى الإمامة الكبرى، أو الخلافة، وهي رئاسة عامّة في الدين والدنيا، خِلافةً عن النبي صلى الله عليه وسلم، وأجمعت الأمّة على أن عقد الإمامة واجبٌ، ويجب كذلك على الأمة الانقياد لإمامٍ عادلٍ، يُقيم فيهم أحكام الله تعالى،

---

[151]– ينظر حول أنظمة الحكم والإدارة: الماوردي: الأحكام السلطانية2، 20، القاهرة، 1909، عبد العزيز الدوري، النظم الإسلامية، ص 9– 13.

[152]– حسن الباشا: دراسات في الحضارة الإسلامية، ص 55– 59.

[153]– المرجع السابق، ص57– 59.

154 – انظر: كمال عناني إسماعيل: دراسات في تاريخ النظم والحضارة ص63.

[155] – الماوردي: الأحكام السلطانية ص30 وما بعدها، وفتحية النبراوي: تاريخ النظم والحضارة الإسلامية ص68–71

ويسوسهم بأحكام الشريعة التي أتى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتعيين أميرٍ للمؤمنين فرض كفاية -أي إذا قام بالإمارة من هو أهلٌ لها سقط الإثم عن الباقين- وإن لم يقم بها أحدٌ أثم من الأمة فريقان، وهما كالآتي:

أ- **أهل الاختيار**، وهم أهل الحل والعقد، حتى يختاروا إماماً للأمة.

ب-**أهل الإمامة**، وهم من توفّرت فيهم شروط الإمامة، حتى يُنصب أحدهم إماماً.

ثانيا :الإمارة الخاصة: وهي إمارةٌ تكون لإقامة فرض محدّد من فروض الكفاية، كإمارة القضاء، أو الصدقات ، أو الجند، وذلك إذا دعت الحاجة إلى تخصيصها بإمارةٍ معيّنة، وقد يكون :**تخصيص الإمارة مكانيّاً**: كالإمارة على بلدٍ أو إقليمٍ خاص، وقد يكون **تخصيص الإمارة زمانياً**: كإمارة الحجّ، وغير ذلك، والإمارة الخاصة من المصالح العامة للمسلمين، وتكون بنظر الإمام ورأيه، وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يُنيب عنه عُمَّالاً على القبائل والمدن، وفعل ذلك أيضاً الخلفاء الراشدون، وهي **تنقسم إلى نوعين**، وهما على النحو الآتي:

أ- **إمارة الاستكفاء**: وهي أن يفوّض أمير المؤمنين باختياره إلى شخصٍ ما إمارة بلدٍ أو إقليمٍ من الأقاليم، ويكون والياً على جميع أهلها، ويقوم بأعمال الإمارة، ويشتمل عمل الأمير في هذه الإمارة على عدة أمور، وهي كالآتي:

تدبير الجيوش. النظر في الأحكام، وتعيين القضاة. جمع الخراج، وأخذ الصدقات. حماية الدين، والذَّبُّ عن ديار المسلمين. إقامة الحدود الشرعية. إمامة الناس في الجُمعة وصلوات الجماعة. تسيير الحجّ، وتُسمّى إمارة الحجّ. قسم الغنائم، وكذلك ما تستدعيه الأحوال من مهامٍ أخرى، كرعاية شؤون التعليم، والصحة، ونحو ذلك.

ب-**إمارة الاستيلاء**: الأصل في الشريعة الإسلامية ألا يتولّى أحدٌ الإمارة إلا بتقليدٍ من أمير المؤمنين -الخليفة- أو من ينوب عنه في ذلك، كوزير التفويض، وقد يطرأ في بعض الأحوال أن يستبدّ أميرٌ أو والٍ بالسلطة وينفرد بها، وذلك بعد أن تولّاها بتقليدٍ من أمير المؤمنين، ويُخشى حدوث فتنةٍ بعزله، فلأمير المؤمنين أن يُقرَّه على إمارته، وقد ذهب جمهور الفقهاء إلى صحة هذا التقليد للضرورة، وإنهاءً للفتنة، والحكمة في إقرارها هي حفظ وحدة كلمة المسلمين بالاعتراف بوجود الخلافة الواحدة في الجملة، وإعطاء صفة الشرعية على الأحكام التي يُصدرها المُستولي، وصونها عن الفساد.

شروط الإمارة :

تنقسم شروط الإمامة الكبرى -**إمارة المؤمنين**- إلى **ثلاثة أقسام**، وبيان هذه الأقسام على النحو الأتي:

أولا: شروطٌ لازمة لا تنعقد الإمارة إلا بها:

الشروط اللازم توفّرها في الأمير كالآتي:

1-**الذكورية**: وذلك لأن المرأة لا تصلح للقهر والغلبة، وقيادة العساكر، وتدبير الحروب، إظهار السياسة غالباً، كما أشار إلى ذلك النبي صلى الله عليه وسلم: (لن يُفلِحَ قومٌ تملِكُهم امرأةٌ).

2-**الحرية**: لأن العبد لا ولاية له على نفسه، فلا تكون له ولايةٌ على غيره.

3-**البلوغ**: وهذا لأن الصبيّ له وليٌّ مسؤولٌ عن تصرّفاته، وليس له ولايةٌ على نفسه.

4- **العقل**: وسبب ذلك أن المجنون لا تصحّ ولايته على نفسه، فلا تصحّ ولايته على غيره.

5-**العلم**: وذلك لأن العلم تتّضح به الأشياء الخفية، ويتم بالعلم السلطنة والإمارة، قال الله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ).

وقيل إن جميع الأشياء تتجمّل بالناس، والناس يتجمّلون بالعلم، وتعلو مكانتهم بالعقل، وليس للملوك شيءٌ أحسن من العلم والعقل، فإن العلم سبب بقاء العِزّ ودوامه، والعقل سبب بقاء السرور ونظامه، وقيل **لا بد للأمير من ثلاثة أشياء**، وهي: **العلم**، و**المعرفة**، و**العقل**.

6-**الشجاعة**: لا بد للأمير أن يكون فيه أصل الشجاعة، بحيث يمكّنه قيادة العسكر، وإقامة الحدود، ومقاتلة العدو، وإن لم يقدر على قتال العدو بنفسه.

7-**نسب قريش**: من شروط أمير المؤمنين أن يكون نسبه من قبيلة قريش؛ وذلك لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (الأئمَّةُ مِن قريشٍ)، واتفق الصحابة- رضوان الله عليهم أجمعين- على قبول هذا الحديث والعمل به، وذلك حين رواه أبو بكرٍ الصديق -رضي الله عنه- محتجّاً به على الأنصار عند اجتماعهم لاختيار خليفةٍ لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

8-**الإسلام**: وذلك حتى يُراعي مصلحة الإسلام والمسلمين، فلا تصحّ تولية الكافر، ولو على كفّارٍ مثله.

9- **السمع والبصر والنطق**: يُشترط في الأمير أن يكون سميعاً بصيراً ناطقاً؛ وذلك ليتمكن من القيام بأمور الحكم، ويُشترط كذلك أن لا يكون فيه نقصٌ يمنعه من الحركة والنهوض، كالنقص في اليد أو الرجل.

10- **العدالة**: وهذا الشرط يُعتبر في الابتداء لا في الدوام، فإن الأمير لا ينعزل بالفسق في الأصح، وقال الشيخ عزُّ الدين: (وإذا تعذّرت العدالة في الأئمة والحُكَّام قدّمنا أقلَّهم فسقا).

ثانيا : شروط الكمال:

وهي الشروط التي تكون للترجيح بين الأمراء، وهي **التقوى**، فقد عدّ بعض أهل العلم **التقوى** من **شروط الكمال**، فينبغي للأمير أن يكون متّقياً لله تعالى، بعيداً عن الحرام والشبهات، وأن يكون **ورعاً صالحاً**؛ ليأمن الناس على أنفسهم وأموالهم، وتميل قلوب الناس إليه، و**ذهب بعض الشافعية** إلى **أنه شرط صحة، فالفاسق** عندهم **ليس أهلاً للشهادة** و**القضاء**، فالأولى ألا يكون أهلاً لإمارة المؤمنين.

ثالثا : شرطٌ مختلفٌ فيه:

اختلف أهل العلم في اشتراط كون **الأمير أفضل أهل زمانه**، فذهب **أبو منصور الماتريدي** إلى أنه **ليس بشرط**، وهو **مذهب الحسين بن الفضل البجليّ**، وذهب **بعض العلماء إلى اشتراطه، فلا تنعقد إمامة المفضول** مع **وجود الفاضل، وإليه مال أبو الحسن الأشعري** .

الفرع الثامن : النظام القضائي في الحضارة الإسلامية (القضاء ، الحسبة، الشرطة)

أولا: القضاء :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نبي الأمة ومعلمها وقائدها في المعارك وقاضيها وإمامها في الصلاة...وكان المسجد هو مكان التقاضي حيث يحضر المدعى والمدعى عليه والشهود، ويحكم بينهم رسول الله بعد أن يعظهم ويذكرهم بأنه بشر، وبأنهم يجب أن يؤثروا الآخرة على الدنيا.

ومن الجلي الذي لا يحتاج إلى تذكير أن رسول الله كان يقضي بكتاب الله و بسته الشريفة وباجتهاده في تنزيل الحكم على القضية في ضوء ظروفها، وكان الرسول يعلم أصحابه هذا المنهج، وقد قال لمعاذ بن جبل، عندما ولاه على اليمن: بم تقضى يا معاذ؟ فأجابه : أقضى بكتاب الله، قال له الرسول» :فإن لم تجد في كتاب الله؟ قال: أقضي بسنة رسول الله، قال :"فإن لم تجد في سنة رسول الله" قال معاذ: أجتهد برأيي ولا آلو (أي لا أقصر في الاجتهاد...)[156].

وهكذا نجد أنه في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم أسند القضاء إلى الولاة الذين أرسلهم الرسول إلى بعض الأماكن مثل: علي بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل، ولما زاد عدد المسلمين ودخل الإسلام أقاليم كثيرة في الجزيرة العربية؛ أسندت هذه الوظيفة إلى عدد من الصحابة ، وسار الخليفة الأول أبو بكر الصديق على هذا المنوال إذ ولى القضاء عمر بن الخطاب [157].

وفي خلافة عمر بن الخطاب وضع للقضاء نظام محكم؛ عين القضاة للمدن المختلفة في الدولة الإسلامية، وسنت لهم النظم والقواعد التي كان من الواجب عليهم اتباعها والعمل في ضوئها، ووضعت التقاليد، وحددت لهم المرتبات. ومن القضاة الذين عينهم الخليفة عمر: شريح وقد عينه على الكوفة، وأبو موسى الأشعري ولاه قضاء البصرة[158].

وفي العصر الأموي تطور نظام القضاء، وأصبح تعيين القاضي إما من الخليفة مباشرة، وإما من الوالي المفوض من الخليفة، وينسب إلى الإمام مالك قوله: إن أول من استقضي معاوية، ويروى عنه أنه قال : ما استقضي أبو بكر ولا عمر ولا عثمان قاضيا، (يعنى قاضيا محترقا متفرغا للقضاء) وما كان ينظر في أمور الناس غيرهم...وعندنا أن خير ما قيل في هذا الموضوع رأى نقله صاحب (التراتيب الإدارية) عن ابن رشد، وفق فيه بين قول مالك ورواية المسيب والزهري[159].

قال ابن رشد – تعليقا على كلمة مالك :- هذا أصل ما نقدم أن أول من استقضى معاوية؛ يريد أنه أول من استقضى في موضعه الذي كان فيه، وإلا فقد ولى عمر بن الخطاب على قضاء البصرة أبا شريح الحنفي، وولى كعب بن سور، وولى شريح قضاء الكوفة، يدل هذا على صحة ما تأولناه ؛ إذ لا يصح أن ينظروا إلا في مواضعهم، لا فيما بعد من البلاد.

وهكذا كان معاوية أول خليفة امتنع من القضاء تماما، ودفعه إلى غيره؛ فكان له قضاة في قاعدة ملكه؛ فضلا عن قضاته في الأمصار[160].

---

[156]– محمد ضيف الله بطانية: تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، دار الفرقان، الأردن، 1985، ص79، 80 (بتصرف).

[157]– ينظر في القضاء: وكيع: أخبار القضاة (طبعة الاستقامة مصر)، 2/ 1890.

[158]– ابن قتيبة: المعارف (الهيئة المصرية العامة 1992م)، ص433.

[159]– وكيع: أخبار القضاة 2/ 232، ابن خلكان: وفيات الأعيان.

[160]– الكندى: كتاب الولاة والقضاة، ص325.

أما عمر فهو أول خليفة قضى في موضعه، واستقضى على الأمصار[161].

ويجدر بالذكر أن ما فوض فيه الخلفاء القضاة هو ما نسميه اليوم (القضاء المدني)، أما القضاء في المسائل الجزائية، فقد بقي جزءا من ولايتهم، وربما دفعوه إلى ولاة الشرطة.

وكان معاوية بن أبي سفيان أول من دفع إلى قاض حق النظر في مسائل محدودة من القضاء الجزائي؛ فقد ذكر (الكندى) في كلامه على قاضى مصر (سليم بن عتر) أن معاوية أمره (بالنظر في الجراح، وأن يرفع ذلك إلى صاحب الديوان، وكان أول قاض نظر في

الجراح وحكم فيها.... فكان الرجل إذا أصيب فجرح؛ أتي إلى القاضي، وأحضر بينة على الذي جرحه، فكتب القاضي بذلك الجرح قصة على عاقلة الجارح ترفع إلى صاحب الديوان، فإذا حضر العطاء اقتص من أعطيات عشيرة الجارح ما وجب للمجروح، ويجم يقسط(ذلك في ثلاث سنين، فكان الأمر على ذلك)[162].

وكان القضاة في العصر الأموي يرجعون إلى الخلفاء في بعض الأقضية التي تشكل عليهم لثقتهم في فقه الخليفة، وكان من رجع إلى الخلفاء يستفتيهم القاضي عياض بن عبد الله الأزدي الذي استفتى عمر بن عبد العزيز في العديد من القضايا، فكان يجيب ما يعلم؛ فإذا لم يكن لديه حكم معلوم، أمر عياضا بالاجتهاد. وهكذا كان التكامل قائما بين الخلفاء والقضاة في سبيل تحقيق العدل وتطبيق الشريعة الإسلامية)[163].

وفي العصر العباسى كان لنشأة المذاهب الفقهية الأربعة تأثير كبير على تطور إدارة القضاء الإسلامي في مختلف أنحاء الخلافة العباسية، وكان القضاة يصدرون أحكامهم بعيدا عن أهواء السلطة التنفيذية، ومثال ذلك محاولة الخليفة أبي جعفر المنصور أن يؤثر على قاضيه على البصرة "سوار بن عبد الله"، ليصدر حكما يوافق هوى الخليفة فكتب إليه :

(انظر إلى الأرض التي تخاصم فيها فلان القائد وفلان التاجر، فادفعها إلى القائد)، فكتب إليه القاضي :(إن البينة قد قامت عندي أنها للتاجر، فلست أخرجها من يده إلا ببينة(، فكتب إليه المنصور) :والله الذي لا إله إلا هو لندفعنها للقائد)، فكتب إليه سوار :(والله الذي لا إله إلا هو لا أخرجها من يد التاجر إلا بحق)، فقال المنصور :(ملاتها والله عدلا، وصار قضاتى تردني إلى الحق)[164].

وظهر في الدولة العباسية منصب قاضي القضاة، وأسنده الرشيد إلى أبي يوسف، وهو يقابل في زماننا منصب (وزير العدل) وكان مقره عاصمة الدولة، وأصبح مسئولا عن تنظيم شئون القضاء في الدولة ؛ فيولي القضاة ويعزلهم، ويتابع أحوالهم، ويتأكد من نزاهتهم، وحسن سيرتهم[165].

من خلال كل ما سبق حول تطور ولاية القضاء نستطيع تلخيص أهم وظائف القاضى وهي:

---

[161]– منير العجلاني: عبقرية الإسلام في أصول الحكم، ص432.

[162]– المرجع السابق، ص343.

[163]– مجموعة مؤلفين: موسوعة الإدارة العربية الإسلامية، جامعة الدول العربية، 2003، 1/ 334، 335.

[164]– المرجع السابق، ص349.

[165]– الكندى: مصدر سابق، ص346، 347.

فصل المنازعات وقطع التشاجر والخصومات بصلح أو إجبار، واستيفاء الحقوق من الممتنع منها وإيصالها إلى مستحقها، وثبوت الولاية على من كان ممنوعا من التصرف الجنون أو صغر، والحجر على من يرى الحجر عليه لسفه أو فلس، والنظر في الأوقاف، بحفظ أصولها وتنمية فروعها وقبض غلتها وصرفها في سبلها، وتنفيذ الوصايا على شروط الموصى، فيما أباحه الشرع ولم يحظره، وتزويج الأيامي بالأكفاء، إذا عدمن الأولياء ودعين إلى النكاح، وإقامة الحدود على مستحقيها، فإن كان من حقوق الله – تعالى – تفرد باستيفائه من غير مطالبة أحد إذا ثبت بإقرار أو بينة، وإن كان من حقوق الآدميين كان موقوفا على طلب مستحقه، والنظر في مصالح عمله من الكف عن التعدى في الطرقات والأفنية وإخراج ما لا يستحق من الأجنحة والأبنية، وتصفح شهوده وأمنائه واختيار النائبين عنه من خلفائه في إقرارهم والتعويل عليهم، مع ظهور السلامة والاستقامة، مع التسوية في الحكم بين القوى والضعيف، والعدل في القضاء بين المشروف والشريف، أما تولية القاضي الفتيا والإمامة في الصلاة والحسبة والشرطة والتدريس والولاية على المساجد، فهي وظائف إضافية)إشرافية(وليست من صميم عمل القاضي[166].

ثانيا : الحسبة :

الحسبة من الوظائف التي يصل عملها بعمل القضاء والشرطة، لكنها مستقلة عنهما، ويقال لصاحبها (المحتسب) و(صاحب الحسنية) و(متولي الحسبة) و(ناظر الحسبة) و(والى الحسبة).

والحسبة في الشريعة الإسلامية إزالة المنكر إذا ظهر فعله، والأمر بالمعروف إذا ظهر

تركه، ويمثل نظام الحسبة، بذلك، نظاما رقابيا يتكامل مع النظام الاجتماعي والسياسي في المجتمع الإسلامي.

والمعروف ما أمر الشارع بعمله، والمنكر ما نهى الشارع عن فعله...لكن – مع التطور الحضاري – قد تظهر بعض السلوكيات والعادات والأمور العرفية فتخضع لتحسين الشرع وتقبيحه، ولا يخضع الشرع لها[167].

والحق أن الشريعة الإسلامية لم تكتف ببيان المعروف وتعداد أنواعه، ولكنها ترسم للإنسانية منهاج الحياة المتكامل على وجه ينمي فيها المكارم والفضائل، ويبعث فيها روح الخير، ويساعدها على النماء والرقي، ويحبب إليها فعل المعروف بكافة صوره، كما لا تكتفي بالنهي عن المنكر وبيان الرذائل، وإنما توضح مضارها وتحذر من اقترافها حتى يصير المجتمع المسلم مجتمعا فاضلا نظيفا.

وللحسبة الرقابية العامة والوظيفية في هذا المجال الفضل الأول، وأول من احتسب هو رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كان يمر على الأسواق ويقول للناس :"من غشنا فليس منا".

ويعد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب أول من وضع نظام الحسبة، وكان يستخدم الدرة أو السوط في معاقبة المخالفين.

وقد استمرت الحسبة في العصر الأموي، ونقلها الأمويون إلى الأندلس، وكانت من أهم الوظائف الشرعية عندهم.

---

[166]– منير العجلاني: عبقرية الإسلام في أصول الحكم، ص 346، 347.

[167]– محمد ضيف الله بطانية: في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص93 (بتصرف).

لكن المصطلح لم تتحدد معالمه، ولم يصبح علما على مؤسسة كالقضاء والشرطة إلا نتيجة لاهتمام العباسيين خلال العصر العباسي الأول بجعل الشريعة الإسلامية أساسا لحكمهم، ولمقاومة حركات الزندقة والمتأثرين بها، والناشرين للإلحاد والفساد.

وقد صارت وظيفة المحتسب في القرن الرابع الهجري من الوظائف الثابتة الوطيدة الأركان في جميع الدول الإسلامية[168].

وكان المحتسب يختار من بين علماء الدين والقلم الملمين بأحكام الشريعة، والأشداء في الحق وذوى الثقة والأمانة، وربما كان من القضاة أو أعيان المعدلين، وربما أضيفت أعمال الحسبة إلى القاضي أو إلى الوالي أو صاحب الشرطة، وقد يجمع المحتسب بين نظر الحسبة ونظر الوقف.

وكان المحتسب يولي عنه نوابا في سائر المدن والأقاليم التابعة له.

وكانت اختصاصات المحتسب توجب مراقبة ما يتعلق بتأدية العبادات... بتأدية صلاة الجمعة، والمحافظة على الصلاة جماعة، وأداء الزكاة وردع أهل البدع، ومراقبة الأسواق، ومعاملة التجار للناس، ومراقبة النقابات والحرفيين.

وهي أوجب في الفرضية العينية على الحاكم المسلم الذي هو المسئول الأول عن حراسة دين الله، وإصلاح شئون الأمة في دينها ودنياها، ولهذا فهو ينشئ- ضمن أنواع الولايات -(ولاية الحسبة) للقيام على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أداء لبعض الواجب على الحاكم ومساعدة له. ومن مؤهلات المحتسب التي هي شروط القيام بالحسبة

1- أن يكون المحتسب مسلما؛ لأن الحسبة تهدف إلى إصلاح الناس وحماية الدين.

2- أن يكون المحتسب عاقلا؛ يميز بين الخير والشر والحلال والحرام.

3- العدالة؛ بأن يعمل قدر استطاعته بما يأمر الناس به ويدعوهم إليه.

وهكذا لم تتبلور وظيفة الحسبة إلا بعد انتهاء دولة بني أمية؛ فقد قام القضاة بأعمال هي من صميم الحسبة، فقد عهد إلى القضاة بمراقبة الأسواق ورعاية التجمعات، أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر، ومن ذلك قاضي المدينة محمد بن عمران الذي أدب أحد الرعية لما رآه يشتم الناس [169].

4- وينبغي أن يكون الأمر بالمعروف والناهي عن المنكر عارفا عالما بالمعروف الذي يدعو إليه، والمنكر الذي ينهي عنه.

5- أن يكون بصيرا بالأمور وعواقبها؛ فيعرف ما يترتب على أمره ونهيه، وهل يؤدى أمره ونهيه إلى منكر أكبر فيحجم؛ فيدرأ السيئة الكبرى بالسكوت عن الصغرى .

6- أن يكون على علم بحال المدعوين وأعرافهم وعاداتهم ونفسياتهم؛ بحيث يأتيهم من المدخل الذي يسهل انصياعهم له وعدم نفرتهم منه.

---

[168]- المرجع السابق، ص94.

[169]- حسن الباشا: دراسات في الحضارة الإسلامية، ص75.

7-أن يكون واسع الصدر لا يتسرع بالإجابة، وله في رسول الله الأسوة الحسنة، لين الجانب، رفيقا، متدرجا، سهل التعامل، كريم الكلام؛ بعيدا عن الإيذاء والانتقام ممن أساءوا إليه، صابرا ضابطا لنفسه، متحكما في مشاعره.

8-أن يتدرج في أمره ونهيه بحسب حال من يدعوهم، وكأنه الطبيب مع المريض، مقدرا أحوالهم النفسية.

9-أن يبدأ بالأهم قبل المهم، ويأمر بالأركان قبل الواجبات، وبالواجبات قبل المندوبات، وينهى عن الكبائر قبل المحرمات الأخرى.

10-أن يكون الإخلاص والغيرة على الإسلام والمسلمين دافعه إلى الاحتساب؛ ولهذا يجب أن يكون متواضعا منكرا لذاته، بعيدا عن الأهداف الدنيوية، التي يجب ألا تكون الهدف...بل وسيلة تابعة.

11-أن يأخذ بمبدأ القدوة الحسنة؛ فهي التي تؤثر في النفس ما لا تؤثره الكلمة؛ ولذا فلا بد من أن يكون ملتزما في نفسه كما قال الله تعالى حكاية عن شعيب : (**قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**) هود: 88.

ثالثا : الشرطة :

كانت الإدارة الشرطية في عهد الرسول قائمة على المركزية الإدارية في المدينة واللامركزية الإدارية في الأقاليم المفتوحة؛ فكان أول جهاز أسس للشرطة في المدينة المنورة، ومنها انتشرت أجهزة الشرطة في الولايات الإسلامية، واتسع نظام الشرطة فشمل العسس وإقامة الحدود والتعزير[170].

واهتم أبو بكر الصديق باستتباب الأمن ونشر الطمأنينة فأمر عبد الله بن مسعود بالطواف ليلا، أما عمر بن الخطاب فكان يعس بنفسه، ويرتاد منازل المسلمين بعد استئذانهم، ويتفقد أحوالهم، ويطوف شوارع المدينة ليتأكد من استتباب الأمر في أسواقها وطرقها.

ويعد عثمان بن عفان أول من اتخذ صاحبا للشرطة؛ فكان على شرطة عبد الله بن قنفذ التيمي، واعتنى على بن ابى طالب بتنظيم الأمن؛ فعهد بالشرطة إلى رجال أكفاء عرفوا بالتقوى والصلاح؛ أقواهم في موضع القوة، وأرحمهم في موضع الرحمة أمثال: قيس بن سعد الأنصاري، ومعقل بن قيس الرباحي، وأبي الهياج الأسدي وغيرهم[171].

كان صاحب الشرطة في عصر ولاة الأمويين والعباسيين يسهم مع الوالي وعامل الخراج في تحصيل الجزية والخراج، وكان صاحب الشرطة يتولى - نيابة عن ديوان الخراج - إصدار دنانير حسب الصنج الزجاجية عددا أو وزا.

وقد عرفت وظيفة صاحب الشرطة في الدول الإسلامية التي تفرعت عن الخلافة العباسية مثل الدولة الغزنوية ودولة السلاجقة.

وكان صاحب الشرطة في عصر الولاة في مصر ينوب عن الوالي، كما يقوم أيضا بالإشراف على الأوقاف وتنظيم مرتبات الجند.

---

[170]- موسوعة الإدارة العربية الإسلامية 1/ 332.

[171]- المرجع السابق، 380، 392.

وكان صاحب الشرطة يسهم – في عصر الولاة – في أعمال الحسبة؛ التي كانت موزعة –في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين وأوائل العباسيين– بين القاضي وصاحب الخراج وصاحب الشرطة إلى أن اجتمعت أعمال الحسبة للمحتسب في عهد المهدي العباسي.

وكانت دار الشرطة تعرف في مصر باسم الشرطة، بينما كانت تعرف في بغداد وسامراء ودمشق حتى نهاية القرن الرابع الهجري باسم (مجلس الشرطة) أو مجلس صاحب الشرطة.

وقد عرف في مصر نظام الشرطتين: العليا والسفلي في عصر الولاة، وظل معروفا في عهد الفاطميين، وكانت الشرطة العليا تقيم قريبا من مسجد ابن طولون، والسفلى تقيم في الفسطاط، غير أن صاحب الشرطة العليا كان يقيم بالقاهرة، وكان صاحب الشرطة يسمى أيضا في عصر الفاطميين باسم حاكم القاهرة.

وفي الأندلس عظم أمر صاحب الشرطة في **دولة بني أمية** (138– 422هـ) وانقسمت الشرطة إلى شرطتين : شرطة كبرى وشرطة صغرى.

ومهمة الشرطة الكبرى النظر في أمر الخاصة والطبقة العليا من أقارب السلطان، أما صاحب الشرطة الصغرى فكان مخصصا للنظر في أمر العامة، وقد أطلق على صاحب الشرطة في أواخر العهد الإسلامي (بصاحب المدينة) كما عرف عند العامة (بصاحب الليل)[172].

واتخذت الشرطة العديد من الإجراءات والتدابير لتقليل الجريمة ومكافحتها وذلك عن طريق مراقبة الأماكن المشبوهة كالحانات والحمامات وأماكن اللهو والشراب، ومراقبة الأشخاص الخطرين كالمنحرفين وأصحاب البدع، والمخالفين ؛ فكان للشرطة جواسيس النقل أخبار الآخرين، فقد كلم أحد الرجال إسحاق الصعبى صاحب الشرطة في العصر العباسي في شأن امرأة، فما كان من صاحب الشرطة إلا أن حدثه عن أخبار هذه المرأة وإلمامه بأحوالها حتى بهت الرجل[173].

وكانت الشرطة تقوم بإجراء التفتيش للتأكد من صحة المعلومات أو الشبهات، كما استمرت أعمال الدوريات الليلية أو ما تعرف بالعسس للقبض على السكارى والمجرمين، ومنع حدوث الضوضاء ؛ وقد عرفوا في بلاد الأندلس (**بالدرابين**)[174].

ومن مهام الشرطة أيضا الاهتمام بأمن السبل والمسالك؛ لذا وجدت نقاط للرصد والتفتيش والحراسة خارج المدن، ويشرف عليها رجل يعرف باسم صاحب المسلحة.

فقد أمر الخليفة المنصور العباسي بوضع مسالح على طريق البصرة للقبض على إبراهيم ابن عبد الله بن الحسن، كما أمر الخليفة الأمين (195هـ) إحدى المسالح بتفتيش كل المارة لمنع انتقال أية رسائل بأخباره إلى المأمون.

وتخضع السجون لإشراف الشرطة، ويختار لذلك أكمل العمال أمانة، وأحسنهم معرفة، وأكثرهم حزما[175].

---

[172]– نفس المرجع، 3/ 401.

[173]– حسن الباشا: دراسات في الحضارة الإسلامية، ص72، 73.

[174]– موسوعة الإدارة العربية، 3/ 426.

[175]– المرجع السابق، 3/ 428، 429.

الفرع التاسع :النظام المالي في الحضارة الإسلامية (الزكاة ،الفيء، الجزية ،الخراج ، الغنيمة، العشور) [176]

تمهيد :

النظام المالي في كل أمة أساس عظيم لحياتها الاجتماعية، فإن رأيت أمة متقدمة في المدنية والحضارة، وفي العلوم والفنون، وفي المخترعات ووسائل النقل والمواصلات، وعلو مستوى المعيشة بين أفرادها، فاعلم أن ذلك ناتج من حسن نظامها المالي، وإن رأيت الفقر المدقع منتشرًا بين جمهورها، وهي منحطة في زراعتها وعلومها وفنونها، فاعلم أن ذلك يرجع أولًا إلى سوء نظامها الاقتصادي؛ ولذلك قوّمت المدنية الغربية الأمور الاقتصادية تقويمًا كبيرًا، بل جعلتها أساسًا يؤثر في نظامها السياسي، ونظامها الاجتماعي، ووُجَد المتخصصون في المسائل الاقتصادية والتعمق في بحثها، وإفرادها بعلم يسمى «علم الاقتصاد»، له الشأن الأول بين العلوم.

وقد كان الإنسان الأول مكفي الحاجة قليل الجهد في الحصول على ضروريات حياته، فهو يعتمد على ما يجده من أثمار الأشجار أو من الصيد، ويلبس ما ينتجه الحيوان، ويسكن الكهوف، ولا يحس أي إحساس بأزمة مالية، ولكن شاء الله أن يخلق الإنسان طموحًا إلى تحسين حاله، راغبًا بطبيعته في الحياة الاجتماعية،

فزَرَعَ الأرض وكلما تقدم الزمن زادت مطالب حياته، وتأنق في مسكنه وملبسه ومأكله، وكان بحكم الطبيعة أن تفاوت الناس في القدرة على الكسب، فزكي وغبي، وماهر وأخرق، وبعيد النظر وسفيه، وفيلسوف ومغفل، إلى غير ذلك، فكان من ذلك اختلاف الثروات، ومن يعيش عيشة سعيدة، ومن يعيش عيشة شقية، ومن يجد فوق حاجته، ومن لا يجد حاجته، وكلما تقدمت المدنية زادت هذه الأمور تعقيدًا، وفُكِّرَ في الحلول لها، ووضعت المقترحات والنظم الاقتصادية لحلها وتنظيمها.

من القضايا المعلومة في الإسلام أن هذا الدين جاء لعمارة الدنيا وعمارة الآخرة، وإن سعادة أهله مقترنة بتمسكهم بعقيدته وإقامتهم لفروضه وحدوده ووقوفهم عند أوامره ونواهيه. ، بشاهد قول الله تعالى **(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا)**.

فما رأت البشرية مثل محمد بن عبد الله نبيا للخير داعيا، ولا شاهدت كرسول الإسلام قدوة لكل المكارم بنفسه بانيا، بقوله وعمله لطريق الفضائل هاديا، وما كان خلفاؤه الراشدون وأتباعه العاملون المخلصون غير سالكين مسالك إرشاده، ورافعين لإعلام رسالته وجهاده، ترسموا خطى الرسول حتى بلغوا بهدايته كل المأمول، فتحقق لهم قول الله تعالى «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين».

أن إقامة الخلافة الإسلامية ونشر الدعوة المحمدية وإقرار شريعة الحق والعدل بين البشرية، يتطلب كل ذلك جهودا مادية ومعنوية، فالإيمان بالله وإقامة عبادته من صلاة وصيام أفرادا وجماعات لا تحتاج إلى الأموال الكثيرة مثل ما تحتاج

[176]– سامي رشيد خلف،النظرية الاقتصادية الإسلامية،دار النفائس ،الأردن،.1991 ، 355 .

الأمور التي تخص الجيش والأمن ومعاقل الثغور ورباط الخيل، وأخذ كل العدة لمجابهة قوة العدة بقوة مثلها أو بقوة تزيد عليها حتى تكفل التغلب والفوز والنصر للمسلمين، وبعبارة أوضح وأشمل إن الإعداد المادي لابد أن يبذل المسلمون فيه كل ما في استطاعتهم بحيث يتمثلون قول الله تعالى«وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل» في أعلى صوره وأروع وسائله.

والإسلام كنظام اجتماعي عايش الناس وعاشوا في ظله وكنفه ورعايته مغتبطين به، وسعداء بعقيدته وخدمة مثله العليا، وهو لأجل ذلك يتطلب المعونة المادية للنهوض بكل ما يلزم للحياة الاجتماعية في أرقى صورها وأحسن أنظمتها بما في ذلك نفقات مصالح الدولة ودواليبها الإدارية وإسناد مؤسسات التعاون والإسعاف، فمن أين تكون موارد هذه الأموال؟ وكيف تصرف بعد تحصيلها ؟

بل توجد هناك موارد أخرى غير الزكاة كما توجد نظريات صائبة فقد قال فطاحل من علماء الإسلام بجواز فرض الخراج على الأمة وقت ضعف الدولة، حتى تتمكن من حماية نفسها، ومن هؤلاء الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى، وقد وجدت هذه النظريات قبل أن تتطور الحياة الاجتماعية حسب مقتضيات العصر الحديث.

فقد فقدت حياتنا كثير من توازنها وروحانيتها بسبب كثرة تقليدها للأوروبيين والغربيين على العموم في أساليب حياتهم ونظمهم التشريعية والاجتماعية.

فالتشريع الإسلامي يعتبر المصلحة الخالصة والراجحة كما يدرأ ويمنع المفسدة الخالصة والراجحة، والإيمان في مجموعه جملة من المصالح والمنافع الروحية والمادية .

إن الإسلام لا يعرف ولا يقر سياسة التبذير أو التصرف في أموال الأمة على غير الوجه الأحسن بل لابد أن تقع المحافظة التامة على هذه الأموال ،ولا تصرف إلا بعد التحقق من صلاحية الطرق التي تصرف فيها، كما يرشد إلى ذلك قول الله تعالى « **ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن**» .

وإذا كان التصرف في مال اليتيم لا يسوغ إلا على الوجه الأحسن فمصالح الأمة في مجموعها أولى بالرعاية من خصوص مصالح الأيتام ،لأن تلك مصالح عامة وعليا وقد بين سيدنا يوسف عليه السلام أحقيته بالحفظ والعلم للوظيفة التي طلبها حيث قال للملك: «**اجعلني على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم**» .

موارد الدولة الإسلامية:

بيت مال المسلمين أو **بيت مال الله**: هو المبنى والمكان الذي تحفظ فيه الأموال العامة للدولة الإسلامية من المنقولات،كالفيء الخمس و الغنائم ونحوها، إلى أن تصرف في وجوهها.

استخدم هذين اللفظين منذ صدر الإسلام ثم اكتفي بكلمة "بيت المال" للدلالة على ذلك، حتى أصبح عند الإطلاق ينصرف إليه.و موارد بيت المال هي : **الزكاة . الفيء . الجزية . الخراج . الغنيمة . العشور** .

تطور لفظ (**بيت المال**) في العصور الإسلامية اللاحقة إلى أن أصبح يطلق على الجهة التي تملك المال العام للمسلمين، من النقود والعروض والأراضي الإسلامية وغيرها.

والمال العام هنا: هو كل مال ثبتت عليه اليد في بلاد المسلمين، ولم يتعين مالكه، بل هو لهم جميعا.

قال **القاضي الماوردي والقاضي أبو يعلى** :(كل مال استحقه المسلمون، ولم يتعين مالكه منهم، فهو من حقوق بيت المال). ثم قال: (وبيت المال عبارة عن الجهة لا عن المكان. أما خزائن الأموال الخاصة للخليفة أو غيره فكانت تسمى "بيت مال الخاصة) .

مَوَارِدُ بَيْتِ الْمَال و هي :

أولا : الزكاة :

الزكاة فريضة مالية فرضها الله تعالى حقا للفقير في مال الغني وهي تشكل أساسا أهم الموارد الضرورية للدولة ،وقد حدد الشارع شروطا معينة لابد من توفرها في المال حتى يكون قابلا للزكا ة كما بين الأوعية الخاضعة لها وحدد مصادرها .

وهي تؤخذ من أغنياء المسلمين وتفرق في فقرائهم وقد ذكرنا أصلها في ما تقدم، وللزكاة ديوان في مركز الخلافة له فروع في سائر الولايات والبلدان، ويستقل ولي الزكاة في كل بلد بالاستيلاء على أموال الزكاة من أغنياء ذلك البلد وتفريقها على فقرائه.

الزكاة بأنواعها التي يأخذها الإمام سواء أكانت زكاة أموال ظاهرة ، أم باطنة ، من السوائم ، والزروع ، والنقود ، والعروض.

الجهات التي تصرف فيها الزكاة:

وأما الجهات التي تصرف فيها أموال الزكاة فقد جاء ذكرها صريحاً في القرآن الكريم وهو (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) التوبة/ 60 . ومن ثم **فمصارف الزكاة تنحصر في :**

أولا وثانيا : الفقراء والمساكين: هم الذين لا يجدون كفايتهم وكفاية عائلتهم لا من نقود حاضرة ولا من رواتب ثابتة ولا من صناعة قائمة ولا من نفقات على غيرهم واجبة ،فهم في حاجة إلى مواسا ة ومعونة، فالفقراء والمساكين يجمعها معنى الحاجة إلى الكفاية حيث لا تحل الزكاة لغني أو قوي مكسب.

ثالثا : العاملون عليها : العاملون على الزكاة هم الذين يجبونها ويحفظونها ونحو ذلك **ويشترط في عمال الزكاة:**

1 -أن يكون حرا .

2 -أن يكون مسلما .

3 -أن يكون عادلا .

4 -أن يكون عالما بأحكام الزكاة .

رابعا : المؤلفة قلوبهم : صنف **الماوردي** المؤلفة قلوبهم إلى أربعة أصناف :

١ - صنف تتألف قلوبهم لمعونة المسلمين .

٢ - صنف تتألف قلوبهم للكف عن المسلمين .

٣- صنف تتألف قلوبهم لترغيبهم في الإسلام.

٤- صنف تتألف قلوبهم ترغيبا لقومهم وعشائرهم في الإسلام

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي السادة المطاعين في عشائرهم ،ثم جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومنع هذا السهم الخاص بالمؤلفة قلوبهم وذلك لزوال السبب بقوة دولة .

خامسا : في الرقاب :وهم عدة أنواع :

أ- نوع يأخذ من الزكاة لإعتاق العبيد به

ب- نوع يأخذ من الزكاة لفك أسرى المسلمين.

ج- نوع أخير وهو إعطا ء العبد الذي اتفق مع سيده على تقديم مال في سبيل إعتاقه فيعطى من الزكاة .

سادسا : الغارمون :هم الذين عليهم ديون لا يجدون وفاءها فيعطون وقاء ديونهم ولو كان كثيرا إلا أن يكونوا غرموه في معصية الله تعالى ، فلا يعطون حتى يتوبوا.

سابعا : في سبيل الله: ذهب جمهور الفقهاء إلى أن المقصود بهم هم الغزاة والمرابطين لحماية الثغور أي ما ينفق في لجهاد ، وفي **تفسير فخر الرازي** على أنها تشمل كل ما يعم مصالح المسلمين .

ثامنا : ابن السبيل :هو من انقطعت به الأسباب وكان في سفر بحيث لا يستطيع الانقطاع بحاله فيأخذ من الزكاة ولو كان غنيا لأنه ناء بعيد عن ماله.

ويهدف الإنفاق العام في الإسلام إلى جعل كلمة الله هي العليا وتقدم للمجتمع وتحقيق سياسة مالية معينة .

خصائص الزكاة : يمكن حصر أهم خصائص الزكاة في النقاط التالية :

1 -**زرع المحبة والمودة** بين الناس لأن الناس جبلت أنفسهم على محبة من أحسن إليهم .

2 - **دفع آفات المجتمع** كالجريمة والسرقة و البغض والحسد.

3 - **لم يترك أمر دفعها وجمعها للأفراد**،وإنما هو واجب الدولة،فهي تتولى مهمة جمعها أو تحصيلها وتوزيعها.

4 - **الملك التام** :وهو قدرة المالك على التصرف فيما يملك تصرفا تاما.

5 - **النماء** :بان يكون المال الذي تجب فيه الزكاة ناميا كنبات الأرض والأنعام أو قابلا للنماء وعروض التجارة والمعادن كالذهب والفضة .

6 -**النصاب** :هو مقدار معين من المال محدد شرعا لا تجب الزكاة في أقل منه.

7 -**حولان الحول**:يعني يكون قد مر على النصاب المدة المحدودة لاستحقاق الزكاة وهي الحول أي اثنا عشر شهرا.

8 -**الحرية**: فلا تجب الزكاة على العبد .

9 - **الإسلام**: فلا زكاة على الكافر بالإجماع .

10 - **البلوغ والعقل**: وهما شرطان للتكليف .

ثانيا : الفيء :

وهو كل مال منقول أُخذ من الكفار بغير قتال ، وبلا إيجاف خيل ولا ركاب.

و في الشرع : (الفيء كل مال وصل من المشركين عفواً من غير قتال ولا بإيجاف خيل ولا ركاب) .

وقد بيّن في القرآن أنه لله وللرسول صلى الله عليه وسلم.

أنواع الفيء:

1 – ما جلا عنه الكفار خوفاً من المسلمين من الأراضي ، والعقارات ، وهي تُوقف كالأراضي المغنومة بالقتال ، وتُقسم غلاتها كل سنَة ، **نصَّ عليه الشافعية** ، وفي ذلك خلاف.

2 – ما تركوه وجلُوا عنه من المنقولات ، وهو يُقسم في الحال ، ولا يوقف.

3 – ما أُخذ مِن الكفار من خَراج ، أو أجرة عن الأراضي التي ملكها المسلمون ، ودفعت بالإجارة لمسلم ، أو ذمي ، أو عن الأراضي التي أُقرت بأيدي أصحابها من أهل الذمَّة ، صلحاً ، أو عنوة على أنها لهم ، ولنا عليها الخراج.

ثالثا : الجزية

الجزية وهي : ما يُضرب على رقاب الكفار لإقامتهم في بلاد المسلمين ، فيفرض على كل رأس من الرجال البالغين القادرين مبلغ من المال ، أو يضرب على البلد كلها أن تؤدي مبلغاً معلوماً ، ولو أداها من لا تجب عليه : كانت **هبةً** ، **لا جزية** .

الجزية موضوعة على الرؤوس وتسقط بالإسلام ، وأما الخراج فهو **موضوع على الأراضي فلا يسقط.**

تعرف الجزية بأنها فريضة مالية يلتزم بها أهل الذمة الذين يعيشون في دولة الإسلام مقابل إعفاءهم من القتال وما يتمتعون به في دولة الإسلام من حماية وطمأنينة.

والجزية ليست من محدثات الإسلام بل هي قديمة وضعها **يونان أثينا** على سكان سواحل آسيا الصغرى (**تركيا حاليا**)حوالي **القرن الخامس قبل الميلاد** مقابل حمايتهم.

أما مقدار الجزية في الإسلام فقد كان النبي صلّى الله عليه وآله يقدّرها بحسب الأحوال وعلى مقتضى التراضي الذي كان يقع بين المسلمين وأعدائهم.

وتقبل الجزية من غير المسلمين أيّاً كانوا إلاّ إذا كانوا **من العرب عبدة الأوثان** أو **من المرتدّين**، فهؤلاء لا يقبل منهم إلا **الإسلام** أو **السيف**.

أما النصارى واليهود والمجوس و**عبدة الأوثان من العجم** فيقبل منهم الإسلام أو الجزية أو السيف، **له تفصيل مذكور في الفقه.**

يقول **الماوردي**[177] الفرق بين الجزية والخراج ثلاثة أوجه :

1 –الجزية نص والخراج اجتهاد .

2 –أقل الجزية مقدر بالشرع وأكثرها مقدر بالاجتهاد والخراج مقدر بالاجتهاد .

[177] – ابن القيم ، احكام اهل الذمة ، دار العلم للملايين ،بيروت،1961 ، ص: 57 .

3 – الجزية تأخذ مع بقاء الكفر وتسقط بحدوث الإسلام، بينما الخراج يؤخذ مع الكفر والإسلام .

خصائص الجزية :

على ضوء ما سبق يمكن حصر الخصائص فيما يلي :

1 –الجزية ضريبة شخصية تفرض على الشخص الذمي باعتبار إقامته في الدولة الإسلامية .

2 – الجزية ضريبة سنوية لا تجيء من الذمي إلا مرة في السنة .

3 –الجزية تجيء من الذمي فقط ، ولا تأخذ من المسلم المرتد .

شروط فرضية الجزية :

يشترط لفرض الجزية على الذمي توفره على مجموعة من الشروط

1 – **الذكورة والبلوغ**: ولا تجب الجزية على الصبي والمرأة لعدم الأهلية

2 –**الحرية**: لا تجب الجزية على العبد لأن العبد محقون الدم ولا مال له فهو أشبه بالنساء والصبيان والعاجز، فإن كان العبد لكافر فالأصح عدم وجوب الجزية عليه لأن أسيادهم قد تحملوا بسببهم زيادة في الجزية فلا يوجب عليهم أكثر من ذلك.

3 – **العقل**: لا تجب الجزية على المجنون لعدم الأهلية وهذا إذا كان جنونه مطبقا .

4 –**الصحة**: لا تجب الجزية على المريض إذا مرض السنة كلها أو أكثرها لأن الأكثر حكم الكل لأنه لا يقدر على القتال فلا تجب عليه الجزية .

5 –**القدرة على أداء الجزية** : حيث لا تجب على فقير غير معتل لا يعمل .

سقوط الجزية[178] :

إن الجزية كما بيناها بدل عن الحماية العسكرية التي تقوم بها الدولة الإسلامية لأهل ذمتها في المرتبة الأولى ، فإذا لم تستطع الدولة القيام بهذه الحماية لم يعد لها الحق في هذه الجزية .

وتسقط الجزية أيضا بإشراك أهل الذمة مع المسلمين في القتال والدفاع على دار الإسلام ضد أعداء الإسلام.

– **سقوطها بالإسلام** : من وجبت عليه **الجزية من الذميين** فأسلم **أثناء الحول أو بعده تسقط عنه عند الحنفية** ، وقال **الشافعي** إن أسلم بعد الحول **لم تسقط عنه**.

– **سقوطها بالموت** : ذهب **أصحاب المذهب الحنفي** أن الجزية تسقط بالموت سواء أكان بالموت في أثناء الحول أو بعد انتهائه، **وللمسألة فيها أقوال محل بسطها كتب الفقه .**

– **سقوطها بالتكرار** : قال **الأئمة** الثلاثة **(مالك والشافعي وأحمد)** أنه إذا اجتمع على الذمي جزية سنين استوفيت منه كلها، وقال **أبو حنيفة** إذا **اجتمع عليه حولان** تداخلت و**سقطت جزية السنة الأولى** .

[178] – شهيرة بقاش ، مرجع سابق ، ص: 85–86 .

رابعا : الخراج :

والخراج ما يوضع من الضرائب على الأرض أو محصولاتها، وهو أقدم أنواع الضرائب، والأصل في وضعه أن الناس كانوا يعتبرون الأرض ملكاً للسلطان أو الملك وهذا الاعتقاد قديم جداً.

وعلى هذا المبدأ كان **الرومان** يضعون الضرائب على أراضي مملكتهم، وفي جملتها مصر والشام وغيرهما مما فتحه المسلمون من بلادهم.

فلما ظهر المسلمون وفتحوا الشام ومصر والعراق وغيرها أقروا الدواوين على ما كانت عليه من قبل، ولم يغيّروا فيها شيئاً، وظل كتّاب الدواوين من أهل البلاد أنفسهم من النصارى والمجوس كما كانوا في عهد الدول السابقة.

أما ملكية الأرض فظلّت كما كانت عليه في أول الإسلام أي أن الأرض ملك للإمام، وأن الناس يستغلّونها وللحكومة حق من غلتهم. هذا في المفتوح عنوة وهي ملك المسلمين أما سائر الأراضي **فلأربابها**.

ومن الضرائب التي كانت تؤخذ (**المكوس**)، فلما ظهر الإسلام أقره عمر بن الخطاب وكانت هذه الضريبة لا تؤخذ من التاجر إلا إذا انتقل من بلاده إلى بلادٍ أخرى، ولم يرج المكس في الإسلام لأن أهل الورع كانوا يكرهونه.

يعرف الخراج على أنه ضريبة تفرض على الذمي في أرضه التي فتحها المسلمون عنوة ، فالخراج تكليف مالي يفرض على أرض الذمي التي فتحت تحت تصرفه أي تركها المسلمون تحت تصرف أصحابها.

إن الخراج يختلف عن الزكاة في أن للإمام الحق في أن يغير فئات الخراج كيف يشاء بما يحقق مصلحة الأمة ، وذلك أن حصيلة الخراج كانت تستعمل لمقابلة مرتبات الجند وللعطاء للأمة الإسلامية جمعاء بينما كانت محددة المصارف.

إن للخراج أهمية كبير ة للدولة الإسلامية بما توفره من جزء كبير من الإيرادات.

خصائص الخراج :

يمكن إجمالها في النقاط التالية :

1 -الخراج مورد من موارد الدولة ويهدف لتحقيق التوازن الاجتماعي بين من يملكون ومن لا يملكون في الزمن الواحد .

2 -الخراج ضريبة سنوية تجيء مرة في السنة .

3 -الخراج ضريبة إقليمية .

4 -الخراج ضريبة صغار تفرض على الذمي صغارا له، وهي ضريبة أرض وعامة .

وعاء ضريبة الخراج :

تفرض الضريبة على الأرضين وقد أجمع الفقهاء على أن الأرض التي يستولي غليها المسلمون ويفرض عليها الخراج صنفان :

1 -**الأرض التي فتحت صلحا** : هذه الأرض يتحدد حكمها على أساس ما جاء في عقد الصلح، ويمكن أن ينص في العقد على أن يصبح ملكا للمسلمين، وإما على أن تبقى لأصحابها. ففي الحالة الأولى تدخل في أملاك الدولة ، وفي الحالة الثانية يوضع عليها الخراج ويؤدي إلى بيت المال.

2 – **الأرض التي فتحت عنوة** :وهذه إذا أسلم أهلها فإن الخراج لا يسقط بإسلامهم ، فمن أسلم منهم فله الخيار في أرضه إن شاء أقام فيها يؤدي عنها ما كانت تؤدي ، وإن شاء تركها فيأخذها الإمام مع ما في يديه .

مقدار الخراج :

يختلف مقدار الخراج باختلاف أمور ثلاثة :

أ – درجة خصوبة الأرض فيزيد الخراج على الأراضي الجيدة ذات الإنتاج الوفير عنه في الأراضي غير الخصبة ضعيفة الإنتاج .

ب– نوع المحاصيل المزروعة بالأرض .

ج – الطريقة التي تروى بها الأرض فإن ما تلزمه مؤونة في سقيه لا يتحمل من الخراج مثلا ما يتحمله سقي الزرع بالأمطار و السيول ، فلابد لواضع الخراج مراعاة اختلاف الأرضين .

خامسا : الغنيمة :

الغنيمة :ما يكسبه المسلمون بالقتال، وتشتمل على أربعة أقسام:

أسرى وسبي وأموال وأرضين.

1 – **فالأسرى** هم الرجال المقاتلون الذين يقعون في الأسر، ولهم في الشريعة الإسلامية شروط وأحكام.

2 – وأما **السبي** فهم النساء والأطفال الذين يقعون في أيدي المسلمين فلا يجوز قتلهم وإنما هم من جملة الغنائم ويجوز قبول الفدية عنهم.

3 – أما **الأموال المنقولة** فهي ما يمكن نقله كالماشية والمال وهي تفرق في المقاتلة، وكانت تفرق في أول الإسلام بلا قاعدة فكان النبي يقسمها على ما يراه.

وأول غنائمهم **غنائم بدر في السنة الثانية للهجرة** فتنازع المهاجرون والأنصار في اقتسامها ففرقها النبي (صلّى الله عليه وآله) فيهم على السواء، وهو كواحد منهم. ثم جاء **الأمر بالتخميس** في الآية: (**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لله خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ**).

و**أول غنيمة خُمِّست** على هذه الصورة **غنيمة غزوة بني قينقاع** بتلك السنة فقسّمت أموالها إلى **خمسة أقسام** تفرقت **أربعة منها في المقاتلة، والخمس الخامس كان للنبي** صلّى الله عليه وسلم.

ويعدُّ من قبيل الأموال أيضاً **الأسلاب** وهي **ثياب القتلى أو أسلحتهم** فهذه كانوا يفرقونها بين المقاتلين **فيأخذ كل رجل أسلاب الذي قتله.**

4 – وأما **الأراضي** التي كانت تقع في أيديهم عنوة أو صلحاً، **فلها أحكام خاصة مذكورة في كتب الفقه.**

ب. **خُمس الغنائم المنقولة** ، **والغنيمة** : هي كل مال أُخذ من الكفار بالقتال ، ما عدا الأراضي والعقارات ، فيورد **خُمسها لبيت المال** ، ليصرف في مصارفه ، قال الله تعالى : (**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لله خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ**) الآية.

ج. **خُمس الخارج** من الأرض من المعادن ، من الذهب ، والفضة ، والحديد ، وغيرها ، وقيل : مثلها المستخرج من البحر من

لؤلؤ ، وعنبر ، وسواهما.

د. **خُمس الركاز (الكنوز)** ، وهو كل مال دُفن في الأرض بفعل الإنسان ، والمراد هنا : كنوز أهل الجاهلية ، والكفر ، إذا وجده مسلم : فخُمسه لبيت المال ، وباقيه بعد الخُمس لواجده.

سادسا : العشور: نتناول في هذا العنصر ضريبة العشور ومقدارها وشروطها .

ضريبة العشور :

العشور ضريبة تفرض على أموال التجارة الصادرة من البلاد الإسلامية و الواردة إليها ، **والضرائب الجمركية** هي ما عرف في الفقه الإسلامي **باسم العشور** ، وهو ما يؤخذ على التجارات التي تمر بثغور الإسلام داخلة أو خارجة سواء مر بها مسلم أو معاهد أو الذمي .

وذلك بواسطة الدولة وهي تطبيق لمبدأ المعاملة بالمثل حيث كان التجار المسلمين تفرض عليهم ضرائب عند دخولهم أو مروهم بديار الكفر .

وقد تطور مفهوم العشور في عهد هارون الرشيد ليتمثل كذلك تجارة الكفار العابرة للبلاد الإسلامية (وهي تماثل رسوم العبور في الوقت الراهن) .

مقدار ضريبة العشور :

العشور ضريبة بمقتضاها يحق لدولة الإسلام اقتضاء **عشر** من تلك التجارات التي تمر بوطن الإسلام إن كانت مملوكة لغير مسلم . ولقد نشأ هذا النوع من الضرائب الإسلامية نتيجة مبدأ المعاملة بالمثل[179] .

سياسة الإسلام في العشور :

اتبع المسلمون في فرض العشور سياسة حكيمة تصلح أن تكون نواة صالحة لعلاقة اقتصادية عظيمة ، لو اتبعها المصلحون ونهجو على منوالها إذا راعـوا في فرضها المصلحة أيا كانت وأحاطوا بسياج منيع من العدل والرفق وعدم الإرهاق حتى لنراهم في كثير من الأحيان لا يشتدون في أخذها من غيرهم .

فمن ذلك إذا أخذ الحربيون من تجار المسلمين كل ما معهم فإنهم لا يعاملونهم بمثل هذه المعاملة القاسية ، يتركون لهم فضلا يوصلهم إلى مأمنهم .

كذلك قرروا بعض الأصناف التي ترد للمسلمين إذا كان لهم إليها حاجة فإن الضريبة تخفض بالنسبة لها ، وقد تقتضي المصلحة بعدم أخذ هذه الضريبة إذا كان المسلمون في شدة الحاجة لما يدخل بلادهم .

والحكمة في هذا الإعفاء واضحة لأنهم نظروا فوجدوا أن الضريبة وان كان يدفعها التاجر إلا أنه يضيفها على ثمن بضاعته فيكون الدافع لها في الواقع هو المستهلك وفيه ما لا يخفى من الضرر عليه ولا يؤخذ العشر منهم إلا مرة واحدة في السنة .

وعلى **العاشر** أن يكتب لهم وثيقة بذلك تكون حجة لهم إذا مروا بعاشر آخر فلا يأخذ منهم مرة أخرى .

---

[179] – سعيد أبو الفتوح،الحرية الاقتصادية في الإسلام، دار الوفاء،القاهرة،1988،ص:185.

1 – **عشور أهل الذمة** :وهي ضريبة تؤخذ منهم عن أموالهم التي يترددون بها متاجرين إلى دار الحرب ، أو يدخلون بها من دار الحرب إلى دار الإسلام ، أو ينتقلون بها من بلد في دار الإسلام إلى بلد آخر ، تؤخذ منهم في السنَة مرَّة ، ما لم يخرجوا من دار الإسلام ، ثم يعودوا إليها. ومثلها : عشور أهل الحرب من التجار كذلك إذا دخلوا بتجارتهم إلينا **مستأمنين**.

2 – **ما صولح عليه الحربيون** من مال يؤدونه إلى المسلمين.

3 – **مال المرتد إن قُتل** ، أو مات ، ومال الزنديق إن قتل أو مات ، فلا يورث مالهما ، بل هو فيء ، وعند الحنفية في مال المرتد تفصيل.

4 – **مال الذمي إن مات ولا وارث له** ، وما فضل من ماله عن وارثه : فهو فيء كذلك.

5 – **الأراضي المغنومة بالقتال** ، وهي الأراضي الزراعية ، عند من يرى عدم تقسيمها بين الغانمين.

6– **غلاَّت أراضي بيت المال** ، وأملاكه ، ونتاج المتاجرة ، والمعاملة.

7– **الهبات** ، والتبرعات ، والوصايا ، التي تُقدم لبيت المال للجهاد ، أو غيره ، من المصالح العامة.

8 – **الهدايا التي تقدم** إلى القضاة ممن لم يكن يُهدي لهم قبل الولاية ، أو كان يُهدي لهم لكن له عند القاضي خصومة ، فإنها إن لم ترد إلى مُهديها ترد إلى بيت المال ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ من " ابن اللتبية " ما أُهدي إليه.

وكذلك الهدايا التي تقدم إلى الإمام من أهل الحرب ، والهدايا التي تقدم إلى عمال الدولة ، وهذا إن لم يعط الآخذ مقابلها من ماله الخاص.

9 – **الضرائب الموظفة على الرعية لمصلحتهم** ، سواء أكان ذلك للجهاد ، أم لغيره ، ولا تضرب عليهم إلا إذا لم يكن في بيت المال ما يكفي لذلك ، وكان لضرورة ، وإلا كانت مورداً غير شرعي.

10 – **الأموال الضائعة** ، وهي مال وجد ولم يمكن معرفة صاحبه ، من لُقَطة ، أو وديعة ، أو رهن ، ومنه : ما يوجد مع اللصوص ، ونحوهم مما لا طالب له ، فيورد إلى بيت المال.

11 – **مواريث مَن مات مِن المسلمين بلا وارث** ، أو له وارث لا يرث كل المال – عند من لا يرى الرد – ومَن قتل وكان بلا وارث : فإن ديته تورد إلى بيت المال ، ويصرف هذا في **مصارف الفيء**. وحق بيت المال في هذا النوع هو على سبيل الميراث عند الشافعية والمالكية ، أي : على سبيل العصوبة ، وقال الحنابلة والحنفية : يرد إلى بيت المال فيئاً ، لا إرثاً.

12 – الغرامات ، والمصادرات : وقد ورد في السنَّة تغريم مانع الزكاة بأخذ شطر ماله ، وبهذا يقول إسحاق بن راهويه ، وأبو بكر عبد العزيز ، وورد تغريم مَن أخذ من الثمر المعلَّق وخرج به ضعف قيمته ، وبهذا يقول الحنابلة ، **وإسحاق بن راهويه** :(والظاهر أن مثل هذه الغرامات إذا أُخذت : تنفق في المصالح العامة ، فتكون بذلك من حقوق بيت المال).

وورد أن عمر رضي الله عنه صادر شطر أموال بعض الولاة ؛ لَمَّا ظهر عليهم الإثراء بسبب أعمالهم ، فيرجع مثل ذلك إلى بيت المال أيضاً .

ومِن **موارد بيت مال المسلمين في العصر الحديث** : الموارد الطبيعية المكتشفة في أراضي الدولة ، من نفط ، وغاز طبيعي ، ومعادن ... إلخ ، وقلَّ من دولة إلا وفيها مثل هذه الموارد.

ويضاف إلى هذه الموارد أيضاً : ما تأخذه الدولة مقابل ما تقوم به من مشروعات زراعية أو صناعية أو تجارية أو خدمات تقدمها للناس ، كالكهرباء والهاتف والمياه ... الخ. وبهذا يتبين أن الموارد المالية لبيت مال المسلمين كثيرة جداً.

الفرع العاشر : النظام العسكري (الجيش ، الأسطول)

أولا : الجيش في الحضارة الإسلامية :

كان الإسلام دين دعوة ورحمة، ولم يكن دين سيف و قهر، وإنما تقوم الحرب في الإسلام على كره من المسلمين، وذلك للدفاع عن عقيدة الأمة، وعن سلامة الشعب وحريته واستقلاله[180]. وقد دحض كثير من المستشرقين المنصفين الزعم بانتشار الإسلام بالسيف، يقول اغوستاف لوبون "Gustav Lebono " الفرنسي في كتابه (حضارة العرب):

(سيرى القارئ حين نبحث في فتوح العرب وأسباب انتصارهم، أن القوة لم تكن عاملا في انتشار الإسلام، فقد ترك العرب المغلوبين أحرارا في أديانهم).

وقال "روبرتسن" " Robrtson " في كتابه (تاريخ شارلكان) :(إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وإنهم مع امتشاقهم الحسام نشر الدينهم تركوا من لا يرغبون فيه أحرارا في التمسك بتعاليمهم الدينية).

وقال "ميشود"، في كتاب (تاريخ الحروب الصليبية) :"إن القرآن الذي أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وقد أعفى البطاركة والرهبان و خدمهم من الضرائب، وحرم محمد قتل الرهبان لعكوفهم على العبادات، ولم يمس عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس، وعلى خطاه فعل ذلك صلاح الدين الأيوبي؛ على عكس ما فعله الصليبيون الذين ذبحوا المسلمين وحرقوا اليهود بلا رحمة عندما دخلوها".

والحق أن الحرب حل يفرضه الأعداء على المسلمين بعد استنفاد كل الوسائل السلمية، وأول خطوة تجب على المسلمين قبل الوصول إلى مرحلة القتال هي القيام بواجب الدعوة؛ فلا يجوز لأمير أن يبدأ قتال العدو، إلا إذا بلغه الدعوة، قال تعالى: **(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا)** (الإسراء: 10). وكان الرسول إذا أرسل سرية لقتال الأعداء من غير المسلمين، قال لأميرها: إذا لقيت عدوك فادعهم إلى ثلاث خصال، فأيهن أجابوك إليها، فاقبل منهم وكف عنهم:

1 –ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم.

2 – فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية فإن أجابوا فاقبل منهم.

3 – فإن أبوا، فاستعن بالله وقاتلهم.

فإذا امتنع العدو – ولنلاحظ هنا كلمة العدو – فهو متربص بالمسلمين أصلا، وليس داعية سلام وأمان؛ من قبول الإسلام أو إقرار الجزية، قاتله الأمير.

ومع ذلك إذا فرضت الحرب على المسلمين، فهي ليست حرب إبادة جماعية، بل لها آدابها وقوانينها الإسلامية الدقيقة، فقد كان الخلفاء ينهون عن قتل الشيوخ والصبيان والنساء والعبيد والفلاحين ورجال الدين؛ لأنهم لا يشتركون في الحرب)[181]، تطبيقا لقوله تعالى **(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)** البقرة : 190.

---

[180] – وهبه الزحيلي: آثار الحرب في الفقه الإسلامي، دار الفكر، دمشق، 1998، ص63.

[181] – العجلاني: عبقرية الإسلام في أصول الحكم، ص346.

ونهوا عن التمثيل بالقتلى وقطع الأشجار المثمرة وإحراق النخيل، وعن ذبح شياه العدو وبقره ويعيره لمجرد الانتقام، وكانوا يكرهون كذلك تخريب البيوت وتحريقها.

وصية أبي بكر:

ومن أجمع الوصايا في آداب الحرب وصية أبي بكر، التي أوصى بها أسامة بن زيد ومن معه لما أنفذهم في بعث إلى الشام، يقول فيها:

(لا تخونوا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة، ولا تغدروا ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، اندفعوا باسم الله[182].

وقد نهى الرسول عن النهب...روى عن رجل من الأنصار أنه قال: خرجنا مع رسول الله في سفر فأصاب الناس حاجة شديدة وجهد؛ فأصابوا غنما فانتهبوها، فإن قدورنا لتغلي إذ جاءنا رسول الله يمشي فأكفأ القدور بقوسه ثم جعل يرمل اللحم بالتراب ثم قال :"إن النهيبة ليست باحل من الميتة"[183].

الجيش الإسلامية :

في عهد النبي والخلفاء الراشدين كان جميع المسلمين القادرين على القتال أفرادا في الجيش، فكان إذا دعي للجهاد خرج كل قادر على حمل السلاح، وقد يصحب الجيش بعض النساء المؤمنات لخدمة الجند أو تمريضهم وربما لحمل السلاح إذا لزم الأمر، وكان لكل حملة أو معركة أمير ونائب له.

وكان عمر بن الخطاب اول من سجل أسماء الجند وحدد أعطياتهم أو مرتباتهم في ديوان خاص بهم.

وقد ظل العرب هم العنصر الغالب في الجند في عصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموي، وقد استمر الجند يحصلون على أعطيات في العصر الأموي.

وظل الجند يأخذون أجورهم على هيئة مرتبات من خزينة الدولة، وفي عهد المقتدر (290- 320هـ) وزع الأمصار بين العمال والقواد على أن يدفعوا أرزاق الجيش من موارد بيوت المال المحلية.

وفي العهد البويهي 333(- 440هـ) صارت الأرض تعطي أرزاقا للجنود بدلا من المال النقدي؛ وكان ذلك تمهيدا لنظام الإقطاع الذي استقر في عصر نظام الملك السلجوقي (ت 480 هـ) فصار الجند يقطعون الأراضي ويأخذون عائدها كأجر؛ على أن يؤدوا جزءا من الإيراد إلى الدولة[184].

وينقسم الجيش الإسلامي من حيث التسليح إلى عدة أقسام، هي:

---

[182]- المرجع السابق، ص246.

[183]- نفس المرجع ، ص 248.

[184]- حسن الباشا: دراسات في الحضارة الإسلامية، ص79.

- **الفرسان (الخيالة)**: وهم السلاح الطليعي وأداة حسم المعركة، وتألفت منهم معظم الجيوش العربية في العهود الإسلامية الأولى، والفرسان عصب الجيش...مهمتهم الرئيسية الهجوم واستطلاع ومطاردة العدو، وقطع طرق العودة عليه.

- **ثم المشاة (الرجالة)**: ويأتي دورهم بعد هجوم الفرسان، يقاتلون العدو ويلتحمون معه لتحطيم قوته الرئيسية، ويؤلف المشاة القسم الأعظم من قوة الجيش، وأسلحتهم خفيفة ؛ لأنهم يسيرون على أقدامهم[185].

- **الحرس الخاص**: ومهمتهم حراسة الخليفة أو أمير الجيش.- الغلمان: فرقة مهمتها خدمة الخليفة، وهي فرقة مدربة على مختلف الفنون الحربية.

- **النشابون أو الرماة (حملة الأقواس)**: وهم فرق مستقلة من الرماة تجيد الرماية إلى درجة كبيرة بالنبل لإيقاع أكبر الخسائر في صفوف العدو، ودورهم في الدفاع أكثر منه في الهجوم؛ لأن الرامي يكون في حالة الوقوف والثبات أكثر دقة في الرمي...

- **النفاطون**: الذين يرمون النفط لإحراق حصون الأعداء...

- **المنجنيقيون**، رماة المنجنيق: وكانوا يسمون أيضا المهندسين.

- **والعيارون**: وهم رماة الأحجار بوساطة المخالي[186]

وإلى جانب فرق هذه الأسلحة هناك فرق أخرى مساعدة مثل الأدلاء، والحاشر؛ ومهمته حشر الجند وعدم السماح لأحدهم بالتخلف وحماية الساقة من الخلف.

والعيون وهم: فرقة استطلاع مهمتها رصد تحركات العدو، والحصول على أخبار عنه لازمة للجيش...والفعلة : المهندسون، المعماريون، العمال الذين يقومون بتعهد الجمال والخيل وحزم الأمتعة وحراستها في المسير والإقامة، وتمهيد الطرق وحفر الخنادق والقبور، وسد الطرق الجبلية في أثناء عمليات القتال، وإقامة القناطر والجسور إلى غير ذلك [187].

وأخيرا هناك القراء والوعاظ والشعراء الذين يقومون بتحميس الجيش على القتال، وحفز همته، وتذكيره بالصحابة والتابعين؛ الذين فتحوا العالم تحت راية التوحيد رضى الله عنهم أجمعين.

ثانيا : الأسطول في الحضارة الإسلامية :

نشأة البحرية الإسلامية :

لم تظهر حاجة المسلمين للبحر في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وعهد الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، ولكن اتسعت الفتوحات الإسلامية حتى أصبحت الحاجة لركوب البحر موجودة لدى الجيوش الإسلامية، إلا أن الخليفة عمر بن الخطاب كان يمانع في ذلك ويعتبرها جزء من المغامرة بل ويعاقب من يخالفه من الولاة بالعزل أو التوبيخ.

فقد عزل **العلاء بن الحضرمي** عن **البحرين** لأنه خاض بالجيش البحر ،وعندما ظهرت الحاجة للمسلمين في **عام الرمادة** طلب من عمرو بن العاص أن يشق الخليج الذي عُرف بخليج أمير المؤمنين لتصل به المؤنة من مصر إلى الحجاز .

---

[185]- ينظر في موضوع القتال في الإسلام، وآداب الحروب في الحضارة الإسلامية: عباس محمود العقاد: أثر العرب في الحضارة الأوروبية، ص 25- 27.

[186]- رجعنا في هذه الصفحات إلى الكتاب الأكاديمي الجيد لجامعة القدس المفتوحة بالأردن (الحضارة الإسلامية) وهو مقرر أكاديمي بالجامعة، ص 104- 107.

[187]- المرجع السابق، ص107.

استغل معاوية بن أبي سفيان ذلك وبدأ يطالب بإنشاء الأسطول الإسلامي ويهون ذلك على الخليفة بقوله: (**إن قرية من قرى حمص ليسمعُ بنباح كلابهم ، وصياح دجاجهم**) فطلب الخليفة من والي مصر عمرو بن العاص أن يصف له البحر فقال:(**إني رأيت خَلْقًا كبيرًا يركبه خلْقٌ صغير، إن رَكُن خَرَق القلوب، وإن تحرّك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قِلَّة، والشكّ كثرة، هم فيه كدود على عود، إن مال غَرِق، وإن نجا بَرِق**).

فقال الخليفة الفاروق(**والذي بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً ، وبالله لمسلمٌ واحدُ أحب إلي مما حوت الروم**) .

وفي عهد الخليفة عثمان بن عفان ظهرت المطالب بضرورة خوض البحر من **والي** الشام **معاوية بن أبي سفيان ووالي** مصر(**عبد الله بن أبي السرح**) فوافق الخليفة لوقف سيطرت الروم على البحر فقامت المدن البحرية بإعداد السفن في مصر والشام وحدثت أول معركة بحرية في بحر الروم .

من أول من أنشـأ الأسطول البحري الاسلامي ؟

لم يكن للمسلمين عهد بركوب البحر أو الحرب في أساطيله، لكنهم وجدوا من خلال فتوح بلاد الشام أن الأسطول البيزنطي مصدر تهديد خطير ومباشر لأمنهم وأمن المناطق المفتوحة واستقرار الإسلام فيها، فأدركوا أن بناء أسطول إسلامي ضرورة **إستراتيجية حيوية**، وأول من أقترح بناء أسطول بحري إسلامي كان معاوية بن أبي سفيان والي بلاد الشام على الخليفة عمر بن الخطاب ولكن لم يتم بناء أسطول عسكري إسلامي إلا في عهد الخليفة عثمان بن عفان فكانت نواة هذا الأسطول من السفن التي وجدوها في موانئ الشام ومصر، ثم انطلقوا إلى صناعة السفن في دور الصناعة، وهكذا دخل السلاح البحري في **الإستراتيجية** العسكرية الإسلامية لأول مرة في تاريخ المسلمين، وبدأ هذا السلاح الناشئ بسرعة مذهلة في ممارسة العمليات البحرية.

وكان من الطبيعي ألا تقف **بيزنطة مكتوفة** الأيدي أمام تلك القوة البحرية التي قامت في البحر الأبيض المتوسط، وأصبح تحت يدها أغلى ما كانت تملك من دور للصناعة وقواعد بحرية في عكا والإسكندرية، مما يشكل تهديداً خطيراً لسيادتها التي امتدت زمناً بلا منافس.

واتخذت العمليات البحرية للأسطول الإسلامي شكلين:

1 – عمليات تستهدف غزو جزر البحر الأبيض ذات **الأهمية الإستراتيجية** في تأمين الشام ومصر.

2 – عمليات القتال البحري ضد أسطول بيزنطة مثل معركة ذات الصواري عام (35 هـ/ 655 م). قبالة ساحل ليقيا في فينيقية البحر الأبيض المتوسط ،و تم انتصار المسلمين .

قصة أول أسطول بحري في الإسلام :

كانت **قبرص ولايةً بيزنطيةً** عاصمتها **قسطنطينا "سلاميس القديمة"**، ويدين سكان **قبرص** بالعقيدة **النصرانية الأرثوذكسية**.

وكان معاوية بن أبي سفيان يرىٰ فتحها حماية للثغور البحرية التي فتحها المسلمين، وبداية لامتداد الفتح الإسلامي ليشمل الدولة البيزنطية نفسها.

لماذا فكر معاوية بن أبي سفيان في غزو البحر؟

عندما فتح المسلمون الثغور البحرية، أضحت عرضةً لهجمات البيزنطيين المنطلقين من الجزر القريبة، ونظرًا لأن الصراع العسكري بين المسلمين والبيزنطيين كان بأحد وجهيه بحريًّا .

أدرك معاوية بن أبي سفيان أهمية بناء أسطول إسلامي بهدف: تأمين السواحل، غزو الجزر البحرية المواجهة لساحل بلاد الشام، للدفاع عن المناطق الداخلية المفتوحة.واستمرار العلاقات التجارية الخارجية مع دول البحر المتوسط، وبخاصَّةٍ أنَّ **هذا البحر** كان لا يزال **تحت قبضة البيزنطيين**.

حدث في **أواخر أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه**، وكان رافض لغزو المسلمين البحر، وأوائل عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه لقد استعاد البيزنطيون بعض المدن الساحلية.

كما استردوا مدينة الإسكندرية، فأدرك معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أنه لا بد من إنشاء أسطول إسلامي للتصدي للخطر البيزنطي.

و تم فتح الجزر البحرية التي ينطلق منها العدو، واتخاذها قواعد انطلاق لغزو القسطنطينية وهو الهدف الأسمىٰ للمسلمين.

نجح معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه في إقناع عثمان بن عفان بـ **غزو البحر**، وسمح له بغزو قبرص علىٰ أن يحمل معه امرأته **"فاختة بنت قرظة" وولده**.

حتىٰ يعلم أن البحر هين كما صوره له، وأمره بعدم إجبار الناس علىٰ الركوب معه إلا من **اختار الغزو طائعًا**.

لماذا رفض عمر بن الخطاب غزو البحر بينما وافق عثمان بن عفان؟

عندما كان معاوية بن أبي سفيان واليًا علىٰ الشام في عهد خليفة المسلمين الثاني عمر بن الخطاب، كانت فكرة غزو البحر مسيطرة عليه، إلا أن الفاروق رفض الفكرة تمامًا خوفًا علىٰ المسلمين.لاحظ معاوية بن أبي سفيان، وهو ينازل الروم باستمرار، أن قوتهم في البحر هي العامل الأساسي في بقائهم.

وأن التهديدات البرية للروم لا قيمة لها إذ أن المدن الساحلية في الشام معرضة باستمرار للتهديد؛ لذا فلابد من إقامة قوة إسلامية بحرية توقف سلطان الروم البحري عند حده.

وأحب قبل القيام بهذا المشروع استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب؛ فكتب له: (**يا أمير المؤمنين إن بالشام قرية يسمع أهلُها نباحَ كلاب الروم وصياح ديوكهم، وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص فإن أذنت بركوب البحر**).

فكتب عمر بن الخطاب إلىٰ عمرو بن العاص رضي الله عنهما ليصف له البحر، فأجابه:(**إني رأيت خَلْقًا كبيرًا يركبه خلْقٌ صغير، إن رَكُن خَرَق القلوب، وإن تحرّك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قِلّة، والشكّ كثرة، هم فيه كدود على عود، إن مال غَرِق، وإن نجا بَرِق**).

فلما قرأ عمر هذا الوصف كتب إلى معاوية: "لا والذي بعث محمدًا بالحق لا أحمل فيه مسلمًا أبدًا.. وتالله لمسلمٌ أحبُّ إليَّ مما حَوَتِ الروم، فإياك أن تعرض لي، وقد تقدمت إليك، وقد علمت ما لقي العلاء مني، ولم أتقدم إليه في مثل ذلك." بعد استشهاد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وتولي عثمان بن عفان خلافة المسلمين، استمر معاوية **واليًا** للشام.

وظلت فكرة غزو البحر تؤرقه، فأرسل للخليفة عثمان بن عفان يستأذنه، فرفض، فلم يزل به معاوية حتى عزم على ذلك، ولكن قال له :(لا تنتخب الناس ولا تُقْرِعْ بينهم، خيِّرهم فمن اختار الغزو طائعًا فاحمله وأعنه) .

ففعل واستعمل على البحر **عبد الله بن قيس الحارثي** حليف **بني فزارة**، وأصبحت السفن تُبنى في **عكَّا** و**صور** و**طرابلس** على **سواحل بلاد الشام**.

لماذا وجد معاوية بن أبي سفيان حماسة من المسلمين لغزو البحر؟

لما انتدب معاوية المسلمين لغزو البحر، خرجوا معه وكأنهم مشتاقين لهذه الغزو، والسبب في ذلك حديث لرسول الله صل الله عليه وسلم، يبشر أول جيش للمسلمين يغزو البحر بالجنة.

روى البخاري رحمه الله في صحيحه من طريق أنس بن مالك عن خالته **أم حرام بنت ملحان** قالت: (نام النبي صل الله عليه وسلم يومًا قريبًا مني، ثم استيقظ يبتسم، فقلت: ما أضحك؟

قال: أناس من أمتي عرضوا علي يركبون هذا البحر الأخضر كالملوك على الأسرة، قالت: فادع الله أن يجعلني منهم، فدعا لها، ثم نام الثانية، ففعل مثلها فقالت قولها، فأجابها مثلها، فقالت: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: أنت من الأولين) .

وفي رواية أخرى، أخرجها البخاري أيضًا، من طريق أم حرام بنت ملحان رضي الله عنها قالت: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:(**أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا**) .

قالت أم حرام: قلت: يا رسول الله أنا فيهم؟، قال: أنتِ فيهم، ثم قال النبي صل الله عليه وسلم:(أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر ـ أي القسطنطينية ـ مغفور لهم)، فقلت: (أنا فيهم يا رسول الله؟ قال: لا) .

ومعنى **أوجبوا**: أي فعلوا فعلاً وجبت لهم به الجنة، فخرجت **بنت ملحان** مع **زوجها عبادة بن الصامت** غازيًا **أول ما ركب** المسلمون **البحر** مع **معاوية رضي الله عنه**.

فلما انصرفوا من غزوتهم قافلين فنزلوا الشام، فَقُرِّبَت إليها دابة لتركبها فصرعتها **فماتت**.

أول أسطول بحري في الإسلام وفتح قبرص :

عندما وافق خليفة المسلمين الثالث عثمان بن عفان على غزو البحر، بدأ معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه في إعداد أول أسطول بحري في عهد الإسلام.

فقام بإصلاح المراكب التي استولى عليها المسلمون من **البيزنطيين**، وتقريبها إلى ساحل حصن **عكَّا** الذي أمر بترميمه، كما رمَّم **ثغر صور**.

وكتب معاوية إلى أهل السواحل أن يستعدوا **لغزو قبرص** التي اختارها هدفًا عسكريًّا لنشاط الأسطول الإسلامي؛ بفضل **وضعها الجغرافي** المتميز آنذاك كقاعدةٍ **لغزو القسطنطينية** فيما بعد.

خرج معاوية على رأس حملته الأولى على جزيرة قبرص في عام (28هـ - 649م)، وتألّف الأسطول الإسلامي من مائةٍ وعشرين(120) **مركبًا** بقيادة **عبد الله بن قيس** رضي الله عنه.

وخرج معه جمعٌ من الصحابة منهم **أبو ذر الغفاري**، و**عبادة بن الصامت**، و**زوجته أم حرام**، و**المقداد بن الأسود** وغيرهم رضي الله عنهم.

صادف الأسطول الإسلامي - وهو في طريقه إلى قبرص - بعض **المراكب البيزنطية المحمَّلة بالهدايا**، وقد بعث بها **ملك قبرص** إلى **الإمبراطور قنسطانز الثاني**، فاستولى **المسلمون عليها** .

وعندما وصل الأسطول الإسلامي إلى **قبرص رسا على ساحلها**، وأغار الجنود المسلمون على نواحيها، **وغنموا الكثير من أهلها**.

واضطر **ملك قبرص** في ظلِّ عجزه عن المقاومة إلى **طلب الصلح**، فصالحه معاوية بن أبي سفيان على أن:

1 - يؤدي أهل الجزيرة جزيةً سنويةً مقدارها سبعة آلاف دينار.

2- كما يُؤدُّون للبيزنطيين مثلها، وليس للمسلمين أن يحولوا بينهم وبين ذلك.أيضًا من شروط معاهدة الصلح ما بين معاوية وملك قبرص:

3 - يمتنع المسلمون عن غزو الجزيرة.ولا يُقـاتلون عن أهلها من أرادهم من ورائهم .

4 - يُعلم أهلُ الجزيرة المسلمين بتحركات **البيزنطيين المعادية لهم**.

5 - يُعيِّن المسلمون على أهل الجزيرة بطريقًا منهم.

جدير بالذكر أن هذه **المعاهدة خُرقت** من **قبل القبرصيين** عام (32هـ - 653م)، حين ساعد **أهلُ الجزيرة البيزنطيين** في حربهم **ضدَّ المسلمين**، و**أعطوهم بعض المراكب من أجل ذلك، فنقضوا الصلح المبرم بينهم وبين المسلمين**.

قام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه بغزو الجزيرة للمرَّة الثانية في عام (33هـ - 654م) **ففتحها عنوة**، و**أخذ السبي منها** و**أقرَّ أهلها على صلحهم** .

وعمد إلى تمصيرها واستقرار المسلمين فيها، **فبعث إليها اثني عشر ألفًا** من أهل **الديوان المكتتبين فبنوا بها المساجد**، كما نقل إليها جماعة من **أهل بعلبك**، و بنى بها **مدينة**، وأقاموا **يُعطون الأعطيات إلى أن تُوفي**.

عثمان بن عفان وإنشاء أول أسطول بحري إسلامي :

يرجع الفضل لذي النورين ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان - رضي الله عنه- في إنشاء أول أسطول بحري إسلامي .. وكان معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه- يلح على عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أثناء خلافته أن يركب البحر **ويفتح قبرص**؛ فكتب الفاروق إلى عمرو بن العاص -والي مصر- : (صف لي البحر وراكبه، فإنّ نفسي تنازعني إليه)، فكتب عمرو إلى عمر: (إني رأيت خَلْقًا كبيرًا يركبه خلْقٌ صغير، إن رَكُن خَرَق القلوب، وإن تحرّك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قِلَّة، والشكّ كثرة، هم فيه كدود على عود، إن مال غَرِق، وإن نجا بَرِق)، فلما قرأه عمر، كتب إلى معاوية: (لا والذي بعث محمدًا بالحق، لا أحمل فيه مسلمًا أبدًا..).

وفي عهد عثمان، كرر معاوية الإلحاح في طلبه ركوب البحر حتى استُجيب لطلبه، إذ وجه الخليفة إليه الأمر ومعه **عبدالله بن أبي السرح** بالتعاون لتوفير كل الإمكانات اللازمة لبناء أسطول بحري إسلامي لصدِّ هجمات الروم على سواحل مصر والشام لتأمين حدود الدولة الإسلامية براً وبحراً .. وقد كانت نواة هذا الأسطول من السفن التي وجدوها في موانئ الشام ومصر وبخاصة **الأسكندرية وعكا**، ثم انطلقوا إلى **صناعة السفن في دور الصناعة**، وهكذا دخل السلاح البحري في **الإستراتيجية العسكرية الإسلامية لأول مرة في تاريخ المسلمين**، وبدأ هذا السلاح الناشئ بسرعة مذهلة في ممارسة العمليات البحرية ..

وقد صدَّ هذا الأسطول هجمات الروم المتلاحقة؛ وتعد أهم تلك المعارك التي وقعت في عهد عثمان موقعة «ذات الصواري» عام 34هـ ؛ حيث جمع الروم فيها جيشاً مكون من **خمسمئة أو ستمئة سفينة** -بحسب الطبري- لمحاربة المسلمين، فأمر معاوية قائده **عبدالله بن أبي السرح** بالتوجه إليهم، فالتقاهم في **عرض البحر بأسطول** يتألف من **مئتي سفينة** ودارت بينهم معركة عظيمة **هُزم فيها الروم** ودُمر أسطولهم **وقُتل منهم الآلاف وأصيب الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الثاني** بجراح، **وفر من مكان المعركة**.

وتأمنت حدود الدولة الإسلامية بهذا الانتصار وذهب خوف ركوب البحر لدى المسلمين، وتبلورت فكرة بناء أسطول كبير تكون له السيادة على البحر المتوسط، وتحولت الإسكندرية إلى دار عظيمة لصناعة السفن واستخدم فيها العمال المصريون ممن أتقنوا الصنعة على أيدي الروم .. وأبلى المسلمون بلاء حسناً وأثبتوا أنهم في البحر، كما في البر، قوة وعزيمة وحب في نصر دين الله..

ويعد أيضًا من أهم أعمال الخليفة عثمان -رضي الله عنه- جمع الناس على حرف واحد في قراءة القرآن الكريم فقد جمع الأمة على مصحف موحد مُجْمع عليه قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهودِ والنصارى..

معركة ذات الصواري :

هي معركة بحرية حدثت في العام(35 هـ -655 م) بين المسلمين والإمبراطورية البيزنطية وانتهت بنصر المسلمين . ومثلت هذه المعركة نهاية سيطرة الدولة البيزنطية على البحر الأبيض المتوسط كما أنها أول معركة بحرية يخوضها المسلمون.

أسباب المعركة :

تقدم المصادر والمراجع العربية والأجنبية أسباباً مختلفة لمعركة ذات الصواري البحرية، نذكر أهمها فيما يلي:

1- إجهاض قوة البحرية الإسلامية النامية. يقول أرشيبالد. د. لويس بعد أن تحدث عن غزو الأسطول الإسلامي لقبرص: "ويظهر أن الغارات التي انتهت باحتلال الجزيرة أثارت حماسة الدولة البيزنطية نحو البحر، ودفعتها للقيام بعمليات بحرية جديدة، وكان هذه العمليات قد توقفت منذ فشلها في معركة الإسكندرية عام (25 هـ - 645م).

2- أعدّ **قنسطانز الثاني خليفة هرقل** أسطولاً كبيراً تراوح عدده من(800)**سفينة شراعية** ، والتقى هذا الأسطول في السنة ذاتها بأسطول صغير مشترك بين العرب والمصريين مكون من (200)سفينة أقلعت من شواطئ سورية قرب موضع يقال له **فونيكس** بآسيا الصغرى(**تركيا حاليا**)، وتعرف هذه الواقعة (**بواقعة ذات الصوراي**).

3- يقول **إرنست وتريفور ديبوي**: (لقد بدأ العرب بشدة في تحدي سيادة بيزنطة البحرية، وهزموا أساطيل **الإمبراطور قنسطانز الثاني** واستولوا على بعض الجزر شرقي البحر الأبيض المتوسط). وفي موضع آخر يقول: (وفي البحر استولى المسلمون على **رودس** عام (654 م)، وهزموا أسطولاً بيزنطياً يقوده **قنسطانز** بنفسه في معركة بحرية عظمى خارج **ساحل ليكيا** (655 م) .

4- يقول **الدكتور عبد المنعم ماجد**:(ويظهر أن النشاط المتزايد من قبل العرب أخاف بيزنطة بحيث إن الإمبراطور **قنسطانز الثاني** (642-668 م) جمع عدداً من المراكب لم يجمعها من قبل، تزيد على **ألف**(1000) **مركب**، وسار بها بقصد ملاقاة أسطول العرب، أو بقصد احتلال **الإسكندرية** العظمى **كبرى موانئ البحر الأبيض**، فخرجت إليه أساطيل العرب في أعداد كبيرة **بقيادة عامل مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح**) .

5- انتقام **البيزنطيين** لما أصابهم على أيدي المسلمين في إفريقية(**تونس حاليا**) واسترداد مصر. وذلك ما يراه **الطبري** حيث يقول: (وخرج عامئذٍ **قسطنطين بن هرقل** لما أصاب المسلمون منهم **بإفريقية**) ،ويتفق معه في ذلك **ابن الأثير** فيقول: (وأما سبب هذه الغزوة فإن المسلمين لما أصابوا من **أهل إفريقية** وقتلوهم وسبوهم، خرج **قسطنطين بن هرقل** في جمع له لم تجمع **الروم** مثله مذ كان الإسلام) ، وقال **عبد الرحمن الرافعي** و**سعيد عاشور**: (وفي سنة (34هـ- 654 م)خرج **الإمبراطور قنسطانز الثاني** على رأس حملة بحرية كبرى في محاولة للاستيلاء على **الإسكندرية** واسترداد **مصر** من العرب) .

6- إجهاض تدابير المسلمين **لغزو القسطنطينية عاصمة بيزنطة**. وذلك هو ما يراه **المؤرخ البيزنطي تيوفانس** حيث يقول: (في هذا السنة جهز معاوية الجيش وزوده بأسطول ضخم قاصداً **محاصرة القسطنطينية**، وأمر بتجميع الأسطول كله في **طرابلس فينيقيا**. فلما علم بذلك **أخوان نصرانيان** من **أهل المدينة**، هاجما السجن وحطما الأبواب وأطلقا سبيل المحجوزين جميعاً، ثم هاجموا رئيس المدينة وقاتلوه ورجاله كلهم وهربوا إلى **تخوم الروم**، غير أن **معاوية** لم يغير رأيه في **حصار القسطنطينية**، بل جاء بجيشه -يقصد أسطولي الشام ومصر- إلى **قيصرية** و**كيادوكيا**، وعيّن **أبولا باروس** يقصد **عبد الله بن سعد بن أبي سرح** قائداً للأسطول، فقدم هذا **فينيقيا** إلى مكان في **ليكيا** حيث كان **الإمبراطور قنسطانز** مقيماً بمعسكره وأسطوله **ودخل معه في معركة بحرية**).

7- حرمان المسلمين من الحصول على الأخشاب اللازمة لصناعة السفن. وهذا السبب ذكره **أرشيبالد لويس** كسبب محتمل **لمعركة ذات الصواري**، حيث قال: (ومما يلفت النظر أن المكان الذي دارت فيه المعركة، وهو **ساحل الأناضول**، يزدحم **بغابات السرو** الكثيفة، وهو **الشجر المستخدم في صواري السفن**، ولعل **البيزنطيين** قرروا القيام بتلك المعركة ليحولوا بين **الخشب اللازم لصناعة السفن هناك**، وبين وقوعه في قبضة العرب، وإذا صح هذا الزعم فإنه يقوم **دليلاً على أهمية الخشب في الصراع البحري** بين **العرب وبيزنطة**) .

سبب التسمية بمعركة ذات الصواري :

يرجع سبب تسمية المعركة بذات الصواري إلى كثرة عدد صواري السفن التي اشتركت فيها من الجانبين؛ وبعضهم الآخر يذكر أن هذا الاسم نسبة إلى المكان الذي دارت قريباً منه، وهو ما نميل إليه، وما يستنتج مما يلي:

– قول **الطبري** :(فركب من مركب وحده ما معه إلا القبط حتى بلغوا ذات الصواري، فلقوا جموع الروم في خمسمائة مركب أو ستمائة". وقوله أيضاً: "وأقام عبد الله بذات الصواري أياماً بعد هزيمة القوم) .

– قول **ابن الأثير** :(وأقام عبد الله بن سعد بذات الصواري بعد الهزيمة أياماً ورجع).

– ويضاف إلى ذلك أن المكان الذي دارت المعركة قريباً منه اشتهر بكثرة الأشجار التي تستخدم أخشابها في صناعة صواري السفن، وقد أشار إلى ذلك **أرشيبالد لويس** بقوله: (ومما يلفت للنظر أن المكان الذي دارت فيه هذه المعركة، وهو ساحل الأناضول، يزدحم **بغابات السرو الكثيفة** وهو الشجر المستخدم في صواري السفن) .

الآثار الإستراتيجية لذات الصواري :

أهم آثار معركة ذات الصواري تتلخص **في نقطتين رئيسيتين**:

1 – انتصار المسلمين على عدو متفوق في العدد والعتاد ويعود ذلك لعدة أسباب أهمها قوة الإيمان والعقيدة والإدارة السليمة والاستثمار الأمثل للقدرات.

2 – انتهاء عصر السيادة البيزنطية في البحر المتوسط .

الفرع الحادي عشر : مظاهر الحضارة الإسلامية (الحياة الاقتصادية)

أولا: الحياة الاقتصادية الإسلامية وأثرها الإنساني [188] :

تعريب العملة وإقامة دور لضربها:

تعامل الرسول صلى الله عليه وسلم مع العملة، فعندما ظهر الإسلام أقر الرسول صلى الله عليه وسلم النقود على ما كانت عليه، وتعامل الرسول بهذه النقود، وزوج ابنته فاطمة لعلى بن أبي طالب رضي الله عنه، بصداق قيمته 480 درهما، وفرض الرسول زكاة الأموال بهذه النقود السائدة، وعمل الخليفة أبو بكر بسنته، ولما استخلف عمر بن الخطاب وفتح الله على المسلمين بلاد الفرس أقر النقود الساسانية في إيران والعراق كما هي بلغتها وحروفها وشعاراتها.

لوجود شعارات مسيحية أو فارسية تخالف العقيدة الإسلامية على هذه النقود الأجنبية، شعر المسلمون بضرورة إنشاء دور لسك العملة خاصة بهم، حاملة لشعارات الإسلام.

وقد ذكر ابن خلدون في المقدمة تعريفا للسكة ، حيث قال :

السكة: هي الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع من حديد تنقش فيه الصور أو الكلمات المطلوبة بطريقة خاصة.

أمر عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- سنة 18 هجرية ببناء دار لسك العملة الفارسية في طابع فارسي، كي ينقش عليها (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، بهذا كان لعمر فضل وضع الشعار الإسلامي على نقود فارس ليتداولها المسلمون في غير حرج من دينهم.

أمر دار السك أن تنقص الوزن فتجعله ستة مثاقيل لكل عشرة دراهم، بدلا من مثقال لكل درهم، واتخذ عثمان – رضي الله عنه –، هذا الوزن في نقوده التي كتب عليها (الله أكبر).

وقد وصلت دراهم معاوية إلى المتحف البريطاني في لندن، وهي دراهم عليها صورته متقلدا سيفه، وعندما تولى عبد الملك بن مروان خامس الخلفاء الأمويين الخلافة...فضربت في عهده أول نقود عربية بعبارات إسلامية، بل سجلت عليها الشهادتان (لا اله إلا الله محمد رسول الله) بالخط الكوفي البسيط، وقد استطاع عبد الملك أن يحقق نجاحا كبيرا في تعريب النقود، فتم التعريب الكامل للنقود سنة، 77هـ، فاحتلت الكتابات العربية وجهي الدينار، ونقشت عبارات التوحيد والبسملة وسنة الضرب، أما وزن الدنانير فقد حدد الوزن الشرعي وهو 4.25 جم،وسار الخلفاء الأمويون على خطى عبد الملك في سك الدنانير العربية الإسلامية.

وبعد سقوط بني أمية سنة (132هـ) أنقص عبد الله بن محمد (السفاح) وزن الدرهم حبة ثم حبتين فيما ضربه من النقود ... وجاء بعده أبو جعفر المنصور عام (146هـ) هـ فأنقص بدوره من الدرهم ثلاث حبات ... كما ضربت نقود في عهد الخليفة المهدي عام (163هـ) ، بشهادة التوحيد، وضربت نقود في عهد هارون الرشيد (193- 170هـ) كتب عليها

[188]- الحضارة الإسلامية : إبداع الماضي وأفاق المستقبل / أ.د/ عبد الحليم عويس ،ص: 91-100 ،باختصار ، الصحوة للنشر و التوزيع ، ط1، 2010م، القاهرة .

بالخط الكوفي شهادة التوحيد، ونقش (**حرف هـ**) أسفل لفظ الجلالة إشارة إلى اسم هارون، وتميزت هذه العملة بالدقة أكثر من النقود السابقة.

وفي مصر ضربت أول نقود إسلامية في عهد الدولة الطولونية، بعد أن أسس أحمد بن طولون عام (257هـ) دارا لضرب النقود والدنانير التي عرفت بالأحمدية، وامتازت بعيارها الجيد، وذلك بعد توحيد مصر والشام.

-لقد ازدهرت الحياة الاقتصادية ولا سيما التجارة في ظل الدولة العربية الإسلامية بصورها وأشكالها كافة، وذلك بفضل انتشار الأمن، والاهتمام بالطرق التجارية، وتشجيع التبادل التجاري، ووجود مراكز تجارية حضارية كالمدن المهمة والعواصم.

كما ازدهرت الزراعة وتنوعت المحاصيل لتلبى حاجات وأذواق الناس، وذلك بسبب تنوع التربية والمناخ واتساع الأرض والتكامل الاقتصادي وفتح الحدود بين كل بلاد الإسلام.

إلى جانب ذلك كانت هناك الموارد الاقتصادية الشرعية، وعلى رأسها:

- **الزكاة**: (2.5 ٪) وهي واجبة في النقود والذهب والفضة والثمار.
- **والخراج**: وهو ضريبة تفرض على الأرض المزروعة المصالح عليها.
- **والجزية**: وهي مبلغ يدفعه أهل الذمة من النصارى واليهود للدولة الإسلامية، مقابل أن تقوم الدولة بحمايتهم والدفاع عنهم، وتتراوح ما بين 12 و 48 درهما في السنة حسب حالة الفرد.
- **والغنائم**: وهي المال الذي يظفر به المسلمون على وجه الغلبة والقهر من الكفار، وخمسة لله وللرسول وذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل،

وكذلك **الفيء** : وهو ما أخذه المسلمون دون قتال.

- **والعشور**: وهي ضرائب على بضائع التجار.لدرجة أن هارون الرشيد كان يقول للسحابة: (**أمطري كيف شئت فسيأتيني خراجك**..).

وكان مجموع جباية الدولة ثلاثمائة وتسعين ألف ألف وثمانمائة وخمسين ألف درهم أي ما يقرب من أربعمائة ألف ألف درهم، هذا بالإضافة إلى قيمة الموارد العينية.

أما في عهد الخليفة (المعتصم بالله) فقد أورد (قدامة بن جعفر) في كتابه (الخراج وصناعة الكتابة) إيرادات الخلافة، حيث بلغ المجموع الكلي للايرادات 388311350 درهما.

وقد بلغت جملتها 299265340 درهما، وهي تعود الى ما قبل سنة(232هـ) (القرن الثالث الهجري) على النحو التالي:

1- إيرادات السواد: 78319340 درهما.

2- إيرادات بقية ولايات العراق: 17300000 درهم.

3- إيرادات ولايات الشرق: 132096000 درهم.

4- إيرادات ولايات الشام: 1990000 دينار، وتعادل 29850000 درهم.ويلاحظ أن الجباية كانت تميل إلى الانخفاض.

فمن العوامل الموثقة أن الخليفة المأمون خفض نسبة الخراج إلى خمس الغلة بدلا من نصفها، وكان الخليفة الواثق بالله أمر بإلغاء أعشار السفن التجارية تشجيعا للتجارة، كما أن الخليفة المهتدى بالله أمر في سنة (252هـ)، بإسقاط ما تبقى على أصحاب الأراضي من الديون وكانت إثني عشر ألف ألف درهم، أما العوامل الأخرى فمنها ظهور بعض الإمارات شبه المستقلة، فقلت المبالغ التي تحول إلى بيت المال، ومنها انخفاض مبالغ الجزية لدخول الناس في الإسلام، يضاف إلى ذلك سوء المكلفين بجباية الضرائب.

الأثر الحضاري للاقتصاد الإسلامي في العالم:

وقد قسم المسلمون الأرض إلى أقسام ثلاثة: دار إسلام، ودار حرب وهي التي يجاهرنا أهلها بالعداء، ودار عهد وأمان، وهي بقية العالم.

وكما هو معلوم فإنه ليس لمدريد أي تاريخ يذكر قبل الفترة الإسلامية، ولعل اسم مدريد وأصله عربي (مجريط) يتعلق بهذه الممرات المائية.

إن العصر العباسي شهد تطورا كبيرا في عالمي الزراعة والصناعة، ولا ننسى هنا أن سفير هارون الرشيد حمل ساعة تتكون من آلات معقدة مصنوعة بطريقة فنية إلى بلاط شارلمان، مما يدل على الأسبقية المطلقة للمسلمين في صناعة الساعات، لدرجة أن هذه الصناعة قد تطورت فألفت فيها كتب على رأسها كتاب (في موضوع الحركة الذاتية) للجزري ألفه حوالي سنة (602هـ- 1206م)، وهو يضم صورا للآلات المعقدة التي تتكون منها الساعات.

وقد كان تجليد الكتب من الفنون التي تحمل طابع المسلمين كما هو معروف، وقد تعلمت أوربا هذه الصناعة من المسلمين.

في حين أن أول تجليد استعمل فيه التذهيب بأداة محماة، عمل لسلطان من أواخر سلاطين الموحدين في المغرب يرجع تاريخه إلى عام(654 هـ- 1256م).

وفي المقابل نجد أن أقدم استعمال غربي لهذا الفن كان في إيطاليا، ويعود تاريخه إلى العام(863هـ - 1459م)... أي بعد أكثر من قرنين من الزمان.

ثانيا : الوقف: المؤسسة الاجتماعية الأولى للأمة[189] :

نشأة الوقف الإسلامي وتطوره:

اعتمادا على حث الإسلام اتباعه على ان ينفقوا في سبيل الله حتى ينالوا التقوى والبر، قال تعالى:**"وما تنفقوا من خير فلأنفسكم"**(البقرة: 272) ، وقوله تعالى: **"من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبصط وإليه ترجعون"**(البقرة: 245) ، **"لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون"** (آل عمران: 92)، اعتمادا على هذه النصوص القرآنية

[189] - الحضارة الإسلامية : إبداع الماضي وأفاق المستقبل / أ.د/ عبد الحليم عويس ،ص: 108-111 ،باختصار .

وغيرها، تسابق المسلمون الى الخيرات، فأنفق أبو بكر كل ماله، وعمر نصف ماله، وعثمان جهز جيش العسرة بكل ما يستطيع.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم أول من ضرب المثل الأعلى لأمته في الوقف، فأوقف سبعة بساتين، وكان بعض المحاربين قد أوصى حين مات أن يترك امرها للرسول يتصرف فيها كيف يشاء، فأوقفها رسول الله صلى الله عليه وسلم على الفقراء والمساكين والغزاة وذوي الحاجات. ولما نزل قوله تعالى:" لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون" (آل عمران: 92)،قال أبو طلحة الأنصاري: يا رسول الله، إن أحب أموالي إلي ببيرحاء وهي بئر طيبة الماء، وإنها صدقة الله أرجو برها وذخرها عند الله تبارك وتعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله،فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام : " **بخ بخ ، ذلك مال رابح ، حبس الأصل وسبل الثمرة**" ، وكانت هذه الصدقة أول وقف في الإسلام قام به الصحابة.وكان الوقف هو حجر الأساس الذي قامت عليه كل المؤسسات الخيرية في تاريخ حضارتنا.

ثم أوقف عمر بن الخطاب أرضه بخيبر، وأوقف أبو بكر وعثمان وعلي والزبير ومعاذ وغيرهم، حتى لم يبق صحابي إلا أوقف من أمواله شيئا.

وكانت هذه المؤسسات نوعين: نوعا تنشئه الدولة وتوقف عليه الأوقاف الواسعة، ونوعا ينشئه الأفراد من أمراء وقواد وأغنياء ونساء.

فمن أهم المؤسسات الخيرية المساجد التي حظيت بنصيب كبير من الوقف، ومنها المدارس والمستشفيات، ومنها بناء الخانات والفنادق للمسافرين المنقطعين وغيرهم من دوي الفقر، ومنها: .. الزوايا التي ينقطع فيها من شاء لعبادة الله عز وحجل.

ومن المؤسسات الاجتماعية ما كان وقفا لإصلاح الطرقات والقناطر والجسور، ومنها ما كان للمقابر، يتبرع الرجل بالأرض الواسعة، لتكون مقبرة عامة. ومنها ما كان لشراء أكفان الموتى وتجهيزهم ودفنهم.

وهناك مؤسسات للقطاء واليتامى ولختانهم ورعايتهم، ومؤسسات للمقعدين والعميان والعجزة، يعيشون فيها موفوري الكرامة، لهم كل ما يحتاجون، من سكن وغذاء ولباس وتعليم أيضا.

وهناك مؤسسات لتزويج الشباب والفتيات العزاب ممن تضيق أيديهم أو أيدي أوليائهم عن نفقات الزواج وتقديم المهور.

وقد كان من مبرات صلاح الدين الأيوبي أنه جعل في أحد أبواب القلعة في دمشق ميزابا يسيل منه الحليب، وميزابا آخر يسيل منه المذاب في السكر، تأتي إليه الأمهات يومين في كل أسبوع، ليأخذن لأطفالهن وأولادهن ما يحتاجون إليه.

الوقف الإسلامي وأثره الحضاري:

وقد كانت مؤسسة (الوقف الإسلامي) من أكبر الأبواب التي لجأت الأمة إليها، لتحقق من خلالها فروض الكفاية الاجتماعية والثقافية.

فكان-الوقف بأشكاله المختلفة- أبرز الطرق التي قادت النهضة الفكرية والاجتماعية على مدار العصور، وأسهم الواقفون، من أثرياء وحكام ووزراء ومتوسطي الدخل- كل حسب طاقته- في مساندة القضايا الاجتماعية والحركة العلمية، وأتاحوا المعرفة والتربية لكافة أبناء المجتمع.

الفرع الثاني عشر : مظاهر الحضارة الإسلامية (الحياة الاجتماعية)

أولا : الطبقات الاجتماعية في الإسلام [190] :

لا يعرف الإسلام نظام الطبقات المغلقة، فالناس سواسية كأسنان المشط، يصلي الفقير بجوار الغني، وقد يسبقه، بل قد يكون – بفقهه – إماما له، ولا فرق بين أسود وأبيض.. كما أن المجتمع الإسلامي يسمح لكل إنسان بالترقي، فقد يصبح ابن الأجير وزيرا يسبق ابن الثري الوجيه، وهكذا.

بيد أن سنة الله في الاجتماع البشري تقضي بوجود طبقات اجتماعية (ليس بالمعنى العنصري أو المغلق)، لكي يتعامل المجتمع وينجز كل مهماته، فهناك الزارع ولصانع والعامل، وهناك الأديب، والوزير، والعالم الكبير، وهناك من استطاع تكوين ثروة، وهناك خامل لم ينجح في سباق الحياة.

وفي كل المجتمعات توجد طبقات خاصة تتكون من الأسرة الحاكمة وعلى رأسها الحاكم (هو هنا الخليفة) ورجال الدولة وأبناء البيوتات العريقة.

الدور الحضاري للطبقات الاجتماعية:

وجد رجال الدولة من الوزراء والكتاب، والقواد، والولاة، وأمثالهم من أرباب المناصب العالية.

ويمثل هؤلاء أبناء الطبقة الخاصة الذين يعيشون حياة كريمة، وربما مترفة لضخامة إيراداتهم من رواتبهم وأعطيات الخلفاء لهم، وإيرادات ضياعهم ومستغلاتهم، فكانوا يسكنون القصور الفخمة ويرفلون في أغلى الملابس وأثمن الحلي، ويتناولون ما لذ وطاب من طعام وشراب.

أما الطبقات العامة فهم بقية الرعية، وكانوا من أصناف مختلفة، منهم أصحاب مهن راقية محترمة، وآخرون أصحاب مهن متوسطة ودنية، كما كان منهم التجار والمزارعون والفلاحون، فضلا عن العلماء في شتى العلوم، والفقهاء، والأدباء، والشعراء، والأطباء، والصيادلة، وعلماء الدين، وأهل الفن.

وخلال هذه القرون- ولا سيما الثالث والرابع- علا شأن كثير من العلماء، وكانوا أجل من الملوك في نفوس الناس، على رأسهم عبد الله بن المبارك، وأصحاب الكتب الصحاح الستة: البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة والترمذي، وأئمة المذاهب الفقهية الثلاثة عشرة: أبو حنيفة والشافعي ومالك وابن حنبل والليث بن سعد والحسن البصري والظاهرية وغيرهم.

وكان منهم الفلاسفة والمتكلمون مثل: يعقوب بن إسحاق الكندي، وأبو عثمان عمرو ابن بحر الجاحظ، الذي تمكن –بما وهب الله–تعالى- من قوة الحافظة وسرعة الخاطر- أن يلم بمختلف العلوم والمعارف، وابن قتيبة عبد الله بن مسلم الذي اشتهر بمعارفه الواسعة، وابن جرير الطبري المفسر الفقيه المؤرخ، والبتاني محمد بن جابر بن سنان الحراني الصابي صاحب الزيج المعروف باسمه.

---

[190] – الحضارة الإسلامية : إبداع الماضي وأفاق المستقبل / أ.د/ عبد الحليم عويس ،ص: 101-103 ،باختصار .

المرأة في المجتمع الإسلامي:

فكانت عنصرا فاعلا في المجتمع، وكانت مستشارا أساسيا لزوجها في معظم الأحوال، حتى ولو كان الخليفة أو الوزير، وتحفل كتب (أعلام النساء) بأعداد كبيرة من النساء اللاتي لمع اسمهن في أنواع العلوم المختلفة، ولا سيما العلوم الشرعية واللغوية.

فقد كانت المرأة تسأل الرسول، وتطالب بتخصيص وقت لتعليمها، لأن الرجال غلبوهن في مجالس رسول الله، كما كانت تجادل عمر في المسجد.

ثانيا: أهل الذمة في الحضارة الإسلامية [191]

أهل الذمة:هم اليهود والنصارى، الذين يعيشون مع المسلمين في ظل الحكم الإسلامي، وإنما أطلق عليهم لقب (أهل الذمة) لأن النبي صلى الله عليه وسلم أعطاهم ذمته وأمانته.

كان محمد صلى الله عليه وسلم يعرض دينه على النصارى واليهود، فإن قبلوه دخلوا الإسلام وان رفضوه، لم يكرههم على شيء، وانما سألهم أن يعطوا (الجزية) وهي ثمن حماية المسلمين لهم، وكفهم الأذى عنهم، وقيامهم بحرب الأعداء دونهم.

ولم يسمع عن محمد صلى الله عليه وسلم أنه قتل نصرانيا: لأنه لم يسلم، أو أنه عذبه أو سجنه أو منعه من التعبد على طريقته، ولم ينقل عن محمد قط أنه هدم كنيسة أو بيعة.

وقد أوصى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأهل الذمة فقال: **" لهم ما لنا وعليهم ما علينا، ومن أذى ذميا كنت خصمه يوم القيامة"**.

وكان أهل الذمة أحرارا في إقامة شعائر دينهم، وكانوا يرجعون في أحوالهم الشخصية إلى رؤسائهم الدينيين.

ومن مسلمات الإسلام– التي نص عليها الوحي، قرأنا و سنة–:أن العقيدة لا يمكن الإكراه عليها،بل لا بد فيها من الاقتناع والرضا:**"لا إكراه في الدين"** البقرة:(256) . **" أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين"** يونس:(99).

وأن أماكن العبادة للديانات الإلهية محترمة يجب الدفاع عنها وحمايتها : **"ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا"** الحج:(40).

ولا يجوز البذاءة مع المخالفين، ولا سب عقائدهم ولو كانوا وثنيين: **" ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم"** الأنعام:(108).

وعندما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة وفيها من اليهود عدد كبير، كان من أول ما عمله من شئون الدولة أن أقام بينه وبينهم ميثاقا تحترم فيه عقائدهم وتلتزم فيه الدولة بدفع الأذى، ويكونون مع المسلمين يدا واحدة على من يقصد المدينة بسوء.

كان للرسول جيران من أهل الكتاب، فكان يتعاهدهم ببره، ويهديهم الهدايا، ويتقبل منهم هداياهم .

---

[191]– الحضارة الإسلامية : إبداع الماضي وأفاق المستقبل / أ.د/ عبد الحليم عويس ،ص: 104–107 ،باختصار .

بل قبل الرسول من المقوقس هديته، وقبل منه جارية أرسلها إليه وتسرى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وولدت له إبراهيم الذي لم يعمر إلا أشهر قليلة، ومن وصاياه للمسلمين:"**استوصوا بالقبط خيرا، فإن لكم فيهم نسبا وصهرا**".

من مظاهر التسامح الديني في الحضارة الإسلامية:

تجاور المساجد الكنائس في ظل حضارتنا الخالدة، وكان رجال الدين في الكنائس يعطون السلطة التامة على رعاياهم في كل شئونهم الدينية، ولا تتدخل الدولة في ذلك.

ومن مظاهر التسامح الديني في حضارتنا :أن كثيرا من الكنائس كان يصلى فيها المسلمون والمسيحيون في وقت واحد إبان الفتح الإسلامي.

ومن مظاهر التسامح الديني: أن الوظائف كانت تعطى للمستحق الكفء، بغض النظر عن عقيدته ومذهبه.

وكذلك كانت الخطوة للشعراء والأدباء لدى الخلفاء والأمراء، بغض النظر عن أديانهم ومذاهبهم، وكلنا يعلم مكانة الأخطل في العهد الأموي.

وكانت الحلقات العلمية في حضرة الخلفاء تجمع بين مختلف العلماء على اختلاف أديانهم ومذاهبهم.

ومن مظاهر التسامح الديني في حضارتنا: الاشتراك في الأعياد الدينية، بمباهجها وزينتها، فمنذ العهد الأموي كانت للنصارى احتفالاتهم العامة في الشوارع تتقدمها الصلبان، ورجال الدين بألبستهم الكهنوتية.

ومن الجدير بالذكر أن الجزية لم تكن بالقدر الذي يدفع الإنسان إلى تغيير دينه،ولم تكن تفرض إلا على القادرين على دفعها، وكان يعفى منها الأطفال والنساء والشيوخ والرهبان.

كما نجد أن بني تغلب النصارى أعفوا من الجزية نظير اشتراكهم في الحرب مع المسلمين.

وقد نهى الرسول عن التعرض لأهل الذمة ... ووجد عمر بن الخطاب ذميا يسأل الناس الصدقة، فأسقط عنه الجزية، وفرض له من بيت المال ما يكفيه.

الفرع الثالث عشر : الحياة العلمية وتطورها

أولا: الحركة العلمية وتطورها [192] :

عندما انتشر الإسلام بين العرب وغيرهم انتشر العلم، لأن الدين مرتبط بالعلم الشرعي وبالقرآن الكريم، فقد كان من يعرف القراءة يأخذ بيد من لا يعرف، ويعلمه القرآن الكريم، ويتبادلان ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأحاديث

كما أن النبي صلى الله عليه وسلم حث بعض أصحابه أن يتعلموا لغة غير اللغة العربية، عندما دعت الحاجة إلى ذلك.

وقد كثرت بين العرب القراءة والكتابة – بصورة ملحوظة- في عهد التابعين- رضوان الله عليهم- كما أن غير العرب الذين دخلوا في الإسلام اضطروا إلى تعلم العربية لمعرفة شعائر دينهم، وأمور دنياهم.

فبنيت في عهد عثمان ومن بعده الدور والقصور، واقتنى كثير من الصحابة الأموال والجنان والعيون، كالزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص والمقداد، وهذا –من غير شك- يستتبع رقى الصناعة ومنها الكتابة.

كما شجع الإسلام أتباعه على طلب العلم حين رفع قدر العلماء والعلم، كما في قوله تعالى :" **هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب**"، (الزمر: 9)، وقوله تعالى:" **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط**" (آل عمران: 18).

وقد أقسم الله – تعالى- بالعلم وبأدواته حيث قال تعالى:" **ن والقلم وما يسطرون**" (القلم: 01)، كما أمر الله سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم بالاستزادة من العلم ،حيث قال تعالى: " **وقل رب زدني علما**" (طه: 114).

بداية الحركة العلمية :

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان هو الإمام والقدوة في رعاية الحياة العلمية، ليس في المدينة وحدها، بل في كل موقع يهيمن الإسلام عليه، فعندما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم (مكة) خلف فيها معاذ بن جبل يفقه أهلها ويعلمهم الحلال والحرام ويقرؤهم القرآن، وكان معاذ من أعلم الصحابة بالحرام ومن أقرئهم للقرآن، وقد شارك معاذا في تعليم أهل مكة الصحابي الجليل عبد الله بن عباس، وأشهر من تخرج في المدرسة الملكية من التابعين الموالي مجاهد بن جبير، وعطاء بن أبي رباح، وطاووس بن كيسان- رضي الله عنهم- أجمعين.

أما في المدينة: فقد تصدر للعلم والتعليم فيها عمر و علي بن أبي طالب، ولكن زيد بن ثابت كان الأكثر تفرغا للعلم، وتبعه عبد الله بن عمر بن الخطاب.

وحول علم (**زيد**) قال سليمان بن يسار: (ما كان عمر و لا عثمان يقدمان على زيد بن ثابت أحدا في القضاء والفتوى والفرائض والقراءة).

---

[192]– الحضارة الإسلامية : إبداع الماضي وأفاق المستقبل / أ.د/ عبد الحليم عويس ،ص: 115-119 ،باختصار .

وكان ابن عباس يأخذ بركاب زيد بن ثابت و يقول : (هكذا يفعل بالعلماء والكبراء) وكان ذا عقل رياضي، فكان أعلم الناس بالفرائض (المواريث). ...أما عبد الله بن عمر رضي الله عنه فكان متخصصا في جمع الأحاديث وروايتها، وكان يتحرج من الفتوى.

أما في العراق: فقد برز الموالي بصورة كبيرة، فقد كان هؤلاء الموالي هم البارزين في الحرف والصناعات والتجارة في العراق، بينما انشغل العرب بالسياسة والحرب وطلب الرئاسة كما ذكر ابن خلدون.

وأما في الكوفة : فأشهرهم الإمام علي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود- رضي الله عنهما- الذي كان أكثر تفرغا لمجال العلم والتعليم.

وقد خلفه تلامذته، علقمة، والأسود، ومسروق،وعبيدة،والحارث بن قيس، وعمرو بن شر حبيل.

أما البصرة:فقد نزل بها عدد كبير من علماء الصحابة، **أشهرهم**:أبو موسى الأشعري،وأنس بن مالك، وكان الأشعري فقيها فوق معرفته القرآن والحديث، أما أنس بن مالك فكان آخر من توفى بالبصرة من الصحابة، حيث توفي سنة (92هـ).

أما أهل الشام: فقد بعث إليهم عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- مجموعة من الصحابة الأخيار، وقد أورد البخاري في التاريخ: أن يزيد بن أبي سفيان كتب إلى عمر: (قد احتاج أهل الشام إلى من يعلمهم القرآن ويفهمهم، فأرسل معاذا وعبادة وأبا الدرداء)، فكان هؤلاء أول مؤسسي المدرسة الدينية بالشام.

أما مصر: فقد كان من الصحابة الذين نزلوا إليها علماء علموا بها، و**أشهرهم**: عبد الله بن عمرو بن العاص، وكان من أكثر الناس حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. **والليث بن سعد**، فكانا القمة في علمهما و فضلهما، وإن كان الليث قد أطلق عليه لقب (**فقيه مصر**) وفضله الإمام الشافعي على الإمام مالك، مع أن **الليث** كان على صلة حسنة بمالك، وكان يساعده على أعباء الحياة المعاشية، فرضى الله عن الجميع.

أهم المؤسسات العلمية:

1-**المساجد**: المسجد هو النواة الأولى للمدرسة في الحضارة العربية الإسلامية، يتعلم الناس فيه القراءة والكتابة والقرآن وعلوم الشريعة واللغة والعلوم الأخرى.

2-**الكتاتيب**: وقد كان الكتاب في الأصل ملحقا بالمسجد ويقام الى جانبه، لتعليم القراءة والكتابة والقرآن، لكنه استقل عن المسجد بعد ذلك.

3-**مجلس الناظرة**: وتقام في الدور والقصور والمساجد، وذلك في علوم اللغة والفقه والنحو والصرف والدين.

4-**المكتبات**: مثل بيت الحكمة في بغداد، ومكتبة الإسكندرية وغيرها.

وكانت العلوم التي تدرس في هذه الأماكن هي التي تتصل بالقرآن الكريم: ويطلق عليها العلوم النقلية أو الشرعية، وتشمل علوم الحديث والتفسير والفقه واللغة والنحو والصرف والأدب وغيرها.

وعلوم أخرى أطلق عليها اسم (العلوم العقلية) وأحيانا (علم الأوائل) وتشمل التاريخ والجغرافية والرياضيات والأرصاد وعلم النبات وعلم الحيوان وعلم الأرض والكيمياء والطب والصيدلة وغيرها.

ثانيا: التعليم في العصرين الأموي والعباسي [193] **:**

أ: التعليم في العصر الأموي :

وفي هذا العهد الأموي لم تكن العلوم الدينية في حاجة إلى تشجيع الدولة، فالأمة كلها كانت تشتغل بعلوم الدين، قرآنا وسنة، على تفاوت في ذلك بين الأفراد بطبيعة الحال، فالإسلام على امتداد العصرين الراشدي والأموي، بل وبعدهما بمستويات مختلفة، كان قضية كل مسلم، وكان يملك على مجموع الناس- إلا قليلا- نفوسهم ويؤمنون بأنه شرفهم وعزهم ورسالتهم إلى العالم.

وفي العصر الأموي (**عصر التابعين وتابعيهم**) دخلت بلاد الروم وبلاد فارس وغيرها في الإسلام، وهي أمم لها حضارات، مما أبرز الحاجة إلى تشريع قادر على تكييف الوقائع الجديدة تكييفا إسلاميا قائما على الكتاب والسنة،فكثر التدوين،ويذكر **ابن خلكان** صاحب **وفيات الأعيان أن وهب بن منبه** (ت 110هـ)، ألف في ترجمة الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم، ولعله يقصد كتاب التيجان لوهب بن منبه.

وابن سعد في الطبقات يذكر أن هشام بن عروة بن الزبير قال: (أحرق أبي يوم الحرة كتب فقه كانت له، قال: فكان يقول بعد ذلك: لأن تكون عندي أحب إلي من أن يكون أي مثل أهلي ومالي).

ويقول **ابن خلكان** أيضا: إن ابن شهاب الزهري (ت 124هـ) كان إذا جلس في بيته وضع كتبه حوله، فيشتغل بها عن كل شيء من أمور الدنيا، فقالت له امرأته يوما: (**والله لهذه الكتب أشد علي من ثلاث ضرائر**).

وقد أدى تطور العلوم وتشعبها واتساع دائرتها – خلال العصر الأموي (**عصر التابعين وتابعيهم**)، ثم العصر العباسي- إلى ظهور تقسيم للعلوم إلى قسمين يطلق على :

أولهما : (**العلوم النقلية**) أو (**الشرعية**) وهي تضم علوم الحديث والتفسير والتشريع واللغة والنحو والأدب وغيرها..

ثانيهما: (**علوم المعاش**) أو (**العلوم العقلية**) أو (**علوم الأوائل**)، وتشمل علوم التاريخ والجغرافيا والرياضيات والفلك والأرصاد وعلوم الحيوان والنبات والأرض والكيمياء والطب والصيدلة وغيرها، وهي علوم اعتمدت على الرعاية الإسلامية لعلوم (**الآفاق**) وعلوم الإنسان، لكنها استفادت من التراث الإنساني كله، وأضافت إليه وأبدعت فيه ... تجلت لدى **جابر بن حيان** و **الرازي** و**الجاحظ** وغيرهم.

ب : التعليم في العصر العباسي :

انتقل التعليم في العصر العباسي نقلة نوعية (كيفية) وكمية معا، فأصبح –بحق- عصر التخصص والترجمة والإبداع !!

[193] – الحضارة الإسلامية : إبداع الماضي وأفاق المستقبل / أ.د/ عبد الحليم عويس ،ص: 120-122 ،باختصار .

ففي **العصر العباسي** (132 – 656هـ) ولا سيما في القرون الأربعة الأولى- تألق العقل الإسلامي معرفيا، من خلال (استيعاب وإبداع معا) لفقه الإسلام وعلومه المختلفة (القرآنية والنبوية والعربية الإنسانية) التي تسمى علوم النقل.

ومن خلال (استيعاب وإبداع معا)، في مجال العلوم المشتركة مع كل الحضارات، وهي العلوم العقلية، طبا، وفلكا، وفيزياء، وكيمياء، ورياضيات، ونبات، وعقاقير، وأدوية... إلى آخره.

وبدأت في هذا العصر العباسي مدارس لكل العلوم، تتشكل عبر أرض الإسلام، وتتفاعل وتتنافس وتتكامل... عبر التخصصات المختلفة، ومن خلال معاهد العلم التي تجاوزت المسجد- مع أهميته واستمراريته- فاستقلت بنفسها بعد أن اتسعت دوائرها، ولهذا أنشئت المدارس، والجامعات، ومجالس العلم، والمكتبات (دور الحكمة)، وظلت تجتهد وتبدع، حتى صح أن يقول فيها (**ول ديورانت**)

(will Durant) صاحب موسوعة (**قصة الحضارة**) : لقد كانت الحضارة العالمية الأولى، والوحيدة والمهيمنة خلال أكثر من عشرة قرون... أي الى ما بعد القرن السادس عشر الميلادي (العاشر الهجري).

ثالثا : حركة الترجمة وانطلاق المسلمين من التراث القديم إلى الإبداع [194] **:**

دخل المسلمون شاطئ الفرات عام (633م-12هـ)، وانتصروا على الروم عام (634م-13هـ)، ودخلوا دمشق عام(634م – 13هـ) ، وحققوا نصر اليرموك الرائع عام (636م-15هـ)، وانتصروا على الفرس في القادسية عام (637م-16هـ)، وخضعت لهم سوريا (638م-17هـ)،وجميع فارس عام (642م-22هـ)، ومصر بين عامي (639 م – 642 م) الموافق لـ: (18 هـ -22هـ) وأذربيجان عام (642م-22هـ)،وأفغانستان عام (661م-41هـ)، وتونس عام (674م-55هـ)، وبخارى عام (674م-55ه)، والسند عام (708م-90هـ)،ومراكش عام (708م-90هـ)،وإسبانيا بين عامين (711 م -712 م) الموافق لـ(93هـ – 94هـ)، و سمرقند عام(712م- 94هـ)، وفتحوا خلال القرنين الثامن والتاسع الميلاديين معظم جزر البحر المتوسط، وأصبحوا سادة الدنيا بلا منازع.وقد امتدت بقعة الإسلام من الصين شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا.

ومعروف أن الإسلام ليس دينا وحسب، بل هو دين تدخل الحضارة الإنسانية في نسيج تعاليمه، ويفتح للناس ميادين المعرفة والعقل على امتداد الكون والنفس والحياة.

وبما أن أبرز لغات الحضارة القديمة كانت اليونانية والفارسية والسريانية والهندية، فقد ركزوا على هذه اللغات.

وقد كانت السريانية- في الغالب- مجرد لغة وسيطة بين العربية واللغات الثلاث الأخرى، لتيسير نقل علومها ومعارفها الحضارية.

وعهد إلى المترجمين في القرنين الثاني والثالث للهجرة (العصر العباسي) بنقل أهم المؤلفات اليونانية إلى العربية، والتوفيق بينها وبين متطلبات الحضارة الفكرية الإسلامية، كالطب والفلك والجغرافيا والكيمياء والفيزياء.

---

[194]- الحضارة الإسلامية : إبداع الماضي وأفاق المستقبل / أ.د/ عبد الحليم عويس ،ص: 123-128 ،باختصار .

وقد أصبح كتاب (**القانون في الطب**) **لابن سينا** عمدة **الطب** وأساسا لتقسيمه في الغرب، وقد بقى – **طوال خمسمائة سنة**– النص المعتمد عليه في **كليات الطب الأروبية**.

أما في الرياضيات: فأوروبا مدينة لأشهر أعلامه من المسلمين وهو: **الخوارزمي**، مبتكر علم الجبر، وناشر الأرقام الهندسية التي تدعى في الغرب بالأرقام العربية حتى اليوم.

أما في علم الطبيعيات: فقد درس كتاب العلامة ابن الهيثم المعنون (كتاب المناظر) في مدارس أوروبا حتى القرن السابع عشر، وكذلك في علمي الكيمياء والفيزياء ومعهما الفلك.

إن **أهم ما أدركته العصور الوسطى في العلوم الطبيعية** هي: **مبادئ البحث التجريبي**، فبين الطرق العديدة التي اتبعتها هذه العلوم، كالمراقبة والقياس والعد والاستقراء والاستدلال والتجربة، احتلت التجربة مكانا رفيعا، وكان المسلمون هم السباقين، إذ وضعوا أسسها قرب نهاية القرن الخامس الهجري.

وكان من أبرز عباقرة المسلمين في الكيمياء الأمير خالد بن يزيد (الأموي)، المتوفى سنة (90هـ)، والإمام جعفر الصادق، والرازي أبو بكر محمد بن زكريا، وجابر بن حيان (الكوفي)، وأبو المنصور الموفق بن على المتوفى في القرن الرابع الهجري، والمجريطي مسلمة ابن أحمد، والطغرائي أبو إسماعيل مؤيد الأصبهاني، والعراقي السماوي محمد بن أحمد، والجلدكي على بن أحمد عز الدين، المتوفى في القرن الثامن الهجري.

والقائمة تبدأ من أيام الخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور، الذي تولى الخلافة عام (753م –136 هـ)، الذي يعد عهده بداية النقل المنهجي لعلوم اليونان والسريان والفرس والهنود، ولهذه القائمة دلالتها على الأهمية التي احتلها هؤلاء الناقلون المؤرخ لهم.

أهمية حركة الترجمة :

كما أن الترجمة قد دفعت إلى ظهور حركة تأليف في بعض المعارف، فقد بدأ المترجمون يضعون الرسائل والكتب، ليستعملها الطلاب على شكل ملخصات في شتى أنواع العلوم وبخاصة الطبية منها، ثم ما لبثت هذه الحركة أن توسعت بين العلماء العرب الذين أخذوا يكتبون على أسس متينة من المعرفة، فقد ظهرت في الطب والفقه والتاريخ واللغة – مثلا– كتب كثيرة، وبعضها بعدة أجزاء، بحيث كان بعضها أشبه بالموسوعات، كما كان المؤلف الواحد يصنف عشرات الكتب في مختلف المواضيع مدللا على سعة معرفته بمختلف العلوم.

يقول **أحمد علي الملا** في كتابه (**أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية**): (إذا كان المسلمون قد نقلوا وترجموا كثيرا من التراث العلمي للأمم الأخرى، كاليونان والفرس، فإنهم لم يلبثوا أن اعتمدوا على أنفسهم وعلى المناهج العلمية التي ابتكروها، فافتتحوا المدارس والمعاهد والجامعات، وألفوا الكتب والمراجع والأبحاث، وأقاموا المراصد و المشافي والمختبرات، يدفعهم إلى ذلك نشاط وثاب، وهمة عالية لفتت الأنظار إليهم، وانتزعت الإعجاب بهم، حتى لهج أعداؤهم بالاعتراف لهم بالفضل والسبق).

يشير **ياسين خليل** في كتابه (**التراث العلمي العربي**) فيقول : (إن مكانة التراث العلمي العربي تتعين **باتجاهين**:

الأول: بما حققه العرب من تراجم ونقل من لغات أمم أخرى إلى اللغة العربية، فحفظوا بذلك تراثا ضخما من العلم، إذ لولا ذلك لضاعت معارف كثيرة، ولبدأ الإنسان من جديد في طلب المعرفة والعلم، ولتأخر ركب الحضارة الإنسانية عدة قرون.

الثاني: بما أضافه العرب وابتكروه من وسائل ومعارف وعلوم جديدة لم تكن معروفة من قبل، وما قاموا بتطويره في الاتجاه العلمي الصحيح، فأنجزوا بذلك الشيء الكثير في جميع حقول المعرفة الإنسانية والرياضية والطبيعية والهندسية والتكنولوجية وغيرها، مما كان له أبلغ الأثر في النهضة الأوروبية، وبالتالي ترجمت مؤلفات العلماء العرب إلى اللغة اللاتينية، وتعرف عليها المفكرون والعلماء، فأفادوا منها في تطوير العلم والانتقال به إلى مرحلة تطويرية جديدة.

وكان لهذا النشاط الإسلامي الإبداعي الدءوب الذي امتص خلاصة الحضارات السابقة أثره في بروز العصر الذهبي للحضارة الإسلامية في الفترة بين سنة (700م-1300 م) الموافق لـ:(82 هـ - 699 هـ) ولهذا سميت هذه **القرون الستة** بعصر **النهضة الإسلامية**؟، وكانت هذه النهضة أساس النهضة الأوربية في العلم، التي بدأت حوالي عام (1400 م) الموافق (803 هـ) .

تؤكد ذلك **المستشرقة سيجريد هونكه** في كتابها (**شمس العرب تسطع على الغرب**) حيث تقول: (ولعل أكبر دليل على هذا هو أن الغرب بقي في تأخر، ثقافيا واقتصاديا طوال الفترة التي عزل فيها عن الإسلام ولم يواجهه، ولم يبدأ ازدهار الغرب ونهضته إلا حين بدأ احتكاكه بالعرب سياسيا وعلميا واستيقظ الفكر الأوربي من سباته- الذي دام قرونا- على قدوم العلوم والآداب والفنون العربية، ليصبح أكثر غنى وجمالا، وأوفر صحة وسعادة ... تتتلمذ أوروبا وغيرها عليهم، وتجلس تحت أقدامهم).

الفرع الرابع عشر : إسهامات المسلمين في الحضارة الإنسانية

أولا:أثر الأدب العربي في الأدب الأوروبي[195] :

من خلال أصالة اللغة العربية، التي أصبحت لغة الثقافة والأدب الأولى في عالم العصور الوسطى، ومن خلال خلفية شعرية عربية عميقة الجذور، وبتأثير من البلاغة القرآنية والتصوير الفني في القرآن....نبغ العرب في الآداب نثرا وشعرا، وفي اجناسها المختلفة.

يقول المستشرق (جب) GIBB في كتابه **"تراث الإسلام"** (إن خير ما أسدته الآداب الإسلامية لآداب أوروبا، أنها أثرت بثقافتها وفكرها العربي في شعر العصور الوسطى ونثرها، وقد ظهرت نزعة جديدة في الأدب الأوروبي.

وقد انتقل التأثير الأدبي العربي في الأدب الأوروبي بفضل جهود المسيحيين الإسبان الذين استعربوا وخضعوا للعرب، وبالتالي قاموا بدور مهم في نقل بذور الثقافة العربية إلى البلاد المسيحية المجاورة من جهة الشمال.

كثيرا من الباحثين والمستشرقين-وعلى رأسهم غوستاف لوبون- يعتقدون أن القافية جاءت أوربا عن طريق الشعر العربي، ولعل هذا الرأي هو الذي دفع ببعض المتعصبين من رجال الغرب إلى محاربة القافية في الشعر، بحجة أنها لم توجد في الشعر الكلاسيكي.

لا يمكن إنكار أثر كتاب (كليلة ودمنة) الذي ترجمه ابن المقفع عام (707م) من البهلوية إلى العربية، فلقد ترجم هذا الكتاب إلى القشتالية عام 1261، بأمر الملك (**ألفونسو الحكيم**) Alfonso el sabio،ثم ترجم إلى العربية في القرن الثالث عشر.

وقد أصبح كتاب (كليلة ودمنة) أساسا لما كتب بعد ذلك من قصص في الشرق والغرب؛ تقال على ألسنة الحيوانات والطيور في أكثر من أربعين لغة، اشتملت على حكم وأمثال تقال على ألسنة الطير والحيوان.

وهناك كتاب آخر لقي من الشهرة والانتشار ما لقيه كتاب (**كليلة ودمنة**) وهو كتاب (**السندباد**)، وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة القشتالية بأمر الأمير (دون فدريكي) Don federique شقيق الملك ألفونسو العاشر عام(1251 م)...مصورا (**خدع النساء وكيدهن**)، وقد وصل هذا الكتاب إلى أوروبا من طريقين:

أولهما: الترجمة القشتالية التي ترجمت عنها عدة ترجمات .

والآخر: طريق التاريخ الفارسي المعروف بكتاب (الوزراء العشرة) ومنه كانت الترجمة اللاتينية.

ابن طفيل أديب مسلم عالمي:

الأديب الفيلسوف والطبيب الشاعر الأندلسي أبا بكر محمد بن عبد الملك المعروف بابن طفيل (ت581هـ-1185م).

وكان ابن طفيل طبيبا ورياضيا وفلكيا وشاعرا، شغل وظيفة كاتم السر لحاكم غرناطة، وهي آخر ممالك الإسلام بالأندلس، وفي سنة(1154م)أصبح كاتم السر.

---

[195] – الحضارة الإسلامية : إبداع الماضي وأفاق المستقبل / أ.د/ عبد الحليم عويس ،ص: 131-136 ،باختصار .

كنموذج إسلامي عربي أثر في الآداب العالمية، وذلك من خلال قصته الأدبية الفلسفية التي يعرف بها، وهي قصة (حي بن يقظان).

ويشير **بروكلمان** Brockelmann في كتابه (**تاريخ الأدب العربي**) إلى أن هذه القصة قد ترجمت إلى الألمانية والاسبانية والفرنسية وغيرها، بينما يورد المستشرق الفرنسي (**ليون جوتيه**) Leon Goethe تسع ترجمات إلى اللغتين الفارسية والعبرية.

وتريد قصة حي بن يقظان أن تصل إلى التلاقي بين الحكمة والشريعة والفطرة، أو العقل والوحي؛ ولذلك يأتي(حي بن يقظان) بطل القصة رجلا منعزلا لم يخضع قط لتأثير المجتمع، بل إنسانا استيقظ عقله بصفة تلقائية فوصل تدريجيا – بجهده الخاص– من جانب ، وبعون من العقل إلى إدراك أسمى للأمور الميتافيزيقية الغيبية، أي إدراك أن للكون خالقا ومدبرا حكيما، وإلا لما انتظم الكون بهذه الدقة والاستمرارية.

يقول **العلامة** الإسباني (**ينفذت أبيلاير**) Apilair : إن كتاب حي بن يقظان هو العمل الفلسفي والأدبي والديني والتربوي والنفساني الأكثر أصالة وعمقا في تاريخ الأدب الإسباني العربي على الإطلاق ، إن هذا الكتاب لا يهم الفلاسفة فحسب، بل يهم كل من يهتم بتاريخ الفكر الإنساني قاطبة.

ثانيا : أثر المسلمين في الفلسفة [196] :

يرى المهتمون بالفلسفة أن كلمة (**الفلسفة**) مشتقة من كلمة يونانية هي (**فيلا سوفيا**) ومعناها (**محب الحكمة**)، ومعنى الفلسفة العلم بحقائق الأشياء والعمل بما هو أصلح، وقد نقل ابن أبي أصيبعة عن الفارابي أنه قال: اسم الفلسفة يوناني دخيل على اللغة العربية، وهو في لسانهم مركب من (**فيلا**)أو (**فيلو**)و(**سوفيا**) ، (**ففيلا**) تعنى الإيثار، و(**سوفيا**) تعني الحكمة.والفيلسوف مشتق من الفلسفة ، ومعناه (**المؤثر للحكمة**)

وقد جاءت الفلسفة العربية مزيجا من الأرسطوطالية،والأفلاطونية الجديدة بفضل الجمع في الترجمة بين الإلهيات والاشراقات الروحية والحكمة الفلسفية، ولعل هذا ما يفسر اهتمام دارسي الفلسفة العرب بالمسائل الروحية والنفسية، فقد أخذت تراجم مؤلفات أرسطو وأفلاطون تلقى اهتماما وقبولا عندهم.

على أن العرب وإن كانوا قد درسوا الفلسفة على فلاسفة اليونان، وتأثروا بالنواحي الإيجابية منها مما لا يتعارض وأحكام الدين الإسلامي، فإنهم استطاعوا بعد حين أن يقيموا فلسفة عربية إسلامية لها طابعها وطرقها في معالجة المسائل الفكرية المختلفة.**وكان الكندي والفارابي** هما **اللذين مهدا السبيل لاستقلال الفلسفة العربية والإسلامية**.

ويعد **أبو يوسف يعقوب بن إسحاق المعروف بالكندي** من أبرز الفلاسفة المسلمين ومن أوائلهم، وقد لقب **الكندي بفيلسوف العرب**، وبدأ **متكلما معتزليا** ثم انتهى **سنيا**....ولهذا كان من أبرز وأقدم الفلاسفة المسلمين الذين قاموا **بالتوفيق بين الوحي والعقل**.

وقد ألف الكندي كتبا كثيرة منها أكثر من عشرين كتابا في الفلسفة .

[196]– الحضارة الإسلامية : إبداع الماضي وأفاق المستقبل / أ.د/ عبد الحليم عويس ،ص: 137–145 ،باختصار .

ومن فلاسفة الإسلام المعروفين أيضا **أبو نصر الفارابي أبو محمد بن محمد بن طوفان** (259-339 هـ / 872 – 950 م) نسبة إلى ولاية (**فاراب**) من بلاد الترك في بلاد ما وراء النهر ، وهو من مؤسسي الفلسفة الإسلامية ، ولم يكن له من أمور الدنيا أغراض ، ويقول فيه ابن خلكان : (لم يكن في فلاسفة الإسلام من بلغ رتبته في فنونه ، وقد تخرج الرئيس ابن سيناء على كتبه ، وانتفع بكلامه في تصانيفه) ،ة وقال عنه بعض المستشرقين : " وليس شيء مما يوجد في فلسفة ابن سيناء و ابن رشد إلا وبذوره موجودة عند الفارابي ، وقد عد الفارابي أكبر العلماء بعد أرسطو ، لذا أطلق عليه اسم المعلم الثاني" .

ويقول عنه العقاد : (إن فلسفة الفارابي فلسفة إسلامية لا غبار عليها، فلم ير فيها جمهور المسلمين المعنيين بالبحث الفكري جرحا و لا موضع ريبة ولا مقالة تغضب متدينا بالإسلام أو بغيره من الأديان ، وقد ألف الفارابي كتبا كثيرة إلا أنه اشتهر بشروحه لفلسفة أرسطو ،كما ألف طائفة من الرسائل تضمنت فلسفته الخاصة مثل:"**فصوص الحكم وإحصاء العلوم** "،"**والجمع بين رأي الحكيمين أفلاطون وأرسطو**" و" **آراء أهل المدينة الفاضلة**") .**فالفيلسوف الكامل** هو الذي يحصل العلم الكلي ويكون له في الوقت نفسه قدرة على استعماله .

ويعد **الإمام أبو محمد علي بن حزم الأندلسي** (**ت 456 هـ**) ممن اشتغلوا بالفلسفة و المنطق ، وله في ذلك كتاب "**التقريب لحد المنطق**" ، وضع فيه أمثلة شرعية في القضايا المنطقية المختلفة ، ودافع عن هذا العلم ضد الذين يرفضونه ابتداء .

ويدخل في إطار **جهود ابن حزم في الفلسفة** أيضا ما قدمه حول (**نظرية المعرفة**) التي حدد فيها طريق الوصول إلى الحقيقة مبينا أنه يعتمد على **أصول أربعة**:

1- النصوص الدينية، كما هي في القرآن والسنة.

2- اللغة من حيث دلالتها الظاهرة المتعارف عليها عند أصحابها.

3- الحس السليم وبديهة العقل.

4- الاكتساب بالاختبار والنقل بالتواتر. **فالقسمان الضروريان للمعرفة عند ابن حزم** هما:

1- **ما عرفه الإنسان ببديهة الفطرة وأولية العقل**(مثل معرفة أن الكل أكثر من الجزء، وأن من يولد قبلك فهو أكبر منك)...وأن نصفي العدد مساويان لجميعه.

2- **ما عرفه الإنسان بالحواس السليمة عن طريق الاكتساب بالاختبار**، والنقل بالتواتر؛ كمعرفة أن النار حارة وأن الثلج بارد، والصبر مر، والتمر حلو.

وعندما نصل إلى الإمام الغزالي(**محمد بن محمد بن أحمد، أبو حامد الطوسي**، 450 – 505هـ) نجد أنفسنا أمام أشهر شخصية في الحضارة الإسلامية جمعت بين الدين والتصوف الصحيح والفلسفة، واستطاعت دحض تهافت بعض الفلاسفة اليونانيين.

لقد كان **الغزالي**(**دائرة معارف عصره**) رجلا متعطشا إلى معرفة كل شيء منها في جميع فروع المعرفة، كما يقول بعض المعاصرين.و من مؤلفاته : كتاب:("**فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية**" (ويسمى **المستظهري**)، وكتاب "تهافت الفلاسفة)،

وكتاب :"**معيار العلم في المنطق**"، ومنها كذلك كتاب: "**إلجام العوام عن علم الكلام**"، وكتاب:" **فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة**"، وكتاب :" **مقاصد الفلاسفة**".

وقد أحدثت تصانيف أبي حامد الغزالي في الفلسفة والمنطق و ما وراء الطبيعة أثرا عظيما بعيدا في المشرق والمغرب، وقد قام بترجمة الكثير منها نصارى طليطلة في الأندلس خلال القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي).

ولعل أبا حامد الغزالي وابن حزم من أقرب الفلاسفة المسلمين في التعبير عن منطق الإسلام وفلسفته، بعيدا عن هيمنة أو مرجعية الفلسفة اليونانية.

أبو الوليد ابن رشد(ت 494هـ-1197م):

أما **ابن رشد** فهو أبعد فلاسفة العرب صيتا، وهو الشارح لفلسفة **أرسطو**، لكنه -كما يقول **غوستاف لوبون**- سبق أستاذه في بعض الأحيان سبقا يثير العجب، وفلسفته مقبولة في كثير من الأمور أكثر من **أرسطو**.

ولم تلبث فلسفة ابن رشد حتى أصبحت ذات سيادة مطلقة في **كلية بادو بإيطاليا**، وأصبح **ابن رشد المعلم الأكبر، أو المعلم الثاني**.

وفي نهاية هذا العرض الوجيز نعترف بأن تتبع حركة الفلسفة في حضارتنا الإسلامية أمر يصعب تحقيقه في المساحة المتاحة؛ لكن الجدير بالذكر القول بأن الإسلام كان صمام أمان الحركة الفلسفية فمع وجود بعض الأخطاء والشخصيات القلقة، إلا أن الفلسفة الإسلامية ظلت بعيدة عن الضلال العقيدي والتهافت الفكري في عمومها.

ثالثا : أثر المسلمين في علم مقارنة الأديان [197] **:**

يعترف (**آدم متز**) Adam Metz وكثير من مؤرخي الحضارات أن علم مقارنة الأديان علم إسلامي أصيل أهداه المسلمون للعالم، ونشأ بفضل التسامح الذي عرف به المسلمون تجاه النحل الأخرى.

بيد أن **ابن حزم الأندلسي**، من خلال دراساته وبحوثه، لاسيما موسوعة "**الفصل في الملل والمحل**) يعد أبرز من يرجع إليهم الفضل في تأصيل "علم مقارنة الأديان" وجعله علما له منهاجه وقواعده وضوابطه، وله تبويبه واستنباطه وانتظامه التفكيري، ونسقه الفكري، مع شمول نظرة، وسعة اطلاع على أصول الملل (**الأديان**) والنحل(**الفرق**) وتطوراتها.

منهج ابن حزم :

وقد التزم ابن حزم في تأصيله لعلم مقارنة الأديان منهجا يقوم على الخطوات التالية:

1-اعتمد ابن حزم على التدرج العقلي، وعلى النظرة الشمولية للملل والنحل الكبرى السائدة في العالم.

2-أثبت أن كل كتاب وشريعة- غير القرآن- كانا مقصورين على ناس بعينهم، ومحظورين على من سواهم، ولهذا فإن التبديل والتحريف وارد فيهما.

3-اعتمد قاعدة أن كل كتاب دون فيه الكذب، فهو باطل موضوع عنه ليس من عندرسول الله صلى الله عليه وسلم.

4- عدم الاعتراف بالكثرة: فالحق حق؛ صدقه الناس أو كذبوه، والغوغاء أكثر دائما من العقلاء والمفكرين.

---

[197] - الحضارة الإسلامية : إبداع الماضي وأفاق المستقبل / أ.د/ عبد الحليم عويس ،ص: 146-152 ،باختصار .

5- التركيز على العقائد في مناقش الملل والنحل على السواء .

6- التزام ابن حزم طريقة كتابة فصل مستقل يورد فيه ما يتعلق بكل ديانة؛ من حيث تحتوي عليه، ومسيرتها في التاريخ.

7- التزام ابن حزم بمنهاج علمي منصف برئ من الاستطراد والتعقيد والإخلال.

8- اتباع منهج المقارنة في دراسة الأديان، فقد قارن بين اليهود وبعض فرق النصارى، وبين أكثر النحل وثنية.

9- استخدام الأسلوب الجدلي في مناقشته للملل وعقائدها، ونقده للذين يستخدمون أسلوب السرد والتقرير.

وقد وضع آدابا للجدل هي:

1- أن يكون هدف المجادلة الوصول إلى الحق، بحيث يتخلى كل طرف عن تعصبه لمذهبه.

2- ألا تكون الدعوى التي يجادل عنها خالية من دليل يؤيدها.

3- إذا أذن المحاور لخصمه أن يكون هو السائل وجبت عليه الإجابة، وإن لم يفعل وقع في جهل أو ظلم، ويجب أن تعطى المناظرة الأمان، فكل طرف يعرض حجته دون خوف.

4- ليس من أدب المناظرة معارضة الخطأ بالخطأ .

5- لا يضير المناظرة كثرة الأدلة .

6-إظهار التسليم بالبديهيات والمسلمات؛ فالإصرار على إنكار المسلمات ليس من شأن طالبي الحق.

وطرق الاستدلال عند ابن حزم في مناقشته للملل والنحل هي:

1- الاستفهام التقريري، وهو الاستفهام عند المقدمات والبديهيات وفق المنهج الذي لا يستطيع أن يرفضه أحد، بقيامه على الحق والمنطق.

2- مطالبة الخصم بتصحيح دعواه وإثبات كذبه.

أبي الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني (479-548هـ) صاحب كتاب (**الملل والنحل**)؛ الذي يعد من أشهر كتب التراث في علم مقارنة الأديان- على وجازته وتطرقه إلى مجالات كثيرة.

من أنه دائرة معارف مختصرة للأديان والمذاهب والفرق، وللآراء الفلسفية المتعلقة بما وراء الطبيعة التي عرفت في عصر المؤلف.

رابعا: جهود المسلمين في التاريخ والجغرافية [198] :

أ/ علم التاريخ في الحضارة الإسلامية:

كان عمل الإخباريين(**المؤرخين**) حتى نهاية القرن الثاني الهجري يقتصر على أخبار الأمم الماضية؛ منها العرب قبل الإسلام، والسيرة النبوية، وأحداث صدر الإسلام، إلا أنه اتسم في القرن الثالث الهجري بالزيادة الواسعة في المادة التاريخية من حيث زمانها ومكانها، بدقة التحري عن صحتها ووثوقها، كما أصبحت مصادر المؤرخ عن تاريخ هذا القرن أكثر دقة

[198] - الحضارة الإسلامية : إبداع الماضي وأفاق المستقبل / أ.د/ عبد الحليم عويس ،ص: 153-166 ،باختصار .

وضبطا؛ لأنها تستمد مادتها من سجلات دواوين الدولة المختلفة التي كان يرأسها –عادة– الكتاب المتميزون، وهو ما يجعل لمدوناتهم الديوانية أهمية كبيرة.

لقد اشتهر في مدرسة السيرة و المغازي **عروة بن الزبير بن العوام**(ولد سنة 23هـ) **وأبان بن عثمان بن عفان**(ولد سنة 20هـ) ، و**محمد بن مسلم بن شهاب الزهري** (ت137هـ) **والوليد بن مسلم أبو العباس الأموي** (ت 195هـ)، و**سعيد بن سعد بن عبادة الخزرجي** (ت123هـ) **وسهل بن أبي خيثمة المدني الأنصاري** (ولد سنة 3هـ) و**شرحبيل بن سعد** (ولد سنة 24هـ) ، و**وهب بن منبه** (ت114هـ).

ثم ظهر من بعد هؤلاء جيل المؤرخين الذين حملوا راية تقعيد علم التاريخ واستقلاله، ومن هؤلاء **ابن بكار الضبى** (ت 222هـ) ، و**الجمحي أبو عبد الله محمد بن سلام البصري** (ت 231هـ)، و**يحي بن معين البغدادي** (ت233هـ)، و**الخزاز أحمد بن الحارث** (ت 258هـ)، ثم المحدثون الذين حملوا أعظم أمانة في التاريخ الإسلامي؛ وهي نقل كلام الرسول؛ صحيحا عن طريق التفرغ لجمعه وتمحيص صحيحه من موضوعه، وهؤلاء هم: **محمد بن إسماعيل البخاري** (ت256هـ).

وثاني المحدثين بعد البخارئ هو **الإمام مسلم**(ت 261هـ) وثالثهم الإمام **الترمذي محمد بن عيسى السلمي**(ت 279هـ)، ثم **أبو داود** (ت 275هـ) ، ثم **النسائي** (ت303هـ)، ثم **ابن ماجة** (ت275هـ).

ومن حسنات تاريخ الطبري أن مادته من أوثق المواد– فيما يتعلق بالتاريخ الإسلامي– لاعتماده على منهج (**السند**)، وأنه قدم معلومات كثيرة ودقيقة عن تاريخ الفرس والروم، وامتاز بالحياد والإنصاف والموضوعية).

وقد مثل المسعودي (**أبو الحسن على بن الحسين الهذلي**) المتوفئ سنة (345هـ–957م) مع قربه من عصر الطبري، ومعاصرته له مرحلة أكثر تطورا في الإشارة إلى بعض مغازي التاريخ.

فقد ذكر أنه تناول فيها الأخبار عن بدء العالم والخلق وتفرقهم في الأرض والممالك والبر والبحر والقرون البائدة والأمم الخالية الدائرة الأكابر (...) وتاريخ الأزمان الماضية والأنبياء وذكر قصصهم وسير الملوك وسياساتهم ومساكن الأمم، وتباينها في عباداتها واختلافها في آرائها، وبحار العالم والخلجان والأنهار والجزائر العظام.

كذلك يعد كتاب (**تجارب الأمم**) **لأبي على أحمد بن محمد المعروف بمسكويه**(ت 421هـ) واحدا من أهم الكتب ذات الطابع الشمولي الموسوعي التي تمد الطرف إلى تاريخ العالم كله، وقد بدأه صاحبه بما بعد **طوفان نوح** وانتهئ به إلى سنة(370 هـ)تقريبا.

أما **شمس الدين السخاوى** (المتوفئ سنة 902هـ) وصاحب (**التوبيخ لمن ذم أهل التاريخ**) فيعرف التاريخ بقوله :(إن التاريخ فن يبحث فيه عن وقائع الزمان وحيثية التعيين والتوقيت، بل عما كان في العالم، وأما موضوعه: فالإنسان والزمان، ومسائله: أحوالهما المفضلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للإنسان وفي الزمان).

ونقف عند علامة المغرب عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن خلدون المولود بتونس سنة (732هـ)، والمتوفئ بمصر (سنة 808هـ)؛ وقد اشتهر بابن خلدون نسبة إلى جده خالد بن عثمان وفقا للطريقة المتبعة في المغرب في إضافة واو ونون في التعظيم.

والحق أن **ابن خلدون** من خلال موسوعته التاريخية (**العبر وديوان المبتدأ والخبر**) لا سيما (**المقدمة**) (**الجزء الأول**) ،يمثل المفتاح الكبير الواضح القسمات ،والمتكامل الرؤية و المنهج في إبداع فلسفته للتاريخ ، وفي علم الاجتماع (العمران) بل إننا نستطيع أن نقول مطمئنين: **إن الكتابة التاريخية في الحضارة الإسلامية والإنسانية ينظمها عصران :**

***عصر ما قبل ابن خلدون .**

***وعصر ما بعد ابن خلدون .**

إنه لم يستلهم أحدا من السابقين، ولا يدانيه أحد من معاصريه، بل لم يثر قبس الإلهام لدى تابعيه، مع أنه في مقدمته للتاريخ العالمي قد تصور وصاغ فلسفة للتاريخ تعد- بلا شك-أعظم عمل من نوعه.

ب/ جهود المسلمين في علم الجغرافية :

علم التاريخ كان أسبق من علم الجغرافية؛ نتيجة انبثاقه من علم الحديث وصلته أيضا باهتمام المسلمين الديني بالسيرة النبوية؛ تأسيا منهم بأعمال صاحبها صلى الله عليه وسلم.

وكان أول بروز علمي للجغرافيين المسلمين في أواسط القرن الرابع الهجري حين ظهر الأصطخري بكتابه(**مسالك الممالك**) مزينا بالخرائط الملونة ومعتمدا على الأصول الجغرافية التي أسسها أبو زيد البلخي الذي عاش في بلاط السامانيين.

ولهذه الدقة العلمية اعتمد الأوروبيون الكتب العربية الجغرافية أساسا لدراسة الجغرافية في أوروبا لعدة قرون، ونخص بالذكر كتاب الإدريسي(495-560هـ) المسمى (**نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق**)، وهو مزود بأكثر من أربعين خريطة، وقد ترجم إلى اللاتينية حيث اعتمد عليه الأوروبيون لأكثر من ثلاثة قرون.

موسوعية العرب الجغرافية :

وقد ألف العرب كتبا جغرافية موسوعية تتعامل مع الأرض كلها، بل نكاد نقول: مع الكون كله؛ **فياقوت الحموي شهاب الدين الرومي البغدادي** (575-626هـ / 1179-1228م) قدم لنا موسوعة (معجم البلدان) ضمنها أحاديث عن أسماء البلدان، والجبال، والأودية، والقيعان، والقرى، والمحال ، والأوطان، والبحار، والأنهار ،والأصنام، والأوثان ،كما تحدث عن البيئة الطبيعية ومعرفة مزاجها وأهوائها وصحة منبتها أو سقمه.

ابن بطوطة نموذج عالمي:

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن عددا محدودا في العالم- عبر التاريخ الإنساني- قد استطاع أن يقوم برحلة تستمر خمسة وعشرين عاما؛ مثلما قام بذلك **محمد بن عبد الله الطنجي المعروف باسم ابن بطوطة** (703-777هـ / 1304-1378م) والمولود في طنجة، والذي تعلم فيها ولم يغادرها قبل رحلته الكبرى في الثانية والعشرين من عمره؛ بعد ن تكون تكوينا صالحا في علوم القرآن والعربية والفقه، وقد أعانه ما تعلمه في رحلته الطويلة-فضلا عن اتصافه إلى جانب العلم- بالإيمان والثقة في الله؛ وهي عوامل كانت تجعل الناس في خدمته خلال أسفاره.

وقد **رحل ابن بطو ـة ثلاث مرات** :

الأولى: وهي الكبرى قضى فيها 25 سنة، زار فيها فيه معظم أقطار العالم .

والثانية : كانت بضعة أشهر زار فيها مملكة غرناطة من بلاد إسبانيا .

والثالثة : دامت عامين وكانت إلى افريقية السوداء.

ولعل **نموذج ابن بطوطة** من خير النماذج التي **قدمتها الحضارة الإسلامية للحضارة الإنسانية** في المجالات الجغرافية والبيئية والاجتماعية وغيرها.

خامسا : الفنون في الحضارة الإسلامية [199] :

التصور الإسلامي للفن:

إن مفهوم الفن الإسلامي جد مختلف عن مفهوم الفنون الحديثة التي تهتم بالصور المجسمة فحسب، والصورة كما سبق الإشارة- لا تغذى وجدان المتذوق بمزيد من العلم والمعرفة، بل على العكس من ذلك تماما تثير مزيدا من القلق والوجس والريبة، بما تبرزه من نماذج ذاتية غربية، وما توقظه في رسمها من غرائز عدوانية ووحشية.

ويتمثل ذلك واضحا في الخطوط والنقوش والزخارف والرسوم والألوان على المصاحف والمساجد والأبنية والأوعية والبسط ورسوم الدواب، وأيضا فإن الفن المعماري الإسلامي لا يقل شيئا عن الخط والكتابة؛ إذ تدور حوله جميع الفنون.

إن السبب الخفي للتكامل الفني في الأبنية والقباب الإسلامية إنما يرجع أولا وأخيرا إلى الإسلام بصفة عامة، والتوحيد بصفة خاصة.

فالفن الإسلامي بهذا المعنى توحيدي، يستشف أصوله من الإسلام ذاته، ويستقى مادته من الكون الرحيب؛ فلا يعترف بالأهواء ولا بالمسميات المستحدثة الغامضة، ولا يدعى مصطلحات أنانية؛ كالاختراع الفردي، والخلق الفني، والابتكار من العدم والعبقرية الخالدة، والعمل الفني الأوحد، إلى غير ذلك من المصطلحات الفنية غير الدقيقة.

وكل عمل يقوم به الإنسان صادر عن كيانه كله، وكل لحظة من حياته هي للدنيا والآخرة في آن واحد، ومن هنا لا تنقسم الأعمال إلى قسمين: قسم لقيصر، وقسم الله وإنما تكون كلها لله، ولا تكون هناك بالتالي نظريات اقتصادية، ولا نظريات اجتماعية، ولا تنظيمات أرضية منقطعة عن الله.

القيم الجمالية في الفنون الإسلامية:

يتميز الفن الإسلامي من الزاوية الجمالية بعدد من القيم الجمالية التي تعطيه تميزه وتفرده، ومن هذه القيم (مبدأ التكرار)؛ فالخيام في حياة العربي تتشابه وتتكرر في مجموعات، والنخيل والبقع العشبية في الوديان هي تكرارات خضراء اللون، تعنى إرادة الحياة، وهناك(مبدأ التجريد) الذي غلب على الفنون الإسلامية، لأنه مستمد من التوحيد، وقد يتحاشى الفنان المسلم تجسيد ما خلق الله في صور الكائنات الحية ابتعادا عن الوثنية، لذا تفوق في مجال الزخرفة النباتية والهندسية على أسس مدروسة، وابتكر المسلمون أنواعا من الزخارف المجردة لم يسبقهم أحد إليها، ولهذا لم يدخل التصوير المساجد، حيث استبدل به الكتابة العربية، واقتصر التصوير على الكتب العلمية، وبعض الكتب القصصية والتاريخية.

---

[199] - الحضارة الإسلامية : إبداع الماضي وأفاق المستقبل / أ.د/ عبد الحليم عويس ،ص: 167-175 ،باختصار .

وبالإضافة على (**مبدأ الوحدة والتنوع**) فقد حفلت الفنون المعمارية الإسلامية بأمثلة عديدة تحقق فيها هذا المبدأ، فمثلا التنوع يتجلى في بناء(**ضريح تاج محل بالهند**) حيث اختار المعماري شكلا(**موحدا**) وهو **العقد والقبة المخموسة**....وما زال مبدأ(**الوحدة مع التنوع**) مطبقا على **فن زخرفة التوريق**.

وهناك مبدأ(**استخدام اللون**) حيث كان للألوان عند المسلمين دلالات، فالألوان السوداء، وما يترتب منها، تكدر الأرواح، وتعمى القلوب، وتولد الأخلاط السوداوية، هناك قيمة (**مبدأ استخدام النسبة والتناسب**) حيث كان للعرب المسلمين اهتمام بالغ بالنسب والتناسب، ووجدوا في أتباعها في أعمالهم الفنية تكيفا مع حكمة الخالق في خلقه.

نماذج من الفن الإسلامي خلال عصور الحضارة الإسلامية :

1- من البديهي أن تكون لكتاب الله(**المصحف الشريف**) الأولوية في سلم اهتمامات الفنان المسلم، ولهذا كان المصحف الشريف من أهم الأسباب التي أدت إلى **ازدهار عدد من الفنون الإسلامية** مثل: **الخط، والزخرفة، والتجليد**.

2- ومن الفنون التي نمت بفضل الحرص على **صيانة المصحف الشريف: فن تجليد الكتب**، سواء من حيث الصنعة أو الزخرفة، مما حدا بالأوربيين إلى تقليده.

3- ومن أبرز مهارات التجليد الإسلامي التي برع فيها المسلمون ونقلها عنهم الأوربيون (**لسان الغلاف**) الذي استعمل لحفظ أطراف المصحف الخارجية .

4- كما استخدمت شتى الأساليب الفنية للارتقاء بشكل المصحف، من ترصيع وتذهيب، وتلوين، وضغط ، وتخريم، وطبع، وغير ذلك.

5- ومن الفنون الإسلامية (**فن التذهيب**) لتعيين مواضع التقسيمات ، مثل: فواصل الآيات وبدايات السور، والأحزاب، والأجزاء، ومواضع السجدات.

6- وفي العصر الأموي أخذت معالم الفن الإسلامي تتطور من جيل إلى جيل، وظهرت أنماط مختلفة في العمارة والتصوير متأثرة بالفنون الأخرى من الأمم السابقة، كالرومان في بيزنطة، والفرس في إيران، والفراعنة في مصر، والبابليين في العراق.

7- وفي تخطيط المدن وتعميرها نلاحظ أنه في العصر الأموي قامت المدن وفق مخطط متشابه، وشكل معماري موحد يقوم على مبدأ السور المحيط، والصحن (**الفراغ**) الداخلي الذي تشرف عليه الأروقة، تعقبها غرف في طابق أو طابقين.

8- **أما عن الفنون الزخرفية**: فقد **أظهرت القصور الأموية**، وبخاصة(**قصر الحير الغربي**)، و(**قصر عمره**) و(**قصر خربة المفجر**) والأول **بناه الوليد بن عبد الملك**، والأخيران **بناهما هشام بن عبد الملك**؛ وكذلك (**قصر المشتى**) جنوب عمان بالأردن؛ وينسب إلى الوليد الثاني بن يزيد، ثم (قصر الأخيضر)، جنوب عمان بالأردن، وينسب إلى الوليد الثاني بن يزيد، ثم (**قصر الأخيضر**) قرب عين التمر. وأن فن التصوير لم يكن ممنوعا أو محرما.

9- أما في مجال الملابس وصناعة النسيج فقد اتجهت صناعة النسيج من خلال مصانع عرفت باسم (الطراز)، وكانت الطرز من الكتان أو الحرير أو الصوف.

10- وقد نجح الصانع الذي يصنع السيوف المسماة(**بالسيوفية)** في إمكانيات التشكيل للأدوات والأسلحة والحلي بالصهر وبالطرق وبالتطعيم والتكفيت؛ بالمزج بين معادن متعددة.

11- وفي العصر العباسي ابتكر صناع الزجاج العرب نماذج جديدة للأواني مستخدمين وسائل حديثة في إنتاجهم، وكانت الرسوم اللامعة، والنقوش البراقة هي أهم ما استخدموه في تزيين الأواني الزجاجية.

12- وقد كتب العرب على الرق و**الأديم (والرق هو أجزاء تربع من معدة الحيوانات المجترة، كالابل، والماعز والخراف)**، أما **الأديم(فهو الجلد المدبوغ)**، والأكتاف والأضلاع (**هي عظام أكتاف الإبل والأغنام)**، و**اللخاف** وهي (**قطع الحجارة البيضاء رقيقة السمك)**، والكرانيف و العسب (**وهي الجزء العريض الغليظ من جريد السعف)**، والحرير الأبيض أو المهارق (وهي صحف بيضاء من القماش).

إن المسلمين الذين استفادوا بالتأكيد من الحضارات السابقة كانت لهم خصوصيتهم الحضارية الإسلامية، وكانت لهم- بالتالي- إبداعاتهم التي تعبر- من وجهة نظر فنية إسلامية إبداعية- عن عقيدة التوحيد، وعن موقف دينهم الإسلامي من الكون والإنسان والحياة...

الفرع الخامس عشر : إسهامات المسلمين في العلوم التطبيقية

أولا: علم الرياضيات [200] :

ترجم التراث اليوناني في علم الرياضيات إلى العربية في القرنين الثالث والرابع الهجريين، التاسع والعاشر الميلاديين، إما مباشرة من اللغة الإغريقية، أو بواسطة اللغة السريانية.

وقد بدأ اتصال الحضارة العربية الإسلامية بعلم الرياضيات بترجمة المأثور من معارف هذا العلم في الحضارات السابقة: اليونانية والبابلية والهندية والفارسية.وقد شملت حركة الترجمة معظم المصنفات الرئيسية المهمة في الرياضيات الإغريقية.

إن الرياضيات الهندية (ومعها تقريبا علم الفلك كالعادة) قد انساقت تدريجيا إلى مناطق الشرق، والسواحل الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، بدءا من القرن السابق الميلادي، وانتقل قدر كبير منها عبر قنوات فارسية، ولما كان المسلمون قد ورثوا الحضارة الفارسية، فقد انتقلت إليهم كل تلك المعلومات، ضمن ما انتقل إليهم من التراث الفارسي.

وهكذا ... ورث المسلمون عن الحضارات السابقة تراثا معرفيا متنوعا في علم الرياضيات، لكنهم لم يكونوا مجرد عالة على ما ورثوه، بل نجحوا في أن يطوروا هذه المبادئ المعرفية المتباينة لعلم الرياضيات، ذلك العلم الذي أصبح وسيلة مهمة لتحقيق أهداف حياتية نظرية وعملية على حد سواء.

الحق أن من أهم مميزات العرب-كما يذكر أحد الباحثين -:

فالعرب إذن أخضعوا علوم اليونان والأقدمين لتصحيحاتهم، كما أضافوا إليها تلك الإضافات الكثيرة الهامة، وأورثوا هذا كله لأوروبا في صورة جديدة من خلال حركة الترجمة من العربية الى اللاتينية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر.

كما أن العرب نبغوا في تطبيق الرياضيات على الفلك، والعلوم الطبيعية عموما، وفتحوا آفاقا جديدة في الفلك، بقياساتهم وأرصادهم ونظرياتهم.

لقد أبدى العلماء العرب اهتماما فائقا بفروع الرياضيات المختلفة، وقد سيطر على دراساتهم **اتجاهان أساسيان**:

الأول: استيعاب ما ورثوه من نظريات من الكتب المترجمة، ثم محاولة الإضافة إليها،

الثاني: تطبيق النظريات والمعارف الرياضية على العلوم الأخرى المرتبطة بها.

وفيما يلي عرض موجز لأهم منجزات المسلمين في فروع الرياضيات المختلفة :

أ- علم الحساب :

أخذ العرب عن الهنود في الحساب نظام الترقيم، إذ كان لدى الهنود أشكال عديدة للأرقام، فهذبها العرب، وكونوا بها سلسلتين، عرفت إحداهما بالأرقام الهندية- وهي المستعملة في الأقطار الإسلامية والعربية- وفيها استعملت النقطة لتدل على الصفر، و عرفت الأخرى بالأرقام الغبارية ، وفيها استعملت الدائرة لتدل على الصفر . و الأرقام الغبارية هذه انتشرت

[200] – الحضارة الإسلامية : إبداع الماضي وأفاق المستقبل / أ.د/ عبد الحليم عويس ،ص: 179-187 ،باختصار .

في المغرب والأندلس، ومنها دخلت إلى أوروبا، وأهم مآثر العرب التي استحدثوها في الحساب، هي طريقة الإحصاء العشرى، واستعمالهم الصفر لنفس الغاية التي نستعملها الآن. ومزايا هذه النظام أنه يقتصر على تسعة أعداد فقط وصفر، في حين كانت الأرقام اليونانية والغربية القديمة- القائمة على حساب الجمل- تشتمل على عدد من الأرقام بقدر حروف الهجاء.

وكان العالم الرياضي (**غياث الدين جمشيد الكاشي**) أول من وضع **علامة الكسر العشرى**، واستعملها قبل (**ستيفن**) بأكثر من (**175 سنة**) وبين فوائد استعمالها، وطريقة الحساب بها. ويذكر **الكاشي** نفسه في مقدمة كتابه (**مفتاح الحساب**)، وعلى الصفحة الخامسة منه، أنه اخترع الكسورالعشرية ليسهل الحساب للأشخاص الذين يجهلون الطريقة الستينية، وإذن فهو يعلم أنه اخترع شيئا جديدا.

ومن أبرز علماء الحساب في الإسلام، محمد بن موسى الخوارزمي (ت 236هـ ، 851م): أصله من خوارزم، وأقام في بغداد، حيث اشتهر وذاع صيته بين الناس، وقد ظهر في عصر المأمون، وكان ذا مكانة كبيرة في بلاطه، وأحاطه برعايته، وولاه بيت الحكمة.

والخوارزمي هو أول من صنف كتابا في علم الحساب، كان الأول من نوعه، من حيث الترتيب والتبويب والمادة، **وبين فيه نظام الأعداد الهندي**... وشرح فيه أيضا طرق الجمع والطرح والقسمة والضرب وموقع الصفر في العمليات الحسابية.

ومنهم أيضا: أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي (ت 252هـ ، 867م) **الفيلسوف البغدادي**، وقد ترك في **علم الحساب أربعة عشر كتابا** منها: كتاب في **مبادئ الحساب**، وكتاب في **استعمال الحساب الهندي**، وكتاب في **تأليف الأعداد**، ورسالة في **استعمال الخط المستقيم**، لتسهيل عملية الضرب.

ب- علم الهندسة :

فقد أدخل " **علم الهندسة**" إلى العرب عن طريق ترجمة الأعمال الإغريقية، وخاصة " **أصول إقليدس**"، ومن خلال **مجاميع السدهانتا** الهندية.

فعلى الرغم من أن أساتذة أمثال :" **اقليدس**، و**أبولونيوس**، و**ارشميدس**)، نالوا احتراما يبلغ حد التوفير والتبجيل، إلا أن العلماء العرب لم يتهيبوا نقد نتائجهم، بل تصويبها في كثير من الحالات.

ومن أشهر علماء الهندسة في العلم الإسلامي :

1- جابت بن قرة الحراني البغدادي و أولاده :

وهو **أبو الحسن جابت بن قرة الحراني** (221-288هـ/ 826-901م)، أصله من حران، واستوطن بغداد إلى حين وفاته، ونال حظوة عند **الخليفة المعتضد** (279-289هـ/ 892-901م)، وكانت له شهرة في علوم متعددة، كالفلك والطب والرياضيات والفلسفة، وترجم كتبا عديدة للأقدمين في كل هذه العلوم، لمقدرته على إجادة العديد من اللغات، كالسريانية واليونانية والعبرية.

وأنه أعظم المسلمين في هذا الفرع(**علم الهندسة**)، وذكروا له عددا من النظريات، بعضها من إبداعه، وبعضها تطوير وتجديد لآراء قديمة، مثل تطوير نظرية فيثاغورث (584-495 **ق.م**) التي تقول: " **إن مربع الوتر في المثلث قائم الزاوية يساوي مجموع مربعي الضلعين القائمين**".

ومن أهم كتبه :كتاب (**المدخل إلى اقليدس**)- رسالتان في أعمال أرخميدس (**أرشميدس**) بالهندسة.

وكتاب (**في التفاضل والتكامل**)- ورسالة في **المربع وقطره**، إلى غير من المؤلفات.

2- و أبو سهل الكوهي البغدادي (ت 405هـ/ 1014م) : وله كتاب " مراكز الدوائر على الخطوط"، وكتاب " الزيادة على كتاب أرشميدس".

3- **والحسن بن الهيثم البصري البغدادي المصري (ت 430هـ/ 1039م)؛** ومن أهم كتب ابن الهيثم في الهندسة، كتاب جمع فيه بين هندسة اقليدس وأبو لونيوس، وطبق عليه علم المنطق، وقال عنه :" جمعت فيه الأصول الهندسية والعددية من كتاب اقليدس وأبو لونيوس، ونوعت فيه الأصول وقسمتها، وبرهنت عليها ببراهين نظمتها من الأمور التعليمية والحسية والمنطقية، حتى انتظم ذلك، مع انتقاص توالي اقليدس وأبولونيوس.

4- **أما أبو الريحان البيروني**: فإن المسلمين قد أولوا الهندسة التطبيقية كل حفاوة واهتمام من أجل استخدامها في مجال الصناعة والعمران والفنون... وقد عبروا بذلك من نزعتهم العملية والتجريبية.

د- الجبر:

يعد علم الجبر علما إسلامي النشأة، وإن تردد أن الأصول الأولى لهذا العلم قد عرفت في الحضارات السابقة : المصرية القديمة، والبابلية، والهندية، واليونانية.

فيقول **كاجوري** في كتابه " **تاريخ الرياضيات**": " **والعرب هم أول من أطلق لفظ جبر على العلم المعروف الآن بهذا الاسم، وعنهم أخذ الإفرنج هذه اللفظة** (Algebra)، **وكذلك هم أول من ألف فيه بصورة علمية منظمة**".

"إن كتاب الخوارزمي هو اللبنة الأولى في العلوم الحديثة، ويستحق الخوارزمي أن يسمى والد الجبر، حيث لم يكن عند العلماء الرياضيين الذين سبقوه فكرة واضحة عنه كعلم مستقل، بل كانوا يحاولون معرفة علم الأعداد".

وبقي عدة قرون مصدرا، اعتمد عليه علماء المسلمين في مختلف الأقطار في بحوثهم الرياضية، كما أنه كان النبع الذي استقى منه فحول علماء أوربا في القرون الاوربية الوسطى".

وقد عرف العرب حل المعادلات من الدرجة الثانية، وهي الطريقة نفسها المستعملة الآن في كتب الجبر للمدارس الثانوية.إن الخوارزمي هو واضع علم الجبر، ومعلمه للناس أجمعين.

د- علم حساب المثلثات :

علم حساب المثلثات: " **هو ذلك العلم الذي ينظر في النسب القائمة بين أضلاع المثلث و زواياه**".

وقد عرف هذا العلم، في الحضارات القديمة المصرية واليونانية والهندية، بيد أن الفضل في إبرازه، وجعله علما مستقلا عن غيره، يرجع إلى علماء المسلمين، بعد أن كان مرتبطا بعلم الفلك ارتباطا وثيقا.

وقد اطلق المسلمون على هذا العلم اسم " علم النسب"، نظرا لأنه يبحث في النسب بين أضلاع المثلث.

ومن علماء المسلمين الذين بذلوا جهدهم لتنظيم هذا العلم، وإرساء قواعده:

1- **أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان البتاني** (ت 317 هـ / 929 م)**:** وهو أول من استعمل المعادلات المثلثية، وأول من أدخل مصطلح (**الجيب**)، واستعمله بدلا من كلمة (**الوتر**) التي كانت مستعملة عند اليونانيين، كما أنه ابتكر مفاهيم " **جيب التمام**"، و " **الظل**" و " **تمام الظل**".

2- وهناك أيضا **أبو الوفا محمد بن محمد البوزجاني البغدادي** (ت 388هـ / 998م) : وقد قضى أبو الوفا البوزجاني جل وقته في دراسة مؤلفات أستاذه البتاني في علم حساب المثلثات، فعلق عليها، وفسر الغامض منها، وحذا حذوه في العمل على فصل هذا العلم عن علم الفلك، واعترف له المحققون في تاريخ العلوم ببراعته وفضله على علم المثلثات، حتى اقترن اسمه عند علماء أوربا بتقدم هذا العلم، فوصفه " كارل بوير"، في كتابه (تاريخ الرياضيات)، بأنه " من المسؤولين الأوائل عن استقلال علم حساب المثلثات عن علم الفلك، حتى تمكن من إدخال علم الجبر عليه بالطريقة النظرية، وهذا واضح في متطابقاته المثلثية".

ثانيا: علم الفلك في الحضارة الإسلامية [201] **:**

إن علم الفلك من العلوم القديمة التي ظهرت في حضارات مختلفة، فعرفه قدماء المصريين منذ الألف الثالثة قبل الميلاد، وعرفه البابليون (حوالي 1800 ق.م)، وحققوا فيه تقدما كبيرا، وتوصلوا الى نتائج باهرة، وكذلك كان الكلداتيون أساتذة العالم في علم النجوم والفلك، وعرف أيضا عند الاغريق والفرس والهنود.

يقول المستشرق الإيطالي (**نلينو**) في كتابه:"علم الفلك..تاريخه عند العرب في العصور الوسطى": " **إن عرب الجاهلية كانوا ذوي معرفة عملية بالنجوم، ولم يكن لهم شيء من علم الهيئة الحقيقي**".

نشأة الفلك ورواده في الحضارة الإسلامية:

كانت لدى المسلمين بواعث عملية ودينية للاهتمام بعلم الفلك، فاتساع الأرض الإسلامية، وصحراوية كثير منها يحتاج لمعرفة النجوم والسير على هداها، كما أن تعيين أوقات الصلاة في كل بلد يستلزم معرفة الموقع الجغرافي طولا و عرضا، وموقع الشمس في فلكها، ويقتضي تحديد القبلة معرفة موقع البلاد، وكذلك يوجب تحديد صيام رمضان ونهايته معرفة طرق رؤية الهلال، في ظل الظروف التي قد لا تكفي العين المجردة للقيام بالأمر.

نهضة علم الفلك في العصر العباسي :

ازدهر علم الفلك – كغيره من العلوم العملية- مع مطلع العصر العباسي، ولا سيما بعد تأسيس بغداد، التي غدت حاضرة الخلافة ومركز الأمة الإسلامية، نتيجة اختلاط العرب بغيرهم من الأمم الأعجمية المتمدنة، فزادت رغبتهم في معرفة علم الفلك والاطلاع على ما أبدعته قرائح العلماء من مصنفات في هذا العلم.

---

[201] – الحضارة الإسلامية : إبداع الماضي وأفاق المستقبل / أ.د/ عبد الحليم عويس ،ص: 188-206 ،باختصار .

وسعى **الخليفة أبو جعفر المنصور** إلى إحياء علم الفلك مستعينا في ذلك بطائفة من علماء الهند ، ففي سنة (154 ه / 770 م) **حضر إلى بغداد عالم هندي ذو دراية واسعة بعلم الفلك ، مصطحبا** معه كتابا في **الفلك باللغة السنسكريتية** يسمى **(السد هنتا)** أو **(السد هانت) ، ألفه أحد علماء الفلك الهنود** . وقد عرف الكتاب **بعد ترجمته إلى العربية** بكتاب **(السند هند)**،ويشتمل على مقدمة وجيزة،مرفق بها عدد من الجداول الفلكية في تحركات الأجرام السماوية ، وطلوع ومغيب البروج، وقد حسبت هذه الحركات على أسس دورات زمنية تضم آلاف السنين .

وقد عهد **أبو جعفر المنصور** إلى ذلك العالم الهندي بإملاء مختصر للكتاب المذكور ، ثم أمر بترجمته إلى العربية ، وباستخراج كتاب منه تتخذه العرب أصلا في حركات الكواكب . وقد قام بالترجمة **(محمد بن إبر اهيم بن حبيب الفزاري)**، وسمى العمل الذي قام به كتاب **(السند هند الكبير)** ، واستخرج منه زيجا عرف **بزيج الفزاري** ، وهو الذي نقل عن **البيروني** في غير موضع من كتابه **(تحقيق ما للهند من مقولة)** ، مبينا أنه مستنبط مما أملاه **الحكيم الهندي** في حركات الكواكب على مذهب **(السند هند)** .

وفي عهد **المنصور** ظهر كتاب **(السند هند)** الذي اختصره **الخوارزمي** وصنع منه زيجه الشهير في طول البلاد العربية وعرضها ، وعول فيه على أوصاف **(السند هند)** وخالفه في **التعاديل** و**الميل** ، فجعل **تعاديله** على مذهب **الفرس** ، و**ميل الشمس** فيه على مذهب **بطليموس** ، واخترع فيه من أنواع التقرب أبوابا حسنة ، استحسنه أهل ذلك الزمان وطاروا به في الآفاق ...لكن كتاب **المجسطي**[202] **البطليموسي** كان أكثر الكتب التي أفادت العرب فلكيا .

وقد ظل كتاب **" السند هند"** أساسا لعلم الفلك عند العرب مدة غير قصيرة إلى أن بدأ يزاحمه ما ترجم إلى العربية من كتب اليونان في الفلك، ولا سيما كتاب **" المجسطي" لبطليموس**، وإن ظل نفر من علماء الفلك المسلمين يعتمدون عليه و يتبعون مذهبه، ويعنون بتهذيبه وإصلاحه والإضافة إليه، ففي عهد **الخليفة المأمون** وضع **محمد بن موسى الخوارزمي** مختصرا له سماه **"السند هند الصغير"**، اعتمد فيه على النظام الهندي، غير أنه عدل فيه بعض المسائل لتتفق مع مذاهب الفرس واليونان.

أما كتاب **" المجسطي" لبطليموس**، فيعد من أهم الكتب التي اعتمد عليها العرب وأفادوا منها في علم الفلك، ويعد هذا الكتاب – بحق – أهم كتاب أبدعته حضارة الإغريق في هذا الميدان، وربما كان هذا الكتاب، هو الكتاب الوحيد الذي دارت حوله البحوث الفلكية، واستقى منه كل الفلكيين في العصور الوسطى.

وقد ترجم كتاب " المجسطي"، إلى اللغة العربية عدة مرات، وهذا يدل على مقدار ما بلغته حركة الترجمة لكتب الفلك من نشاط حيوية، وعلى مدى الحفاوة الكبيرة التي لقيها هذا الكتاب، الذي ترك أثرا محمودا في تقدم الفلك والرياضيات في بغداد مركز الحضارة الإسلامية آنذاك.

كما نقلت كتب أخرى أرسلها ملك الروم إلى المنصور بناء على طلبه، وقد صنع **إبراهيم الفزاري** أول مرصد عربي لرصد الأجرام السماوية، وهو المسمى **الأسطرلاب**.

---

[202] – **المجسطي : كلمة يونانية تعنى : النظام العظيم أو البناء الأكبر .**

ونذكر أيضا **أبا سعيد الضرير** الذي ألف كتابا عن طريق رسم خط الزوال، و**العباس بن سعيد الجوهري** الذي اشترك في مرصد بغداد...وهناك الخوارزمي النابغة في علوم عديدة إلى جانب الفلك، و يقال:(إنه اشترك مع فريق من العلماء في قياس محيط الأرض أيام المأمون، وله جداول فلكية سماها **السند هند الصغير** ، كما ذكرنا من قبل).

وفي الأندلس نجد **النابغة أبا إسحاق إبراهيم بن يحي النقاش** المعروف **بالزرقلي**، وهو خير من قام بالأرصاد الفلكية **وصناعة الأسطرلاب** وتحسينه حتى سمي إنجازه **بالصحيفة الزرقالية**، وكذلك برع علماء الأندلس في صناعة الآلات الفلكية **كالأسطرلابات**، و اشتهر منهم – في عهد بني الأحمر – **يحيى بن هذيل**.

مصطلحات "علم الفلك" :

وجدير بالذكر أن هناك مصطلحات متعددة تطلق ويراد بها علم الفلك، من باب إطلاق الكل على الجزء، فعلم النجوم أو التنجيم، وعلم الهيئة، وعلم صناعة النجوم وأحكام النجوم، كلها يراد بها علم الفلك بمعنى واحد تقريبا، وهي تضم بين ناحيها ضمنا (الأزياج) و مفردها (زيج) وهي كتاب يحسب سير الكواكب، ومنه يستخرج التقويم، أي حساب الكواكب لسنة سنة على التوالي.

ويرى **المسعودي** أن (**صناعة التنجيم**) التي تطلق بمعنى (**الفلك**) المتسع تعد جزءا من أجزاء الرياضيات، **وتنقسم إلى قسمين**: **أولهما**: العلم بهيئة الافلاك وتراكيبها وتآليفها، **وثانيهما** : العلم بما ينتجه الفلك في حركته من تأثيرات وما يوجبه– بالتالي– من أحكام، وهذا القسم الثاني لا يستغنى عن القسم الأول.

أما علم صناعة التنجيم، فيرى **البتاني** أنه العلم الذي تعرف به مدة السنين، والأشهر، والمواقيت، والفصول، وزيادة الليل والنهار ونقصانهما، ومواضع الشمس والقمر وكسوفهما، وسير الكواكب في استقامتها، وتبدل أشكالها... إلى غير ذلك.

وهو تعريف يؤكد لنا أن (**البتاني**) لم يفرق بين صناعة التنجيم وعلم الفلك، فموضوعاتهما واحدة تقريبا، وتتبادل المصطلحات التي ذكرناها أثناء معالجة موضوعات الفلك المختلفة.

انفصال التنجيم المنحرف عن الفلك :

لكن (**علم صناعة النجوم**) أو (**التنجيم**) (**علم النجامة**) انفصل عن (**علم الفلك**) في القرن التاسع عشر الميلادي، بعد أن اختلط الدجل بالصدق والعلم بالخرافة، وأصبح رجما بالغيب، وغلبت فيه الشعوذة على العلم. ومن المعروف في الشرع تحريم التنجيم وتأثيم المنجم والمنجم له.

المراصد وآلاتها في الحضارة الإسلامية:

وقد بدأ **إنشاء المراصد** في سنة (215هـ) تقريبا عندما أمر **الخليفة المأمون العباسي** بإنشاء عدد من المراصد، وبإجراء دراسة تقويمية مقارنة للمعلومات التي جاءت في **كتاب المجسطي**، سواء في صميم الفلك، أو في المراصد والآلات المستخدمة فيها، مما يوجب عليهم رصد الكواكب واختبار حقيقة ما جاء فيها، ثم أقيم المرصد المأموني بالشماسية بأعلى بغداد تحت إشراف الفلكي (**سند بن علي**)، و**أحمد المروزي** الشهير **بحبش الحاسب**.

وفي الوقت نفسه أمر **المأمون** بإنشاء مرصد في **دمشق** على **جبل قاسيون**، فأنجز وبوشر العمل فيه في السنة نفسها.

وثمة مراصد أخرى أنشئت في أنحاء متفرقة من الدولة الإسلامية في الشام والقاهرة، وأصبهان و سمرقند و الأندلس، ولا سيما بعد ضعف الخلافة العباسية واضمحلال سلطتها، وظهور ما يعرف بالدول المستقلة.

آلات الرصد:

ولذا اجتهد العلماء المسلمون في تطوير الآلات القديمة من ناحية، وفي اختراع آلات جديدة تعاونهم على النهوض برسالتهم من ناحية أخرى. يقول **رونالد. ر.هيل:" وقد أجرى المسلمون تحسينات على هذه الآلات، فأضافوا مقاييس جديدة، وابتكروا نسخا معدلة، وأنشأوا آلات أكبر"**.

وقد بلغت هذه الآلات من الكثرة –في العالم الإسلامي– أن خصها البعض بمؤلفات مستقلة تشرحها وتتحدث عن فوائدها، مثل كتاب:**" الآلات العجيبة الرصدية"، للخازن** (ت 349هـ/ 960م)، وكتاب**" البراهين وتهيئة آلات يتبين فيها أبعاد الأشياء"، لأبي العباس الفضل بن حاتم التبريزي** (من علماء **القرن الرابع الهجري**).

و**الأسطرلاب** أو **أصطرلاب، (أسطرلا بون = اسطر:النجم، لابون:المرآة)** كلمة يونانية قيل أنها لعلم قياس ارتفاع النجوم فوق الأفق، أو ما عرف بعلم النجوم (**إسطرنوميا**) Esternomia، وكان **الفزارى أول من عمل الأسطرلاب في الإسلام في القرن الثاني للهجرة(القرن الثامن الميلادي)** وكتب **الفزاري** عنه فتعرفنا من خلال ذلك إلى طريقة صناعته له، فكان هناك الأسطرلاب **ذو الحلقة** و**الأسطر لاب المسطح**... الذي يعد أقدم الأنواع وأكثرها شيوعا.

ويستعمل **الأسطرلاب** في معرفة أوقات الصلاة، وتعيين اتجاه القبلة، وتعيين المواقع لقياس مساحة الأرض، ولاستخراج عمق الآبار .وهو في الأساس لاستخراج ارتفاع النجوم، أو معرفة محيط الكرة الأرضية، ومعرفة درجات الطول والعرض، وحساب الشهور والتواريخ، وقد يقوم الأسطرلاب بأعمال فلكية تعد بالمئات.

والثابت أن ظهور **آلة الأسطرلاب** يرجع إلى **العهد اليوناني**، وإن كانت آنذاك آلة بسيطة بدائية، يقاس بها ارتفاع النجوم فحسب، فأدخل عليها العلماء المسلمون كثيرا من الإضافات والتحسينات، حتى غدا **الأسطرلاب المسطح**.

ودخلت معرفة هذه الآلة من العالم الإسلامي **إلى أوربا** مبكرا في **القرن الحادي عشر الميلادي**.

أشهر أعلام الفلك في الحضارة الإسلامية :

ومن الصعب حصر أعلام الفلك وأشهر الفلكيين في الحضارة الإسلامية، بيد أننا نؤكد أن الفلك كان من أهم العلوم التي اهتم بها المسلمون والعرب، بل نستطيع القول إنه كان علما شائعا، في كل الحواضر والبلاد، بحيث يصبح من الصعب أن نحصر علماء الفلك في بلد واحد من بلاد الحضارة الإسلامية، أو لدى جنس واحد من أجناس هذه الحضارة عربا أو تركا أو فرسا **(وكلهم متعربون)**، أو في لغة واحدة من لغات الحضارة الإسلامية كالعربية أو الأردية أو الفارسية أو التركية، وكلها ذات صلة بالعربية القرآنية (**لغة الإسلام الأم**).

فمن أبرزهم :ابن الهيثم،وابن يونس،وابن الدمى،وابن برغوث،وابن عراق،وأبوجعفر الخازن الخراساني،وإسماعيل بن مصطفى،وأولغ بك،والجوهري،والدينوري،والشلي،والصاغاني،والطرابلسي، والفرغاني،قاضي زاده الرومي،وقطب الدين

الشيرازي،والكندي،والكوهي،والمجريطي(نسبة إلى مجريط – مدريد) ،والبيروني(ت 440 هـ)العلامة المعروف صاحب الآثار الباقية،والبوزجاني(ت 376 هـ) .

وأخيرا فإن فضل المسلمين في علم الفلك على العالم يتلخص في:

1 – نقل المسلمين للكتب الفلكية القديمة عند اليونان والفرس والروم، والسريان وتصحيح بعض أغلاطها والتوسع فيها، لا سيما أن أصول تلك الكتب ضاعت ولم يبق منها غير ترجماتها في العربية، وهذا ما جعل الأوربيين يأخذون العلم عن المسلمين، فكانوا – أي المسلمون – بذلك أساتذة العالم فيه.

2 – إضافاتهم المهمة واكتشافاتهم الجليلة التي تقدمت بعلم الفلك شوطا بعيدا.

3 – جعلهم علم الفلك استقرائيا، وعدم وقوفهم فيه عند حد النظريات كما فعل اليونان.

4 – تطهير علم الفلك من أدران التنجيم.

ثالثا : الطب الوقائي والعلاجي في الحضارة الإسلامية [203] :

إذا كانت التربية الروحية والنفسية والأخلاقية هي طب الأرواح والنفوس، فإن الطب الوقائي والطب العلاجي هما طب الأجساد، وهما التربية البدنية الراعية للجسم، لأنه كما قيل بحق: **العقل السليم في الجسم السليم**.

وتعد مهنة الطب من أشرف المهن التي عرفها الإنسان عبر تاريخه الطويل، ومصدر شرفها، أنها تقوم على تخفيف آلام المتألمين والمكروبين والمرضى، وتهدف إلى حفظ صحة الإنسان، والتغلب على المرض بالعلاج السريع، وتقديم النصائح والإرشادات الطبية للمريض، حتى يتم له الشفاء، وينعم بالصحة والعافية.

وعلم الطب من العلوم القديمة قدم الإنسان، وقد شارك في وضع قواعده وصياغة نظرياته أمم شتى في مختلف الأزمان والبلدان وتناقل الناس معارفه من أمة إلى أخرى.

ومن المتفق عليه بين الباحثين في تاريخ العلوم التجريبية أن صناعة الطب كانت تشغل أهمية كبيرة ومساحة بارزة في الحضارات القديمة: المصرية والبابلية والصينية، والهندية، والفارسية واليونانية، كما عرف هذه الصناعة ومارسها عرب الجاهلية.

وقد ظهر اهتمام العرب المسلمين بالطب في مرحلة باكرة من تاريخهم، وذلك بتأثير القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة التي تحث على التداوي، وتفيد أن الله ما خلق داء إلا وجعل له دواء، إلا الموت.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى أصول الطب الثلاثة، ومجامع قواعده، فقواعد طب الأبدان ثلاثة: حفظ الصحة، والحمية من المؤذى، و استفراغ المواد الفاسدة.

قال تعالى في آية الصوم :" **أياما معدودات فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر**" [204]، فأباح الله الفطر للمريض لعذر المرض.

---

[203] – الحضارة الإسلامية : إبداع الماضي وأفاق المستقبل / أ.د/ عبد الحليم عويس ،ص: 207–241 ،باختصار .

[204] – البقرة: 184.

ومن أحاديث النبي المأثورة في علم الطب ما روي عن أبي هريرة – رضي الله عنه- عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **(ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء)** ، وعنه أنه قال : **(تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء ، غير داء واحد)** يعني الهرم، أو الشيخوخة.

والحق أن الطب العربي قد ظل بملامحه البسيط، المعتمدة على الأعشاب والنباتات الطبية، وعلى الكي والحجامة وغيرهما من الأساليب البدائية، حتى مطلع العصر الأموي، الذي شهد بداية معرفة العرب بالمؤلفات اليونانية في الطب، وقد نقلت هذه المؤلفات إلى السريانية **أولا**، ثم إلى العربية، وروي أن أول من شرع في نقلها هو **خالد بن يزيد بن معاوية** (ت85هـ / 804م).

وقد كان ل**معاوية** (ت60هـ / 680م) **طبيبان نصرانيان دمشقيان** هما : **ابن آثال** الذي كان على معرفة بالسموم والأدوية... وكان معاوية بن أبي سفيان يستخدمه في التخلص من خصومه، **والطبيب الآخر لمعاوية** هو : **أبو الحكم الدمشقي**، وكان طبيبا أمينا ناصحا **فاعتمد عليه معاوية في علاج نفسه** وأهل بيته، وقد ترك ذرية من الأطباء المعروفين في العصر الأموي.

وكان للمرأة العربية نصيب من المشاركة في علم الطب على عهد الأمويين، ويمكن أن نشير في هذا الصدد إلى **(زينب الأودية)** وهي من طبيبات العصر الأموي البارزات، وكانت كاحلة ماهرة بطب العيون.

وفي عهد الخليفة **عمر بن عبد العزيز** (ت 101هـ / 702م) أسلم الطبيب **السكندرى عبد الملك بن أبجر الكناني** على يد **الخليفة نفسه**،الذي صحبه واستطبه،وقد روي **سفيان الثوري** عن **ابن أبجر** أنه قال : **"المعدة حوض الجسد والعروق تشرع فيه،فما ورد فيها بصحة صدر بصحة،وما ورد فيها بسقم صدر بسقم"**.

ولعل مما ساعد على انتشار الترجمة في العصر العباسي هو أن الدولة العباسية كانت تعد العلم والترجمة مظهرين مهمين من مظاهر التقدم الحضاري والثقافي والعمراني للدولة العباسية، إبان قوتها وازدهارها...

وبإنشاء **الخليفة المأمون لبيت الحكمة في القرن الثالث الهجري** ظهر مترجمون قديرون مهرة في المصطلحات وفي اللغات العربية واليونانية والسريانية،ولهذا نجحوا في ترجمة جميع كتب **أبقراط** و**جالينوس** وشروحها إلى اللغة العربية،حتى بلغ عدد ما ترجم من آثار **جالينوس** ما يقارب من **مائة كتاب بالسريانية**، و**تسعة وثلاثين كتابا** نقلت إلى **اللغة العربية**، وكذلك ترجمت جميع مؤلفات **أبقراط** و**شروح جالينوس** عليها، وذكر **ابن النديم** الكتب **الستة عشر لجالينوس** التي يقرؤها المتطببون **أولا**، وكتبه الأخرى، ويربو عددها على **الخمسين كتابا**، وقد ترجمها إلى العربية عدد من المترجمين، وقد عالجت هذه الكتب مختلف فروع علم الطب وعلاج أنواع الأمراض، فاحتلت الكتب الطبية العربية الصدارة في نهاية القرن الثالث وما بعده، وقد نقل الغربيون **قسما غير قليل منها إلى اللغة اللاتينية**.

وفي ضوء ما تقدم يمكن القول بأن العلماء العرب قد استوعبوا طب اليونان والفرس والهنود من خلال الترجمة، ثم انتقلوا إلى مرحلة التأليف المستقل، حيث لم يكد عصر الترجمة ينصرم حتى كانت مؤلفات الطب المترجمة عن اليونان والهنود في متناول أطباء المسلمين.

وهذا ما يقرره (**هل**) في كتابه: " **الحضارة العربية**"، حيث يقول: (إذا كان الأطباء الأول في بغداد قد انهمكوا في ترجمة مؤلفات أسلافهم إلى العربية، ولا سيما أعمال **أبقراط**، فإن الأطباء المتأخرين (**كالرازي**، و**علي بن ربن**، و**ابن سينا**، و**ابن التلميذ**، و**ابن ملكا**) استطاعوا إبعاد **جالينوس** و**أبقراط**، وأحلوا محلها كتبهم الخاصة في معاهد الدراسة لمدى قرون طويلة).

وقد خطا العرب خطوات واسعة في استعمال العقاقير للتداوي، فهم أول من أنشأوا حوانيت خاصة لبيع الأدوية، وأقدم من أسس مدرسة للصيدلة، وقد ألفوا كثيرا من الرسائل في الصيدلة، كان من أوائلها ما وضعه **جابر بن حيان**.

من منجزات علماء العرب و المسلمين في علم الطب و الصيدلة :

أ- في مجال الطب :

أولا : الالتزام بالمنهج التجريبي: سواء في التأليف والبحث أو عند التطبيق والممارسة العلمية، ويقصد بالمنهج التجريبي في علم الطب: مجموعة الطرق والأساليب والقواعد التي اهتدى إليها الأطباء المسلمون والعرب من خلال ممارستهم للمهنة، فلم يكتفوا بالخبرة العملية، وما ورثوه عن الأوائل، وإنما اعتمدوا على التشريح وعلم وظائف الأعضاء، كما استخدموا أسلوب التشخيص، بالإضافة إلى منهج العلة والمعلول واختبار الأدوية.

ثانيا : الميل إلى التخصص في أحد فروع الطب: فكان من بين الأطباء المسلمين متخصصون في مداواة الأمراض الباطنية ويسمون" **الطبائعيين**"، ومتخصصون في الجراحة يطلق عليهم " **الجرائحيون**"، ومتخصصون في علاج العظام وتجبيرها يسمون " المجبرين"، وهناك من تخصص في طب العيون وهم " **الكحالون**" أو في طب الأسنان، أو في طب النساء، إلى غير ذلك من فروع التخصص المختلفة.

و فيما يلي إشارة سريعة إلى تخصصين من هذه التخصصات ، وهما :

1 - **طب العيون**: تناول أطباء (بغداد/ المشرق) أمراض العيون بكل عناية واهتمام حتى قيل:" **إن طب العيون من اختراع العرب**"، حيث بلغ هذا العلم ذروته بجهودهم التي ظلت الحجة الأولى خلال عصور طويلة، فلم يطاولهم في هذا الميدان، لا اليونان من قبلهم ولا اللاتين الذين عاصروهم أو أتوا من بعدهم.

وقد صنف **على بن عيسى الكحال** (المتوفي سنة 430هـ/ 1039م) كتاب " **تذكرة الكحالين**"، وهو من أشهر كتب العراقيين التي سطرت في هذا المجال.

2- **طب الجراحة : ويعد الرازي** (المتوفي 320هـ / 932م) من أوائل الأطباء المسلمين الذين كتبوا في علم التشريح ومارسوه عن دراية واقتدار.

وممن مارس **التشريح على الحيوانات**:الطبيب البغدادي **يوحنا بن ما سويه** (ت 234هـ/ 857م)، فقد قام **بتشريح قرد كبير**، وسجل ما توصل إليه من نتائج في كتاب له ،قال عنه :" **لم يوضع في الإسلام مثله**"، وقد ذكر له **ابن أبي أصيبعة** من بين كتبه الطبية الكثيرة كتابا يحمل عنوان " **التشريح**".

ثالثا : بناء البيمارستانات :

عنى المسلمون عناية فائقة ببناء (البيمارستانات) لا في بغداد وحدها ، ولكن في مختلف أنحاء العالم الإسلامي،تأسيسا على إيمانيهم بأن الرعاية الطبية حق لكل المواطنين ، فقاموا بإنشاء **البيمارستانات المتنقلة** بجانب **البيمارستانات الثابتة** ،وملأوا بها بقاع الإمبراطورية الإسلامية من بغداد شرقا إلى بلاد المغرب و الأندلس غربا،كما عمت هذه المستشفيات بلاد الشام ومصر،حتى السجون كان الأطباء يدخلونها لعلاج المرضى فيها.

وكانت **البيمارستانات تنقسم إلى قسمين : ثابت** و **متنقل ، فالثابت** ما كان يشيد في مدينة من المدن أو حي من الأحياء و أما **المتنقل** فهو الذي يحمل و ينقل من مكان إلى مكان بحسب الظروف و الأمراض و الأماكن المنتشرة فيها الأوبئة،وكذلك ظروف الحرب،فقد كانوا يقيمون مستشفيات متنقلة في ميدان القتال في الخطوط الخلفية.

نظام المعالجة في البيمارستان:تتم المعالجة في البيمارستان والحصول على العلاج بإحدى ثلاثة طرق:

1- **العلاج الداخلي:**إذا رأى الطبيب المعالج أن حالة المريض تستدعي التنويم في البيمارستان لتلقى العلاج، تعرض الحالة على رئيس الأطباء، الذي –بعد موافقته– يتم تحويل المريض إلى القسم المختص لحالته، حيث يقيم فيه لتلقي العلاج.

2- **العلاج الخارجي في عيادات البيمارستان:**هنا يتم حضور المريض إلى البيمارستان، حيث يقوم الطبيب المعالج بالكشف عليه في الأماكن المخصص لذلك، ثم يصف له الدواء المناسب، ويقوم المريض بصرف من صيدلية البيمارستان.

3- **الزيارات المنزلية:** في الحالات التي يصعب فيها نقل المريض الى البيمارستان تقديم العلاج للمريض في منزله، علما بأن الأولوية في العلاج للمرضى المقيمين. وقد ورد في وقفية **الأمير عبد الرحمن كتخذا**.. " ومن كان مريضا في بيته وهو فقير، كان للناظر أن يصرف ما يحتاج إليه من حاصل هذا البيمارستان، والأشربة والأدوية والمعاجين وغيرها، مع عدم التضييق في الصرف على من هو مقيم (**بالبيمارستان**).

البيمارستانات الشهيرة في بلاد الإسلام:

يقول الدكتور"**جوزيف جارلند**" في كتابه "**قصة الطب**" :" ... وقد أسس العرب عددا من المستشفيات الممتازة، جعلوها مراكز لدراسة الطب ولعلاج المرضى، كأحدث المستشفيات. وقد بلغ عدد هذه **المستشفيات أربعة وثلاثين** موزعة بين أنحاء الإمبراطورية، وإن كان أهمها مستشفيات بغداد ودمشق، وقرطبة والقاهرة".

البيمارستانات في بلاد الإسلام :

- **أول مستشفى ثابت** أقيم في بلاد **الشام كان في دمشق** : أمر بإقامته الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك .
- **بيمارستان أنطاكية** :بناه المختار بن الحسن بن بطلان الذي توفى علم (ت 455 ه) .
- **في القدس**:بنى الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي بيمارستانا كبيرا ،وقد عمل فيه من الأطباء:**يعقوب بن صقلاب المقدس ، ورشيد الدين أبو المنصور بن أبي الفضل بن علي الصوري.**
- **في شبه الجزيرة العربية** : فيها بيارستان بمكة وآخر في المدينة .
- **في بلاد العراق** : بيمارستان بغداد الذي أمر ببنائه هارون الرشيد ، وسماه بيمارستان الرشيد...الخ .

- **و في تونس: بيمارستان تونس**: ومن الأطباء الذين عملوا فيه **الطبيب محمد الشريف الحسنى الزكراوي**، المتوفى عام (874هـ).

- **و في مصر**: **بيمارستان زقاق القناديل**،من أزقة فسطاط مصر،وبيمارستان المعافر،في حي المعافر بالفسطاط قرب القرافية ، بناه الفتح بن خان في أيام الخليفة المتوكل على الله .

-**البيمارستان العتيق**:أنشأه أحمد بن طولون عام (259هـ)في مدينة الفسطاط،وسمي أيضا(**المارستان الأعلى**).

وتجدر الإشارة إلى أن الأطباء المسلمين قاموا بوضع مؤلفات خاصة بتشييد **البيمارستانات** ، وبيان نظام العمل بها وطرق إدارتها ، ولعل أشهر هذه المؤلفات :

كتاب (**صفات البيمارستان**) **لأبي بكر الرازي الطبيب البغدادي** (ت 320هـ/ 932م) ، وقد سجل فيه ما كان يلاحظه من أحوال المرضى الذين كانوا يعالجون تحت يديه في **البيمارستان** الذي كان يشرف عليه ببغداد في **عهد الخليفة المعتضد** (279-289 هـ/ 892-901 م) .

من أبرز أعلام الطب والأدوية:

وكان **الرازي أول من أدخل المركبات الكيميائية في العلاج الطبي** حتى إن **جورج سارتون** يعده"**الطبيب الكيميائي الأول**"، وتنسب إليه كثير من الابتكارات الجديدة في **جراحة العيون** وفي الولادة **وأمراض النساء**.

ويعد **الرازي** من **رواد الطب الروحاني في الحضارة الإسلامية**، حيث قدم من خلال كتابه **" الطب الروحاني"** محاولة لإصلاح الأخلاق على أسس تربوية و نفسية.

ويعتبر كتاب (**الحاوي**) " من أجل كتب **الرازي وأعظمها في مجال الطب**، وذلك أنه جمع فيه كل ما وجده متفرقا في ذكر الأمراض الطبية، ومداواتها من سائر الكتب الطبية للمتقدمين، ومن أتى بعدهم إلى زمانه، ونسب كل شيء نقله فيه إلى قائله".

وتجدر الإشارة إلى أن أكثر كتب **الرازي** قد ترجمت إلى **اللاتينية**، وطبعت عدة مرات، ولا سيما في **البندقية** سنة (1509م)، وفي **باريس** سنة (1528)، وسنة (1745م).

ونختم حديثنا عن الرازي بما قالته عنه **المستشرقة الألمانية زيغريد هونكة**:(**الرازي أحد أعظم أطباء الإنسانية إطلاقا... وقبل ستمائة عام كان لكلية الطب بباريس أصغر مكتبة في العالم، لا تحتوي إلا على مؤلف واحد هو كتاب " الحاوي" في الطب للرازي**").

ومنهم **ابن سينا أبو علي الحسين بن عبد الله** (ت 428هـ/ 1036م)، **وهو أشهر أطباء العرب على وجه الإطلاق**، وأبعدهم أثرا، وقد بلغ من تقدير المعاصرين له أن لقبوه بـ**" الشيخ الرئيس"**، كما لقب **بالمعلم الثاني**، تشبيها له **بأرسطو المعلم الأول**.وأهم كتاب لابن سينا في علم الطب هو كتاب **" القانون"**، ذلك المؤلف العملاق،كما يقول **الأستاذ** (**ميرهوف**) عنه .

ومنهم **أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي**– نسبة إلى مدينة الزهراء من ضواحي قرطبة– (ت 404 هـ / 1013 م)، ويعد من أشهر الأطباء في عصر الازدهار العلمي الأول بالأندلس ، وكان جراحا مبرزا مبتكرا في جراحاته و عملياته الدقيقة ، وهو من أطباء **الخليفة عبد الرحمن الثالث** .

ومن أهم **مجهودات أبي القاسم الزهراوي الطبية** أنه:(**وصف عملية سحق الحصاة في المثانة ، وتفتيت الحصاة في المثانة وإخراجها على الخصوص،فعدت من اختراعات العصر الحاضر على غير حق**).

و يعترف العالم (**سبرنجل**) بأن **الزهراوي أول من علم طريقة استئصال الحصى** المثانية في النساء عن طريق المهبل ، وأول من وصف الاستعداد الخاص في بعض الأجسام للنزيف.

ويتجلى من هذا الكتاب أن الزهراوي أول من فرق بين الجراحة وغيرها من المواضيع الطبية وجعل أساسها قائما على **دروس التشريح**".و**الزهراوي** هو صاحب الموسوعة الطبية الضخمة " **التصريف لمن عجز عن التاليف**".ويعرف هذا الكتاب أيضا باسم " **الزهراوي**" وهو – بحق– مفخرة للأندلسيين وللمسلمين عامة، ولا سيما **القسم الخاص منه بعلم الجراحة**.

أثر الطب الإسلامي في الحضارة الإنسانية :

وقد ثبت لدى كثير من المصنفين – من مستشرقين وعلماء – أن للمسلمين فضلا كبيرا في إنقاذ الطب من الضياع، وثبت لديهم أن أوربا إنما تقدمت بالإضافات الكبيرة التي أضافها المسلمون للطب، والتي نقلت إلى أوربا، وكان لها دورها في تقدم المدنية الأوربية، ويؤيد هذا (كمستون) Camesten، في قوله :(إنه لو لم يكن للمسلمين غير هذا الفضل في الإنقاذ لكفاهم خدمة وفخرا (أي في الإنقاذ من الضياع)، لقد رفع المسلمون شأن الطب، ولهم الفضل في جعل الجراحة قسما منفصلا عنه، وفي إنشاء المستشفيات والتنقل فيها، وفي التصريح الشرعي لمارسة الطب والصيدلة).

وكذلك في الصيدلة طوروها وخدموا أسسها، وهم أول من أنشأوا مدارسها، واستنبطوا أنواعا من العقاقير، وامتازوا في معرفة خصائصها وكيفية استخدامها لمداواة المرضى: كما أعطوا من النبات موادا كثيرة للطب والصيدلة.

يقول الدكتور " **غوستاف لوبون**" Gustav Lebon : (إن أهم تقدم للعرب في عالم الطب هو ما كان في الجراحة وعلم الأمراض وأنواع الأدوية والصيدلة.. والطب مدين للعرب بعقاقير كثيرة... والطب مدين–كذلك– بطر طريفة في المداواة، عاد إليها على أنها اكتشافات حديثة، بعد أن نسيت زمنا طويلا، وعلم الجراحة مدين للعرب أيضا بكثير من مبتكراته الأساسية، وظلت كتبهم فيه مرجعا للدراسة في كليات الطب إلى وقت قريب جدا).

رابعا : علم الكيمياء [205] **:**

ظهر علم الكيمياء ونما وازدهر في مصر القديمة حيث كان للمصريين في هذا العلم شأن كبير. وربما كان من المفارقات العجيبة أن هذا العلم لم يحقق على أيدي اليونان القدماء ما حققه على أيدي المصريين من نمو وازدهار، بل على العكس انحدر هذا العلم في الحضارة اليونانية انحدارا ملموسا، ولم يعرف عنهم الاشتغال بهذا العلم بصورة جدية إلا في العصر الروماني.

[205] – الحضارة الإسلامية : إبداع الماضي وأفاق المستقبل / أ.د/ عبد الحليم عويس ،ص: 242–252 ،باختصار .

فمن المرجح أن خالد بن يزيد بن معاوية هو أول من اشتغل بالكيمياء من العرب، حيث تذكر المصادر أنه أولع بهذا العلم، ونسب إليه ترجمة كتب النجوم والطب والكيمياء وغيرها.ويقول" **هو لمايارد**" Holmyard " ويذكر أن خالد بن يزيد شغف بحب العلوم بصورة عامة، غير أنه جعل الكيمياء في المرتبة الأولى، وقد أمر باستدعاء فلاسفة اليونان من مصر، وطلب إليهم ترجمة العلوم، وبالأخص كتب الكيمياء من اللغتين اليونانية والقبطية إلى اللغة العربية".

فالكيمياء في صورتها العلمية إنجاز حققه المسلمون، إذ إنهم أدخلوا الملاحظات الدقيقة، والتجربة العلمية المتقنة، واخترعوا **الإنبيق**، وأعطوه هذا الاسم (**إنبيق** Alem bic) وفرقوا بين الأحماض والقلويات، واكتشفوا العلاقة بينهما، ودرسوا ووصفوا مئات العقاقير.

ومن الإنجازات المهمة التي حققها الكيميائيون العرب: أنهم كانوا أول من طبق الكيمياء على الطب، وهم الذين أعطوا لهذا العلم اسمه الذي عرف به، ومنه انتقل إلى الإنجليزية chemistry، والفرنسية chimie.

و فيما يلي نبذة مختصرة عن أبرز العلماء المسلمين في علم الكيمياء :

1- **جابر بن حيان الأزدى الكوفي (أبو الكيمياء العربية) :** هو أبو عبد الله جابر بن عبد الله الكوفي (المعروف بالصوفي) هذا ما ذكره ابن النديم في الفهرست،ومع ذلك فإن شكوكا كثيرة تثار حول أصله، فقيل:إنه من **طوس**،وقيل:إنه من **طرسوس**.حيث توفي في حدود سنة (198هـ/ 813م) أو سنة (200هـ/ 810م).

وقد وضع جابر بن حيان نظاما علميا يرى أن يلتزم به كل من يعمل في الكيمياء يقوم على الأسس التالية:

1-تحديد الغرض من التجربة قبل البدء بها.

2-يجب أن يتفرغ صاحب التجربة لها، حتى يعطي التجربة حقها من الوقت والرعاية.

3-يجب ان يكون المعمل في مكان خاص مناسب.

4-يجب اختيار الزمن المناسب، والفصل الملائم للتجربة.

5-الصبر أو المثابرة عنصر هام من عناصر النجاح، والفشل مرة أو مرتين ورابعة لا يعني اليأس.

وقد ترك **جابر بن حيان** عددا كبيرا من المصنفات في علوم شتى ، فصنف في الفلسفة والمنطق والفلك والرياضيات والطب والأدوية والنبات، فضلا عن مؤلفاته في علم الكيمياء، حتى أربت مؤلفاته على **مائة كتاب**.

2- **الكندي الفيلسوف البغدادي** (ت 252هـ / 866م) **:** غلبت شهرة الكندي الفلسفية شهرة كبيرة، لدرجة أنه ربما لا يعرف الكثيرون أن الكندي كان أحد الكيميائيين العرب النابهين، فمع كونه من انصار الفلسفة اليونانية، لا سيما نظريات أرسطو، فإنه –فيما يتعلق بالكيمياء–رفض نظرية أرسطو في تحويل المعادن الرخيصة كالنحاس أو القصدير إلى الذهب أو الفضة.

3- **أبو بكر الرازي** (ت 320هـ / 932م)**:**هو أبو بكر محمود بن زكريا الرازي (ت 320ه/ 932م)، الفيلسوف والطبيب المشهور.

ومن بين **مؤلفات الرازي – التي نيفت على مائة وثمانين كتابا**- نجده قد صنف في علم الكيمياء نحو ثلاثة وعشرين كتابا، وبفضل مجهوداته ومجهودات **جابر بن حيان**، أخذت الكيمياء صورة العلم الحقيقي.

ويبحث الكتاب(**الأسرار**) في ثلاثة أقسام هي : معرفة العقاقير بأنواعها الثلاثة (الترابية، والنباتية، والحيواني)، ومعرفة الآلات (الأدوات)، ومعرفة التدابير، أي التجارب.

4- **أبو القاسم مسلمة بن احمد المجريطي القرطبي** (ت 398ه / 1007م)**:**هو أحد أئمة الفلك والرياضيات بالأندلس في عصره، وقد اشتغل بالكيمياء وعني بدراسة نظرياتها، ومن الآراء المأثورة عنه انه يرى أن من يريد الاشتغال بالكيمياء يجب عليه أن يلم أولا بالرياضيات والعلوم، لأن الرياضيات تعتمد على التفكير المنطقي والاستنتاجات الدقيقة.

وهكذا ... كان للعرب المسلمين الفضل الأكبر في وضع أسس علم الكيمياء، وتأسيس نظرياته، وجعله علما تجريبيا، وذلك بفضل نزعتهم العلمية وميلهم إلى البحث والتجربة-وقد احتلوا انطلاقا من ريادتهم في المنهج التجريبي بعامة- الأستاذية للحضارة العلمية الأوربية المعاصرة.

خامسا : علم الفيزياء [206] **:**

يعرف ابن خلدون العلوم الطبيعية أو الفيزياء بأنها :**" العلوم التي تبحث عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون"**.

وقد بدأ علم الفيزياء في الحضارة الإسلامية شأن غيره من العلوم التجريبية- بترجمة التراث العلمي الفيزيائي في الحضارات السابقة، ولا سيما الحضارة الإغريقية. ومن أهم المراجع اليونانية في علم الفيزياء، والتي ترجمت مبكرا إلى اللغة العربية كتاب **" الحركات"** وكتاب **" الحيل"**، وكلاهما **لأرسطو طاليس**، وكتاب **" رفع الثقال"**، وكتاب **" في الأشياء المتحركة من ذاتها"** من تأليف (**أيرن**)، وكتاب في **" الآلات الحربية" لهيرون الصغير**. ومنها أيضا : كتاب **" الثقل والخفة" لإقليدس**، وكتاب **" ساعات الماء التي ترمى بالبندق" لأرشميدس**، وغيرها كثير.

وقد درس علماء العرب والمسلمين هذه المؤلفات، ووقفوا على محتوياتها، ثم أدخلوا تغييرات بسيطة على بعضها، وتوسعوا في البعض الآخر، واستطاعوا أن يزيدوا عليها زيادات تعتبر أساسا لبحوث الطبيعة المتنوعة.

وفيما يلي نبذة مختصرة عن ابرز منجزات المسلمين في فروع علم الفيزياء:

أ- علم الحيل أو الميكانيكا:

في العصور اليونانية المتأخرة، كرس عدد من العلماء بعض اهتمامهم للميكانيكا بنوعيها (**ميكانيكا الجوامد وميكانيكا الموائع**)، وهم : **أرشميدس** (ت 212ق.م)، و**فيلون البيزنطي** (نحو 230 ق.م)، و**هيرون الاسكندري** (عاش حتى 60م)، و**مينيلاوس** (نحو 100م)، و**بابوس الأسكندري** (أوائل القرن الرابع الميلادي).

[206] – الحضارة الإسلامية : إبداع الماضي وأفاق المستقبل / أ.د/ عبد الحليم عويس ،ص: 253-261 ،باختصار .

وكانت أعمال هؤلاء الرجال معروفة جيدا للمسلمين، **وأهمها رسائل أرشميدس** المختلفة حول **الأستاتيكا** و **الهيدروستاتيكا**. وقد كان كتاب **" الميكانيكا" لهيرون** مهما أيضا.وتم إحياؤه بترجمة عربية ممتازة على يد قسطا بن لوقا في القرن التاسع الميلادي .

ومن أشهر العلماء المسلمين الذين كتبوا في علم الميكانيكا:

1- **أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي** (الفيلسوف البغدادي الشهير) (ت 252 هـ / 867م) وقد اهتم الكندي اهتماما كبيرا بعلم الميكانيكا، حتى إن العلماء كانوا يعتمدون على نظرياته عند القيام بأعمال البناء، كما حدث عند حفر الأقنية بين دجلة وفرات.

2- **أبناء موسى بن شاكر البغدادي: محمد وأحمد وحسين**:ولقد كان ثلاثتهم من كبار علماء الرياضيات و الفلك في بيت الحكمة ببغداد ، يقول **القفطي** : " كانوا أبصر الناس بالهندسة وعلم الحيل ، ولهم في ذلك تآليف عجيبة ، تعرف بحيل بني موسى ، وهي شريفة الأغراض ، عظيمة الفائدة ، مشهورة عند الناس " .

3- **أبو عبد الله الخوارزمي** :وكتابه **" مفاتيح العلوم "** يحظى بأهمية خاصة ، فهو موسوعة للعلوم ، و المقالة الثامنة منه مخصصة للميكانيكا ، **وتنقسم إلى قسمين** :

أولهما:بعنوان **" في تحريك الأثقال بقوة أقل و الآلات المستخدمة لذلك الغرض "**: ومن ثم يتضح أنه مستوحى من " هيرون" . لكن ما جاء في كتاب **" مفاتيح العلوم "** أكثر إيجازا من نظيره في كتاب **" الميكانيكا" لهيرون**.وقد اقتصر **الخوارزمي** في مدخل **(مادة)** كل آلة على مناقشة أصل اسم الآلة وتاريخه **(أتيمولوجيا الاسم)** ، مع وصف موجز لتركيب الآلة ، والغرض منها، وحدد كل مدخل في عدة جمل ، وتشمل موضوعات هذا الفصل : **الرافعة** ، و**نقطة الارتكاز** ، و**البكرة** ، و**الأسفين** و**اللولب** .

ثانيهما : من المقالة الثامنة فهو يعنى بالمكونات المستخدمة في الآلات البارعة الحيل وآلات أخرى.

4- **أبو العز بن إسماعيل بن الرزاز الجزري** (ت 529 هـ / 1134 م) :وهو عالم عراقي عني بعلم الميكانيكا ، وصنف فيه كتاب **" الحيل"** أو **" الجمع بين العلم و العمل"** وقد اهتم في هذا الكتاب اهتماما كبيرا بالمسائل العلمية لعلم الهيدروليكا ، والآلات المتحركة بذاتها .

ب–علم المناظر والضوء " البصريات " :

ويعنى هذا العلم بالبحث في نظرية الضوء وخواصه وظواهره وتطبيقاته والأجهزة البصرية بمختلف أنواعها، ويعرف علم المناظر في اليونانية باسم **" أو بطيقا"** بمعنى البصريات.

و من أهم الكتب اليونانية التي ترجمها العرب في علم البصريات :

-كتاب **" تحرير المناظر" لإقليدس** ، وكتاب **" البصريات " لبطليموس** .

ويعد الفيلسوف **أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي** (ت 252هـ / 866م) من أوائل المشتغلين بهذا العلم في الحضارة الإسلامية، فهو – كما يذكر **دونالد هيل**- أول كاتب عربي يعنى بعلم البصريات.

ومن مصنفاته في هذا العلم: رسالة في " **اختلاف المناظر**"، ورسالة أخرى في " **المناظر الفلكية**"، ورسالة في " **اختلاف مناظر المرآة**".

-أما أشهر علماء البصريات في الحضارة الإسلامية- غير مدافع- فهو **الحسن بن الهيثم البصري البغدادي المصري** (ت 403هـ / 1039م).ولد الحسن بن الهيثم في عام (304هـ / 965م) في البصرة، وهو أحد علماء ثلاثة يزدهى بهم تاريخ العلم كله، وهم **ابن سينا، وابن الهيثم، والبيروني**. وهو بين علماء الطبيعة (**الفيزياء**) الإسلاميين **يعتبر الأرفع شأنا، والأعلى كعبا، والأرسخ قدما.**

ج- الساعات الشمسية والمائية:

تعد صناعة الساعات من أهم ما أبدعه المسلمون في عالم الميكانيكا، وكانت الساعات الشمسية النقالة من أكثر ابتكاراتهم فنا وأصالة. وكانت تعرف عندهم بساعة الرحلة، وكانت دائرية الشكل، في وسطها محور لتحديد موضع الشمس والوقت.

وقد تقدمت صناعة الساعات في العالم الإسلامي في **القرون الثلاثة (السادس والسابع والثامن)** للهجرة،وتخصص بعض المهندسين في صنع آلاتها،مثل:**علي بن تغليب ين أبي البيضاء** (ت 683هـ / 1284م) ، ومما ينسب إليه تدبير الساعات المعلقة على أبواب **المدرسة المستنصرية في بغداد**، ويقال:إنه هو الذي صنعها.

د- الروافع ومراكز الأثقال:

وقد كان للعلماء المسلمين بحوث نفيسة في دراسة الروافع كلها، وكان لديهم عدد غير قليل من آلات الرفع، وكلها مبنية على قواعد ميكانيكية، تمكنهم من جر الأثقال بقوى يسيرة، وقد ذكر **محمد بن موسى الخوارزمي** (ت 236هـ/ 851م) في كتابه " **مفاتيح العلوم**" بعض التفاصيل عن هذه الآلات، مثل آلة المحيط و البرطيس و البيرم و الأسفين واللولب وغيرها، وهي كلها تعتمد على الارتكاز والمحاور.

أما علم **مراكز الأثقال** فقد صنف فيه من العلماء: **أبو سهل الكوهي البغدادي** (ت 405هـ / 1014م) ، وكان له السبق في دراسة مركز الأثقال.و في كيفية استخراج ثقل الجسم المحمول ، وكذلك بحوث قيمة في المبادئ التي تقوم عليها الروافع .

الموازين : وقد أدى التعمق في دراسة مراكز الآثقال ونظريات الروافع إلى اهتمام المسلمين بعلم الموازين دراسة وتأليفا وصناعة ، فعرفوا منها أنواعا متعددة كالميزان العادي ، والميزان المعروف بالقرستون (الميزان ذو العاتق) .

ومن أهم العلماء البغداديين الذين صنفوا في الموازين وعلم الميزان :

1- **ثابت بن قرة الحراني البغدادي** (ت 288هـ/ 900م)، صنف كتابين : أحدهما : كتاب" **صفة استواء الوزن واختلافه وشرائط ذلك**" ، و الثاني : كتاب " **القرسطون**" .

2- **أبو بكر محمد بن زكريا الرازي البغدادي**(ت 320هـ/ 932م): وهو عالم موسوعي كبير ، وقد صنف عددا من الكتب في علم الميكانيكا ، ومن كتبه كتاب "**الميزان الطبيعي**" .

هـ- الجاذبية الأرضية:

درس علماء الفيزياء المسلمون قوة التثاقل الناشئة عن الجاذبية الأرضية، وسموها **الميل الطبيعي**، مفترضين أن لكل جسم مكانه الطبيعي في منظومة الكون، فإذا ما أخرج منه قسرا نزع إلى استعادة مكانه الطبيعي.

ومن أبرز العلماء المسلمين الذين درسوا تساقط الأجسام تحت تأثير الجاذبية الأرضية:

ثابت بن قرة الحراني البغدادي (ت 288هـ)، و**أولاد موسى بن شاكر المنجم، وأبو الوفا البوزجاني البغدادي** (ت 389هـ)، و**البيروني** (ت 441هـ)، و**ابن سينا** (ت 428هـ)، و**الخازني** (ت 550هـ)، و**أبو البركات هبة الله بن ملكا البغدادي** (480-560هـ) وغيرهم، وهؤلاء جميعا حاولوا أن يعللوا العديد من خواص الجذب.

ومن الدراسات التي خاض فيها العلماء المسلمون، وتتعلق بظاهرة الجاذبية بحثهم في حركة المقذوفات، من حيث أن حركتها إلى أعلى تعاكس فعل عجلة الجاذبية الأرضية، أو أن القوة القسرية التي قذف بها الجسم تعمل في تضاد مع قوة الجاذبية، وقد بحث هذه المسألة **أبو البركات هبة الله بن ملكا البغدادي** (ت 560هـ / 1164م) في كتابه **" المعتبر في الحكمة"**.

وهكذا مهد العلماء المسلمون السبيل ببحوثهم ودراساتهم أمام العالم الإنجليزي (نيوتن) (ت 1727م) لكي يصوغ قانون الجاذبية الأرضية، وبهذا قدموا للتقدم الإنساني العلمي يدا لا يجحدها إلا العنصريون المتعصبون، الذين يرون أنفسهم مركز الكرة الأرضية... أما غيرهم فمجرد حواشي وأشباه آدميين.

سادسا : علم النبات و الحيوان و الأرض في الحضارة الإسلامية [207] **:**

يقصد بعلم النبات: العلم الذي يبحث في أنواع النبات، وخواصها، وأشكالها وعجائبها، ومنافعها و مضارها، للغذاء أو التداوي به، وقد اهتم المسلمون والعرب بعلم النبات، من جوانب متعددة:

الأول منها: تحديدهم لأسماء النباتات وأصولها وترتيبها،كما فعل **الفراهيدي والأصمعي والتميمي**.

والثاني منها: دراسة النبات من جهة الزراعة، كمعرفة الأراضي وتربتها وخصوبتها وصلاحيتها بنباتات معينة، وما تحتاج إليه من سماد وماء وأدوية، ويدخل ما يسمى بتربية الحيوانات وتسمينها عن طريق العناية بغذائها ودوائها،

والثالث منها: تلك السلالات النباتية التي اكتشفها الرحالة المسلمون، فضلا عما قرءوا عنه عند الآخرين،

والرابع من مجالات اهتمام العلماء المسلمين بالنبات هو : ما يتمثل في دراسة النباتات الداخلة في صناعة الأدوية (**العقاقير**)، وهي دراسات تعتمد على البيئة التي يعيش فيها النباتيون والصيادلة والأطباء والكيميائيون المشتغلون باستخلاص المركبات العقارية المناسبة للأمراض الشائعة في بيئتهم، ولعل هذا الفرع قريب مما يعرف في أيامنا بعلم البيئة أو نباتات البيئة بصفة خاصة.

ويعد كتاب **" الحشائش" لديسقوريدس** أهم كتاب اعتمد عليه العلماء المسلمون في مجال النبات والأدوية.

---

[207] – الحضارة الإسلامية : إبداع الماضي وأفاق المستقبل / أ.د/ عبد الحليم عويس ،ص: 262- 276 ،باختصار .

وقد عرف **الإدريسي بالعشاب**، فقد كان يتقن معرفة خصائص النبات الطبية، ولكثرة أسفاره كان يدرس نباتات الأقاليم، ويسجل ملاحظاته، ويكتب مقارنا شارحا، يقول ابن جلجل:" إن الشريف الإدريسي استدرك في كتابه " الجامع لصفات أشتات النبات" على **ديقوريدس** ما أغفله وما جهله من نبات ومن خصائص كثيرة في النبات، وقد نال كتابه (**الجامع لصفات أشتات النبات**) شهرة عالمية، فقد ضمنه أسماء النباتات باللغات السريانية واليونانية والفارسية واللاتينية والبربرية والعربية، وقد رتب كتابه على أحرف الهجاء مستفيدا ممن سبقه، مضيفا ما اكتشفه، ملتزما بالموضوعية العلمية.

ومن أبرز علماء النبات المسلمين **ابن العوام يحي بن احمد بن العوام الإشبيلي الأندلسي**، و**لابن العوام** كتاب **"الفلاحة** " ترجم إلى الإسبانية والفرنسية، وهو من جزئين كبيرين، ويشمل **الأول منهما** على **ستة عشر فصلا**، **والثاني** على **ثمانية عشر فصلا**، وقد تحدث في كتابه عن الأراضي وأنواعها، وأنواع الزبل العضوي ومنافعه، ورماد بعض النبات بعد حرقه، وأنواع المياه ونبش الآبار، وكيفية زراعة الزيتون، وزراعة الأشجار المثمرة: كالخروب، والكستناء، والعناب، والفستق، والتفاح، والرمان، والتين، والزبيب وغيرها.

ومن علماء النبات أيضا **أحمد بن داود الدينوري**، ولد في **دينور- إيران**- ونشأ في العراق، وله (**كتاب النبات**) لم يبق منه إلا فصول **طبعت في ليون** عام 1953م، وقد ذكر في كتابه أكثر من **تسعمائة وثلاثين نبتا**، منها: آس، أسفند، بلسن، بلوط، ترمس، تفاح، ثفل ثوم، جداد ، جرجار، جرجير، جزر، حناء، حسافة، حلب، حلفاء، حمص، صناء، خردل، خس، خوخ، دفلى، دلب، ذرة، رشاء، رطب، رمان، صنوبر، طلح، طوط، عرعر، عصفر، علقم، عناب، عوسج، غار، فجل، فقاح، قثاء، قرنفل، قطن، كبات، كزبرة، كمون، لوبيا، مشمس... إلى آخره.

ومن علماء النبات في الدولة الإسلامية أيضا:

1- **قسطا بن لوقا البعلبكي البغدادي** (ت 311هـ / 923م)، وهو طبيب مسيحي عالم بالفلسفة والرياضيات والفلك، وله عدة مؤلفات في هذه العلوم، وكان يجيد السريانية واليونانية والعربية، وبذل جهدا طيبا في ترجمة التراث اليوناني إلى العربية.

وقد صنف كتاب (**الفلاحة الرومية**) تحدث فيه عن خصائص الأرض، وأنواع السماد، وما يصلح للزراعة، والرعى، وأحوال البذور، والحصاد، والبساتين وترتيبها، وغرس أشجارها، وصيانة ثمارها، ومنافع بعض الحبوب والخضراوات، كما أشار أيضا إلى تربية الماشية والطيور والنحل والأسماك.

2- **أبو بكر أحمد بن علي بن المختار الكلداني النبطي** (ت 296هـ/ 909م) المعروف **بابن وحشية النبطي**، وقد صنف كتاب " **الفلاحة النبطية**" سنة (291هـ)، ويعد من أهم كتب النبات والزراعة في العربية، اعتمد عليه الكثيرون بعده ممن كتبوا في هذا العلم، وقد شرح فيه مؤلفه- **على مدار ثلاثة عشر بابا**- العلوم الزراعية والنباتية المختلفة: من علوم التربة، والري، وأنواع المحاصيل، وطرق الانتفاع بها، والمحافظة عليها من الآفات، والأشجار والخضروات، والأنواء الجوية.

ومن أشهر علماء النبات والفلاحة في الأندلس **أبو عبد الله محمد بن إبراهيم البصال**، الذي عاش في **طليلطة** في **النصف الثاني** من **القرن الخامس الهجري** إلى أن اشتد عليها ضغط **ألفونسو السادس** (سنة 478هـ/ 1085 م) وانتقل منها إلى اشبيلية ودخل في خدمة حاكمها المعتمد بن عباد (461هـ/ 484 هـ) وأشرف على غرس حدائقه. وقد كتب **ابن بصال**

كتابا بعنوان " **الفلاحة**"، صار فيما بعد موضع إعجاب ومديح من العلماء الذين خلفوه، وحظي بالعديد من الدراسات الحديثة.

ومن المسلمين عرف الغرب الأفاويه: كجوز الطيب والقرنفل... ولاحظ بعض العلماء: أن العرب غرسوا الأشجار ثنائية المسكن، فكانت لديهم أفكار واضحة حول تكثير النسل، كما كانت لديهم معرفة واسعة بالاقتصاد الزراعي... وقد أوصلوا الزراعة إلى أقصى درجات الكمال.

علم الحيوان:يقصد بعلم الحيوان، العلم الذي يبحث فيه عن خواص أنواع الحيوانات وعجائبها ومنافعها ومضارها.**وموضوعه**: جنس الحيوان البري والبحري، والماشي والزاحف والطائر وغير ذلك. والغرض منه التداوي، والانتفاع بالحيوان، والوقوف على عجائب أحوالها، وغرائب أفعالها.

وقد بدأت محاولات المسلمين الأولى في علم الحيوان في ظل حركة جمع اللغة العربية في العراق (البصرة – الكوفة - بغداد)" في **القرنين الثاني والثالث الهجريين**، فصنفوا عددا كبيرا من الكتب والأجزاء الصغيرة، تحمل عناوين " الخيل" –" الإبل"- " خلق الفرس"- " البغال"- " الغنم والمعز"- " الوحوش"- " الطير"- " **الحمام**"- " البازي والعقاب"- " **الحشرات**"- " الجراد"- " النمل"- " الذبابّ- " الحيات والعقارب"- " النحل وأجناسه"- " السباع"- " البهائم" وغيرها.

ومن أهم الكتب المصنفة في علم الحيوان :

كتاب الحيوان للجاحظ: ويعد عمرو بن بحر الجاحظ البصري البغدادي (ت255هـ / 868م) في نظر الكثير من أقدم المسلمين المصنفين في علم الحيوان بعد أن صار كتابه " **الحيوان**"- وهو كتاب ضخم يقع في سبعة أجزاء بمثابة أول كتاب عربي جامع في هذا العلم.

وقد استمد الجاحظ مادته عن الحيوان من عدة مصادر، أهمها القرآن الكريم، والأحاديث النبوية، والأدب العربي، كما أنه قد يكون أول العلماء المسلمين الذين اقتبسوا ونقلوا من كتاب (**الحيوان**) **لأرسطو**، فأكثر النقل عنه، ونقل أيضا عن **جالينوس**، وأورد- في هذا الفن- معلومات كثيرة عن الفرس والهنود. ولم يقف (**الجاحظ**) موقف الناقل عن أرسطو، بل أخضع كلامه وآراءه للتحليل والتجربة، فقد عاب عليه قوله:" **إن الإناث من العصافير تعمر في الحياة أكثر من الذكور**"، وعاب عليه قوله:" **إن عض الثعبان يستطب له بحجر يستخرج من بعض قبور قدماء الملوك**".

علوم الأرض :

يقسم باحث معاصر المشتغلين بعلوم الأرض من علماء الإسلام قسمين:

القسم الأول:(300-500 هـ تقريبا 900-1100 م تقريبا) ويمكن تسمية علمائها **بالرواد** (**الموسوعيين**) في علم الأرض.

القسم الثاني:(500-800هـ تقريبا1100-1400م تقريبا)ويمكن تسمية علمائها **بالرواد**(**المتخصصين**) في علم الأرض.

ومن هذا نفهم أن اهتمام علماء المسلمين بدراسة الأرض لم يبدأ- على نحو علمي- إلا في القرن الرابع الهجري (العاشر ميلادي).

ومن الرواد الموسوعيين في علم الأرض **أبو عبد الله جابر بن حيان شيخ الكيميائيين العرب** بلا منازع.

ومن هؤلاء – كذلك- **أبو بكر محمد بن زكريا الرازي** (ت 313هـ/ 925م) ولد بمدينة الري جنوب طهران، وعاش طوال حياته ببغداد، وقد ألف الرازى حوالي **224 كتابا**، ضاع الكثير منها وبقي القليل.

ويعد **علي بن الحسين بن علي المعروف بالمسعودي** (ت 346 هـ/ 957م) من أبرز من اشتغلوا بعلوم الأرض، وأشهر كتبه في هذا المجال (**مروج الذهب ومعادن الجوهر**)، و به زيادات في الجيولوجيا الطبيعية كوصف هيئة الأرض، ومعالمها، وأغلفتها والمد والجزر، ودورة الماء في الطبيعة، وأوصاف النهار، وأسباب ملوحة ماء البحر.

أما **أبو الريحان محمد أحمد الفلكي المعروف بالبيروني**، والمولود في خوارزم (سنة 351هـ) فهو من الرواد الذين ازدهرت بهم الحضارة العربية والإسلامية، ومع أنه عرف بجهوده في الفلك والرياضيات والطب والآداب والتقاويم والتاريخ، إلا أنه له جهودا في مجال علوم الأرض كذلك.

وكان **ابن سينا (أبو علي الحسين)** (ت 428هـ / 980م) ممن لهم جهود في علوم الأرض أيضا.

ويعد بعضهم **ابن سينا المؤسس الرئيسي** لعلم الأرض (**الجيولوجيا**)، ومن أهم كتبه التي تهمنا في هذا البحث كتاب (**الشفاء**) الذي يقع في 28 **مجلدا**، وقد ترجم إلى اللاتينية واللغات الأوربية، الإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية، وبقي هذا الكتاب عدة قرون مرجعا لهذه الدراسات.

أما الرواد المتخصصون في علم الأرض (**التعدين والمعادن**) فنذكر منهم:

أبا العباس التيفاشي (580-651هـ / 1184- 1253) الذي نبغ في الكيمياء واشتهر بالخبرة بالأحجار الكريمة، وألف كتابه المشهور (**أزهار الأفكار في جواهر الأحجار**).**والتيفاشي** هو أول من تكلم عن ظواهر التشقق، والمحصورات، والتوأمية، واختبار الشعلة، وأول من حاول وضع نظريات في أصل تكون الخامات.

وفي هذا المجال التخصصي نذكر –أيضا- **أبا عبد الله بن زكريا القزويني** (ت 682هـ/ 1283م) الذي اهتم بالتأليف في الجغرافيا والتاريخ الطبيعي، ومن أشهر كتبه(**عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات**)، الذي درس فيه بعض قضايا الفلك والطبيعة والنبات والحيوان والجيولوجيا.

وجدير بالذكر أن كتب (**علماء الأرض**) المسلمين قد ترجمت إلى عدد من اللغات، وقد أشرنا إلى ذلك في ثنايا الحديث عن كل واحد منهم، كما أشرنا في ثنايا الحديث إلى كثير من (**الترجمات**) لكتبهم، ووجود (**مخطوطات**) من كتبهم في المكتبات والأكاديميات الأوروبية، مما يدل على تأثر الأوربيين بها، واهتمامهم بدراستها وتحليلها، كما ذكرنا ذلك عند حديثنا في علوم (**النبات**) و (**الحيوان**) مما يدل على الأثر الإسلامي العميق في الحضارة الأوربية في هذه المجالات الثلاثة.

فهرس المصادر و المراجع

01 ـ الحضارة الإسلامية : أحمد شلبي .

02 ـ الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية : محمد حسنين .

03 ـ مدخل إلى الحضارة الإسلامية : أ.د/ عماد الدين خليل .

04 ـ قصة الحضارة : ول ديورانت .

05 ـ ظلام في الغرب : محمد الغزالي .

06 ـ التراجع الحضاري في العلم الإسلامي : علي عبد الحميد محمود.

01- أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية:أحمد علي الملا .

02- تاريخ الفكر العربي:عمر فروخ .

03- عبقرية العرب في العلم والفلسفة:عمر فروخ .

04- تاريخ حكماء الإسلام:البيهقي .

05- أصالة الحضارة العربية: ناجي معروف .

06- تاريخ الحضارة الإسلامية :ترجمة حمزة طاهر .

07- الحضارة الإسلامية :أ.د/ عبد الحليم عويس .

08- مالك بن نبي رحمه الله ومشكلات الحضارة:دراسة تحليلية نقدية:زكي ميلاد.

09- منهج الحضارة الإنسانية في القرآن : أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله.

10- روح الحضارة الإسلامية :الشيخ محمد الفاضل بن عاشور ، تقديم وتعليق : أ.د. محمد عمارة .

11- مدخل إلى الحضارة الإسلامية : أ.د. عماد الدين خليل.

12- بدائع السلك في طبائع الملك:ابن الأزرق.

13-الفخري في الآداب السلطانية: ابن طباطبا .

14-كتاب الوزراء والكتاب:الجهشياري .

15-النظم الإسلامية :عبد العزيز الدوري .

16- النظم الإسلامية :فاروق عمر .

فهرس الموضوعات

مقدمة 02
الفرع الأول :الحضارة : تحديد وبيان 03
تعريف الحضارة 03
الحضارة في الاصطلاح 05
الحضارة في علم الانثروبولوجي 05
الحضارة والتاريخ عند فلاسفة 06
أ - **هيجل** 06
ب- **ماركس** ... التفسير المادي 06
ج- **ول ديورانت** 07
د - **ألبرت شفيتزر** 07
هـ- **أوزوالد شبنجلر** 07
و- **أرنولد توينبي** 08
الحضارة في صورتها المادية واللامادية 09
لفظ الحضارة في القرآن الكريم 09
الحضارة عند ابن خلدون رحمه الله 10
مشكلة الحضارة عند مالك بن نبي رحمه الله 12
مراحل الحضارة عند مالك بن نبي رحمه الله 13
شروط الحضارة عند مالك بن نبي رحمه الله 13
الرابط بين الثقافة والحضارة 14
مظاهر الحضارة عند مالك بن نبي رحمه الله 14
مصادر الحضارة 14
الحضارة عند سيد قطب رحمه الله 15
الخلاف بين سيد قطب ومالك بن نبي في تعريف الحضارة 15
الحضارة عند أبي الأعلى المودودي رحمه الله 16
تصور لمصطلح الحضارة الإسلامية 16
الخلاصة في معنى الحضارة في اللغة والاصطلاح 16
الحضارة عند الأستاذ الطيب برغوث 17
المحاور الكبرى لفقه التجديد الحضاري 17
الفرع الثاني :أسس الحضارة الإسلامية و مقوماتها 19
الفرع الثالث :خصائص الحضارة الإسلامية 25
الفرع الرابع :مصادر الحضارة الإسلامية 35
أولا : القرآن الكريم 35

ثانيا : السنة النبوية الشريفة 37
ثالثا : العقيدة الإسلامية 39
رابعا : الشريعة والأخلاق في الإسلام 47
خامسا : اللغة العربية وآدابها 51
الفرع الخامس :عوامل قيام الحضارة الإسلامية و انهيارها 56
- عوامل قيام الحضارة والعمران 56
- عوامل انهيار الحضارة والعمران 59
الفرع السادس :النظام السياسي في الحضارة الإسلامية(الخلافة ، الحجابة ، الوزارة، الولاة) 65
أولا : الخلافة 67
ثانيا : الحجابة 69
ثالثا : الوزارة 70
رابعا : الولاة ..... : 72
الفرع السابع :النظام الإداري في الحضارة الإسلامية (الدواوين ، الامارة) 74
أولا : الدواوين 74
أولا : الامارة 75
الفرع الثامن :النظام القضائي في الحضارة الإسلامية(القضاء ، الحسبة ، الشرطة) 78
أولا : القضاء 78
أولا : الحسبة 80
أولا : الشرطة 82
الفرع التاسع :النظام المالي في الحضارة الإسلامية(الزكاة ، الفيء، الجزية ، الخراج ، الغنيمة ، العشور)... 84
أولا : الزكاة 86
ثانيا : الفيء 88
ثالثا : الجزية 88
رابعا : الخراج 90
خامسا : الغنيمة 91
سادسا : العشور 92
الفرع العاشر :النظام العسكري في الحضارة الإسلامية (الجيش ، الأسطول) 95
أولا : الجيش 95
ثانيا : الأسطول 97
الفرع الحادي عشر :مظاهر الحضارة الإسلامية (الحياة الاقتصادية)..... 105
أولا : الحياة الاقتصادية الإسلامية وأثرها الإنساني 105
ثانيا : الوقف : المؤسسة الاجتماعية الأولى للأمة 107
الفرع الثاني عشر : مظاهر الحضارة الإسلامية (الحياة الاجتماعية) 110

أولا : الطبقات الاجتماعية في الإسلام 110
ثانيا : أهل الذمة في الحضارة الإسلامية 111
الفرع الثالث عشر:الحياة العلمية وتطورها 113
أولا:الحركة العلمية وتطورها 113
ثانيا: التعليم في العصرين الأموي والعباسي 115
ثالثا: حركة الترجمة وانطلاق المسلمين من التراث القديم إلى الإبداع 116
الفرع الرابع عشر:إسهامات المسلمين في الحضارة الإنسانية 119
أولا: أثر الأدب العربي في الأدب الأوروبي 119
ثانيا: أثر المسلمين في الفلسفة 120
ثالثا: أثر المسلمين في علم مقارنة الأديان 122
رابعا: جهود المسلمين في التاريخ والجغرافية 123
خامسا: الفنون في الحضارة الإسلامية 126
الفرع الخامس عشر:إسهامات المسلمين في العلوم التطبيقية 129
أولا: علم الرياضيات 129
ثانيا: علم الفلك في الحضارة الإسلامية 132
ثالثا: الطب الوقائي والعلاجي في الحضارة الإسلامية 136
رابعا: علم الكيمياء 141
خامسا: علم الفيزياء 143
سادسا: علم النبات و الحيوان والأرض في الحضارة الإسلامية 146
فهرس المصادر والمراجع 150
فهرس الموضوعات 151